رجال

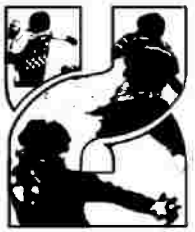

يعتذرون

للكاتبة: ابتسام أبو مياله

رجال لا يعتذرون

ابتسام أبو مياله

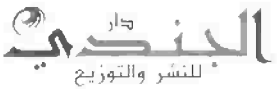

الطبعة الأولى

٢٠١٤

صدرت عن دار الجندي للنشر والتوزيع- القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

إهداء

إلى بناتي وأولادي، أجمل هدية حظيت بها من الرحمن، وشكر خاص لإبنتَيّ وصديقتَيّ، آمنة باسم حبوب وأماني باسم حبوب على تصميم وتنضيد الرواية

الفصل الأول

مدينة نابلس

كانت عيونه منشغلة بمراقبة يديها المرتعشة، تطرق بقلمها على الدفتر،فلا تلبث أن تخط جملة الا وتعود لشطبها، تفرك جبينها بين الحين والاخر، تنظر هنا وهناك كأنها تبحث عن شيء ما، أراد ان يسألها عن حالها ولكن عيون عبير "امينة مكتبة بلدية نابلس " المتجولة بين رواد المكتبة، كانت تحذر من اصدار الاصوات.

عرف ان شيئا قد حصل، اقترب من مقعدها وهمس:

- هل انت بخير؟

نظرت مطولاً في عينيه صامتة متحيرة، ثم قالت تتلعثم بصوت خافت:

- لقد عدت لأراه في منامي من جديد، بعد أن ظننت أني استكملت علاجي وشفيت.

أشاحت بوجهها للجهة الاخرى تداري منه دمعها الذي مسحته بكفيها على عجل، لتجد نفسها وجها لوجه مع عبير، صمتت، ولكن مصطفى لكزها بلطف وقال ملحا:

- انظري الي، سمر، انظري الي.

التفتت سمر نحوه فقال وهو يحدق بعينيها:

- قولي إنك لم تقرئي شيئاً جديداً حول الاجتياح، قولي إنك لم تفعلي، فهذه الحالة لا تعاودك الا بسبب.

بقيت سمر على صمتها، فتلفت حوله مغموما ليجد عبير من جديد تنقر له بلطف على الطاولة.

قال وقد لملم كتبه ودفاتره:

- لنخرج إلى حديقة المكتبة ونتحدث.
- حسنا، لننزل

كانت قدماها تنزل الادراج إلى الطابق الاول من المكتبة ولكن عيونها كانت تنظر إلى الطابق الثالث حتى قالت:

- لم لا نصعد؟ أريد الذهاب إلى قسم الارشيف.
- نعم، حيث يحتفظون بكل أعداد الجرائد، مزيد من القراءة حول الاجتياح، أهذا ما تريدينه؟
- نعم.

اسرع مصطفى نحو الباب يسبقها ببضع خطوات وكأنه يهدد بالغضب، ثم وقف ينظر إليها وهي تتبعه متعبة مثقلة بالهموم، تعوذ من الشيطان في حركة أسف سريعة، ثم خرج معها إلى الحديقة وقال:

- اسمعيني جيدا، لقد عرفتك منذ سنوات،وبت أعرف تماما ما الذي يضرك أو ينفعك،فقد قال الطبيب ان شيئا ما قد حصل معك أثناء الاجتياح،وان عقلك يرفض تذكره لأنه مؤلم جداً، لذلك فإن أي قراءة أو استفزاز لذاكرتك حول الموضوع له عائدين،إما الألم والتلعثم، وإما ان تتحدثين عما جرى حقا معك وتواجهينه، وبذلك لا تعودين للألم ابداً.
- إنني أتذكر الأشياء ذاتها، وأرى الأحلام ذاتها.
- حسنا، ماذا رأيت هذه المرة؟
- الحلم ذاته،لقد رأيت نفسي طفلة تجدل ظفيرتها قرب نافذة الغرفة المطلة على أحد أزقة المخيم، وعادت أصوات بعض الشبان لتصل أذني واضحة جلية وهم يتدارون في الزقاق ويتجادلون مع شاب أراد التطوع معهم.

كان صوته مؤثرا وهو يستعطفهم ويرجوهم أن يتركوه وما اختار لنفسه، ولكنهم كانوا يحاولون ثنيه عن ذلك بحجة أنه وحيد أمه، والاخ الوحيد لثلاث أو أربعة بنات يتيمات الاب، ولكنه أصر على موقفه.

اقتربت من النافذة بتلطف ونظرت، لقد كان صغيرا لم يتجاوز الثانية والعشرين، له شعر ناعم ينهدل على جبينه، يزيحه بين الحين والآخر بيده عن نظارته الطبية.

ولكني حين نظرت إليه هذه المرة في منامي، رفع راسه ونظر الي واذا بوجه وليد واضحا أمامي بكل تفاصيله، حتى ابتسامته، لقد تبسم لي علي شق من فيه، تماماً كما كان يفعل في الحقيقة ثم قال:

- انا لا أزال حياً.
- استيقظت بعدها وقد انتفض جسدي وتوعك ولا يزال حتى الساعة.
- إذن ذكرى وليد هي ما يربكك!
- لا أدري.
- هل تذكرت شيئاً آخر، شيئاً حدث حقيقة معك أثناء الإجتياح.
- لا، سوى أنني كنت أجري وأجري طوال الوقت، لم أذكر شيئا جديداً.
- إذن فكل ذلك دون فائدة.
- نظرت إليه سمر باستغراب، فاستدرك وأكمل:
- أقصد، في كل مرة أتمنى أن تكون المرة الحاسمة التي تجعلك تتحدثين عن كل شيء دفعة واحدة فأنا أحب أن أراك تتخلصين من ذاك الحمل الجاثم على ذاكرتك، ولربما نتأكد من استشهاد ذاك الوليد الذي لا يزال يطاردك في أحلامك.
- ذاك الوليد ؟! لا يحق لك التحدث عنه بهذه الطريقة.
- حسناً.
- إنه أفضل إنسان عرفته.

- حسناً.
- سأعود إلى المكتبة.
- حسناً.

نهضت سمر من فورها منتفضة، وتوجهت نحو المكتبة تاركة مصطفى بين ابتسامة بلهاء ونظرات خائبة، لا يفهم لم تركته.

أطرقت سمر رأسها في دفترها تبثه همومها بما تخط فيه، ترفع ناظريها بين الحين والاخر لتتفقد مصطفى المتنقل بين الكتب دون هدفو تعود لتكتب:

"كان قلبي يعرف طوال الوقت وكنت أكذبه، كانت الغصة الثقيلة التي جثمت على صدري طوال غيبتك تخبرني وكنت أصم أذني عنها، حتى تلك الدموع التي أحرقت مقلي وسطرت حزنها على صفحة خدي كانت تقول "هو لن يأتي".

"لكم قلبت الهاتف بين أصابعي استجدي اتصالاً، كم توسدت الآمي وتلحفت آمالي، وتصنعت القوة على الإنتظار، أدافع الحقيقة الكبيرة الثقيلة عني، وأتونس بكذبة أحببت أن أصدقها، فأنا في أمور قلبي أظل أطارد أوهامي، وأجعل منك بطل حكاياتي الوهمية، أرفض الاستسلام لفكرة أني لن أراك ثانية، فلا يزال في داخلي نبض يصر على أنك حي في مكان ما وعلي أن اجدك".

أطبقت سمر دفترها الصغير، ونظرت بعيون بنية تعبة نحو أصدقائها المتهافتين نحو أمهات الكتب وكل يبحث عن كتاب يستعين به.

اقترب مصطفى منها يحمل بين يديه كتابين، وقال وهو يضع احدهما أمامها:

- الا زلت تكتبين له؟

كادت سمر أن ترد عليه بغضب، "الامر لا يعنيك"ولكنها ابتلعت كلماتها وصمتت. فأكمل:

- سنوات ستة أو سبعة، منذ اجتياح جنين! أليست مدة كافية لتنسيه؟

همت سمر بافتعال شجار معه ولكنها نظرت نحو المسؤولة الجالسة قبالتها وقالت بصوت خافت:

- وهل علي ذلك؟

وقف مصطفى أمامها مستغرباً جوابها، ثم شد ظهره للخلف وفتح ذراعيه على جانبي جسده وحدق بها، رفع كتفيه لبرهة، وضحك ضحكة تهكمية وقال:

- أتعرفين، أنا أعتذر، هذا الامر لا يخصني.

ثم حمل أوراقه وابتعد، وفي رأسه صوت يضحك منه بسخرية ويقول:

- أيها الاحمق الذي لا يتعلم أبدا، انه أحد الأيام الذي تعود فيه لتعتقد أنها تحب وليد، وأنه لا يزال ينتظرها في مكان ما، فمتى ستفهم أنت أنها لا تحبك.

أغمض جفنيه على نظرات الخيبة وجلس متحسراً، فهو يعلم أنه لا مجال لاي ادعاء الآن، فمحاولاته الفرار من حبها من قبل قد باءت كلها بالفشل، ولم يعد هناك ما يستطيع فعلة لانهاء هذه الحكاية.

أزاحت سمر بقايا شعرها الاسود المتفلت من الجديلة، ودفعتها عن وجهها وأدارتها خلف أذنيها وتابعته بنظراتها صامتة، ثم فتحت دفترها وبدأت تكتب ملاحظاتها الخاصة لبحثها المطلوب وكأن شيئا لم يكن، كانت تعرف أنه يسترق النظر اليها بين الفينة والأخرى، ولكنها أيضا كانت تطيل النظر في عيون صديقتها داليا التي تصرح باستمرار أن مصطفى هو حبها الذي تصمم على الحصول عليه بأي ثمن.

مرت ساعة والصديقات على الطاولة يسجلن ملاحظاتهن بصمت، ومصطفى على طاولة أخرى لا يلتفت اليهن، اقتربت داليا وهمست بأذن هبة:

- ماذا به؟، إنه لا ينظر الينا.

اقتربت هبة من أذن سمر وهمست:

- ما به مصطفى، تكاد داليا تجن لأنه لا ينظر اليها.
- لا ادري.

عادت هبة وقالت لداليا:

- اهتمي ببحثك الآن وعندما نخرج نسأله.

نفضت داليا جسدها فوق المقعد بغضب، وكأنما سمعت ما لم يعجبها، ثم حملت أوراقها وانتقلت نحو طاولة مصطفى، رفع مصطفى ناظريه اليها وضحك، ارتبكت داليا وسألت:

- ماذا؟ هل ارجع؟
- لا تفضلي.

تعمد مصطفى إظهار اهتمامه بداليا في تلك اللحظات وساعدها على أخذ ملاحظاتها الهامة من البحث، مما جعل داليا في قمة السعادة تحدق بين الحين والآخر في عيون هبة وكأنها تقول أشياء كثيرة دفعة واحدة وعلى هبة أن تفهمها وحدها، قال مصطفى:

- لنصور هذه الصفحات ونكمل البحث في المنزل.
- حسنا إذن سنبقى على اتصال.
- سأراك غدا في الجامعة.
- أكيد، رقم هاتفي لديك.
- لا ليس لدي.
- إذن سأكتبه لك.

وبخفة وسرعة التقطت داليا هاتفه عن الطاولة وطلبت رقمها حتى ما اذا رن هاتفها قالت وهي تعيده:

- الآن لديك رقمي ولدي رقمك، أراك غداً.

نزل مصطفى من الطابق الثاني للمكتبة نحو الطابق الاول وعيون الفتيات الثلاث تلاحقنه باستغراب، فليس من عادته ترك هذه المكتبة قبلهن ابدا حتى لو انهى بحثه، لقد كان يدعي ان واجبه كصديق الاطمئنان إلى انهن غادرن إلى بيوتهن بسلام، واليوم يتركهن حتى دون ان ينظر نحوهن او يستأذن، في حين تبسم هو ابتسامة خفيفة بينه وبين نفسه وقال:

- الان ستضطر للتفكير بي وستعرف أنها تحبني أنا، وإن حالفني الحظ فلربما تقر بحقيقة استشهاد صديقها أولا أدري إن كان حبيبها وليد.

كانت سمر تعرف بينها وبين نفسها أنها أغضبته، ولكنها لم تكن المرة الاولى التي يطرح فيها الموضوع، ثم إنها هذه المرة تحديداً لم تجبه بشيء يغضبه فما الذي يحدث؟

عادت سمر لدفع شعرها خلف أذنيها وانخرطت في انجاز فرضها الدراسي صامتة، وكلها أمل أن ينتهي هذا الخصام سريعا، فهي تكره إغضاب مصطفى وتخاف فقدان صديق آخر.

أما داليا، فكانت لا تنتهي من حديثها عن مصطفى طوال طريق العودة، وصوت هبة يرتفع تارة بالامتعاض وينخفض أخرى بضحكات مكبوتة، وسمر تجاريهما بالحديث والتضاحك.، قالت داليا

- أتظنان أنه يحبني؟
- أظنه لا يشعر بوجودك.
- لا، ليس لهذه الدرجة، إنه لطيف جداً في معاملتي ويبتسم باستمرار حين يراني.
- إنه هكذا مع الجميع.

- يا لك من فتاة محبطة يا هبة، اصمتي إني أتحدث إلى سمر.

لكن سمر كانت قد شردت بفكرها نحو أمر آخر:

"إنه لم يقل يوما انه يحبني، لقد كنا صغاراً ولكني كنت أرى في عيونه نظرات ليست كأي نظرات، حتى حين كان يغضب مني ويحدث غيري كنت أعرف أنه يراني بطريقة ما، يستشعر كل حركاتي دون أن يلتفت إلي، يبتسم بطريقته الخاصة على جانب واحد من فيه كلما نظرت اليه، فأعرف أنه يراقبني، ابتسم بدوري فتذوب السعادة بيننا وتنتهي كل خلافاتنا، كنت أحب هذا الشعور، لقد جعل مني فتاة سعيدة رغم كل المصائب التي غزت حياتي، لقد كان دائما موجوداً لأجلي تماماً كما مصطفى هذه الآونه".

تغير لون سمر وهي تنتبه للكلمات الدائرة في خلدها وبان ارتباكها، فما الذي أدخل مصطفى "حبيب صديقتها داليا" إلى صلب مشكلتها مع وليد.

قالت سمر وقد علت على وجهها ابتسامة فاترة أرادت بها التمويه:

- أفكر بأمر ما، إذا ساعدتموني فيه قضينا أجمل وقت على الاطلاق معا.
- وقت جميل؟ أفعل أي شيء لأجل ساعة راحة.
- إذن لنتوجه نحو محلات العرائس.

قالت داليا وقد أعجبتها الفكرة:

- هل سنتظاهر بأننا عرائس ونجرب بعض الأثواب؟
- وكزتها هبة وقالت:
- دعينا من ذكائك، إنه المحل الذي تعمل فيه الخالة نهلة.

قالت سمر وابتسامتها الفاترة لا تزال تعلو وجهها.

- لم لا ندعي أننا أنهينا دراستنا ونطلب منها مفتاح المنزل، من يدري لعلها تسمح لنا بقضاء الليلة في منزلي.

- هل تقصدين أننا مدعوتان للمبيت معك في منزل الخالة.
- لا لا، لقد قصدت منزل والدي، لقد اشتقته كثيرا، انه مقفل منذ سنين، مذ توفي والدي رحمه الله.

التفت سمر ووقفت بوجه صديقتاها وكأنها تستوقفهما عن الحركة وقالت وهي تحدق في عيونهما:

- إذا أعطتنا المفتاح، يكون بإمكاننا الوصول إلى منزلي في جبل عيبال قبل مغيب الشمس، نجدد تهويتة ونبيت فيه وحدنا.

ظلت الصديقتان على صمتهما فأكملت مشجعة.

- إنها تحتفظ بالمفتاح في درج في مكان عملها، لذلك ،،، هذه فرصتنا.

قالت هبة تستسخف الفكرة:

- ولكن البيت مهجور، فإذا جعنا أو عطشنا؟
- المنزل قريب من البقالة، ثم إن منطقتنا هناك من أجمل مناطق نابلس، ستسعدكما المناظر الطبيعية التي تطل عليها شرفتنا.

نظرت داليا إلى هبة وقالت:

- أنا شخصيا موافقة، لا داعي للمبيت في السكن الليلة.

قالت هبة وكأنها تستسلم:

- ليكن إذن، هيا إلى الخالة نهلة.

توجهت الفتيات نحو شارع الجامعة وعيونهن تمد النظر نحو محل العرائس وقد شدت أرجلهن الخطا لإنهاء الأمر.

صاح أبو فادي وقد رأى ثلاثتهن يتقدمن نحوه:

- نهلاااااة... تعالي وخلصيني من القراصنة.

رفعت نهلة رأسهامذعورة وقالت:

- سمر! إنها سمر وصديقاتها، سيثرن جنون أبي فادي الآن.

ورفعت زميلتها خولة رأسها هي الأخرى وقالت:

- نعم، لقد قال القراصنة.
- يا الهي لنسرع.

وضعت كل منهما الثوب جانبا وأسرعتا إليه ليجدنه يتظاهر بالإنشغال عن البنات بالبحث وكأن ثوباً ناقصاً من الأثواب التي وصلته لتوها من محل التنظيف الجاف وعليه إيجاده.

قالت نهلة وقد نزلت بسرعة من الطابق العلوي.

- أهلاً وسهلاً ما سبب تشريفنا بهذه الاطلالة البهية؟
- قالت هبة وقد أحست إستياء الجميع من قدومهن:
- لم نحضر لعمل أي دراسة عن محلكم، ولا لأجل البحث عن بضائع إسرائيلية، ليس لدينا أسئلة بأي خصوص.

قالت نهلة وقد أحبت مشاكسة البنات:

- هل هذا صحيح؟ إذن بم ستزعجننا اليوم؟ عم يدور بحث اليوم الجامعي، ربما.....
- لا أبحاث ولا نقاشات، لقد كانت مداعبة ذات مرة ومضت، ألا زلت تذكرين!
- قاطعتهما سمر قائلة:
- يا خالتي، يا حبيبتي.
- حسنا ماذا تريدين يا سمر.
- لقد فكرنا بما أننا أنهينا دراستنا، لربما تسمحين لنا بالذهاب إلى منزل والدي.
- ماذا؟ وكيف خطرت هذه الفكرة على بالك؟

- أرجوك، لقد مرَّ زمن طويل ولم أتفقده.
- وقبل أن تجيب سمر صاح أبو فادي:
- هيا يا نهلة.

شدت نهلة على أسنانها لا تدري ما تفعل، مما جعل خولة تمد يدها بالمفتاح قائلة وهي تنظر في عيون نهلة:

- فكرة لا باس بها، أتخافين عليهن؟ إني أخاف على الجيران منهن الليلة.
- ولكن.

صمتت نهلة وامعنت النظر بالأرض لبرهة ثم رفعت عينيها نحو خولة وقالت بصوت مقموع بالحسرة:

- إنها المرة الأولى التي تعود بها إلى منزل والدها منذ سنوات كثيرة، ما كان يجب أن تكون عودتها بهذه الطريقة، كان علي ان أكون معها.

أحست خولة أنها أخطأت كثيراً بإعطاء المفتاح لسمر، فلم تكن نهلة سعيدة بما حدث ولكن صوت ابي فادي جاء ليحسم الامر

- هيا اثنتيكما الى العمل.

الفتيات كن قد خرجن بسرعة الى الطريق. قالت سمر ضاحكة:

- لقد كان الموضوع أسهل مما توقعت.
- وكأن المفتاح كان جاهزا بيد خولة.
- نعم، لننطلق.

أدارت سمر المفتاح بباب الطابق الثاني للمنزل حيث يفترض أن تبيت،ودقات قلبها تكاد تقتلعه من مكانه ومدت رأسها وهي تشق الباب ببطء،كأنما تتوقع حدوث شيء ما أو سماع صوت ما الا أن الصمت كان سيد الموقف، تدافعت صديقتيها إلى الداخل وقد بدت علامات الانبهار واضحة

على وجهيهما، تنقلان عيونهما بين الأثاث القديم المتروك وبين ثريات السقف وألوان الحيطان حتى قالت داليا:

- هل هذا منزلك؟ انه مدهش.

قالت سمر وهي تمر بكفها على حيطان لمنزل تتحسسهم بحنو:

- نعم لقد كان والدي رحمه الله رجلا مهما، كان من أكبر رجالات نابلس وأثراهم،
- نعم، لقد كنت تقولين ذلك ولكني لم أتخيل هذا.

قالت هبة وقد بدأت تطرق بيدها على الكنبة:

- أين الغبار؟
- ماذا؟
- إن المنزل نظيف جداً نسبة لمنزل مهجور لعدة سنوات.

تنهدت سمر وقالت وهي تفتح أبواب الغرف الأخرى:

- لقد تركنا المنزل في عهدة أم العبد، إنها امرأة رائعة كانت تأتي لمساعدة أمي،وبعدها لمساعدة زوجة أبي،ثم تركنا معها المفتاح لتبقى تعتني بالمنزل في غيابنا.
- لا أصدق، إنه واسع وجميل كما الفنادق الفخمة.

لم تجب سمر وإنما وقفت واجمة أمام أحد الأبواب وكأنما تتردد في فتحه فقالت هبة بتخوف:

- ماذا هناك؟ أشعر كأني داخل إحدى الروايات وبأنني سأواجه الغول خلف الباب!
- أدارت سمر ظهرها للباب قائلة:
- ربما نفتحه فيما بعد.

ومشت بضع خطوات، ولكن أحداً لم يتبعها فالتفتت لتجد صديقتاها قد

اقتحمتاه إلى شرفة فسيحة مكشوفة تطل على أجمل ما في جيل عيبال من مساحات مشجرة باللوز والصنوبر، وقد هب نسيم صيفي لطيف يداعب وجهيهما كأنما يرحب بهما في حضن الجبل الشامخ، قالت داليا بانبهار:

- يا إلهي إننا في الجنة، كيف يكون لك مثل هذا القصر وينتهي بك الامر في مخيم جنين؟ وأثناء الاجتياح؟ إنك لغز محير.
- ونظرت إلى سمر ولأول مرة ترى معالم مبهمة على وجهها وعبارات غير مقروءه فقالت:
- هل اغضبناك؟

لم تجب، وإنما اقتربت من حافة الشرفة ونظرت للأسفل وقالت بمرارة:

- لقد اختفى السلم، ومات حوض النعنع، الأعشاب الجافة تسيطر على الأرض بعد ما كانت الأزهار من كل لون.

ثم التفتت إلى صديقتيها وتنهدت كأنما تريد البوح بسر حياتها وقالت:

- صديقتاي أعرفكما بهذة الشرفة التي كانت يوما ملعبي وفي يوم آخر كانت سجني، هنا في هذه الشرفة قضيت أسوأ ايام عمري، وهنا أيضا بدأت أحلاها.

هبطت سمر على الأرض و مرت بيدها على البلاط تتحسسه بحنين وقالت:

- كم من مرة غسلتك بدمعي حين كانت زوجة أبي تحبسني هنا وحدي وكم مرة وضعت خدي عليك وهمست لك باسراري أأتمنك عليها. أنت الوحيدة التي تعرفي قصتي مع وليد.
- وهل عرفت وليد منذ الطفولة؟
- نعم.
- نهضت عن الأرض وأكملت وهي تنظر إلى الجبل الشامخ أمامها:
- أتعرفان ما كان أكبر أحلامي وأنا صغيرة؟ أن أبني جسراً أو طريقاً أو أي شيئا يصل بين هذه الشرفة وبين قمة الجبل وكثيراً ما بنيتها

في خيالي وهربت عبرها من سجن زوجة أبي وكم رأيت في مغامراتي جنيات طيبات ساعدنني في الابتعاد عن هذه الشرفة بالطيران والتحليق فوق الغيوم وكم اختبأنا بين أغصان الأشجار البعيدة ننتظر عودة والدي، فارسي، منقذي ولكن زوجته، شريرة الحكاية، كانت تدفع هذا الباب بعنف وتسحبني للداخل وتقول:

- هيا اغسلي وجهك ويديك ورتبي نفسك لنتناول الطعام، ولن أكرر.

طبعا لن تكرر فقد حفظت الدرس، علي أن أبدو سعيدة أمامه والا أذكر الشرفة أبداً لأنه تعب، وعلي الا أغضبه، الحقيقة أنني كنت أخافها ولطالما تخيلت أن فأرين يعيشان على كتفيها بسرية تامة، وكم تمنيت في ذاك الأوان لو امتلكت الجرأة لدخول غرفتها، فمن المؤكد أنني لو بحثت بين أشيائها لربما وجدت الكرة السحرية التي تسيطر من خلالها علي وعلى أبي، وربما لو كسرتها لصفي لي وجه أبي وشعر بوجودي، أحلام وخيالات لم تجد نفعا حتى ظهر وليد. كنت في الثامنة من العمر وكان ابن اثنتا عشر، أتى إلى حياتي وعلمني أن هناك حياة علي أن أعيشها.

انهمرت دموع سمر كما لو أن أحداً أزاح حاجزاً من أمامها دفعة واحدة وصاحت وقد تملكتها رعشة قوية بدت واضحة في يديها المرتجفة وصوتها المهتز.

- واليوم انا لا اجده في أي مكان، لا أصدق أنه تركني، لا اصدق أن يختفي هكذا وبكل بساطة وأعجز أنا عن إيجاده، ماذا لو كان بحاجة للمساعدة؟ قلبي يحدثني أنه في مكان ما ينتظر أن أجده وأساعده، كما كان يجدني ويساعدني باستمرار.

قالت هبة وهي تحاول رفع قامة صديقتها المتداعية نحو الارض:

- ستقتلين نفسك بهذه الأفكار أيتها الحمقاء، لم لا تتقبلين فكرة استشهاده خلال اجتياح جنين؟ لو كان حي لظهر بعد كل تلك السنين.

- ولو استشهد أيضا لعرفنا بعد كل تلك الإحصائيات والبحوث، حتى تم التعرف إلى كل الشهداء ولم يبق أحد مفقود.

أجهشت سمر بالبكاء بعد أن قالت تلك الجملة، وصديقتاها تحاولان حضنها ومواساتها، حتى هدأت وبدأت تمسح وجهها بكفيها وقالت:

- آسفة، لقد وعدتكما بأجمل وقت وها أنا....
- لا عليك، سنجعلك تعوضينا بشراء طعام العشاء، إني جائعة.

تضاحكت الصديقات معاً بين دموع منهمرة ودموع مكبوتة، داليا وهبه ودفعتا بها نحو الحمام لتغسل وجهها وتهدئ أنفاسها المتعبة، فوكزت داليا هبة وقالت:

- الا تفكرين بغير بطنك؟
- بلا، بما أننا ندرس صحافة وإعلام، أرى أن حكاية سمر مربحة إذا مررناها إلى إحدى الصحف.

شدت داليا بكفها على فم هبة ممازحة، وانطلقتا خلف سمر.

كانت الصديقات الثلاث بغاية الإنتعاش والسعادة، وهن ينقلن الخطى ببطء على الطريق بين البقالة والمنزل فقالت سمر تريد فتح مواضيع بعيدة عن الهموم:

- حسنا أيتها الإعلاميات، ماذا تعرفن عن جبل عيبال؟
- إنه شقيق جبل جرزيم.
- يا للذكاء.
- إنهما أعلى قمتان ضمن سلسلة جبلية تمتد من الناصرة إلى القدس وهما جبلان نابلسيان.

عادت الضحكات لوجوه الصديقات فقالت داليا:

- ليت مصطفى معنا؟
- معنا أين؟ أتريدين أن يرجمونا! ثم إني أظنه لا يفكر في الحب مثلك.
- سيفكر يوما ما أليس كذلك، أريد أن أكون خياره الاول.

تململت هبة وبدأت تصدر أصواتاً كأنما تبحث عن كلمة مناسبة لتقولها ولا تجد فصاحت بها داليا:

- ماذا ؟ هل ترين ذلك صعباً ؟ ألهذه الدرجة؟

كادت هبة أن تواجه داليا بالحقيقة الواضحة، ولكنها في اللحظة الأخيرة اختارت الصمت.

توقفت الصديقات عن الحديث لبرهة، وكأن كل منهن تعرف بطريقتها الخاصة أن الحديث قد وصل إلى حيث عليهن السكوت.

عرفت سمر أنهما تلمحان إلى أن مصطفى واقع في غرامها، ولكنها لم تشأ الدفاع عن هذا الموقف، ولا حتى التعليق عليه، وإنما فضلت النظر إلى منزلها المطل من بعيد وقالت:

- لكم اشتقت لهذا البيت، لهذة المنطقة بأسرها، لتلك اللوزة التي علق لي أبي فيها أرجوحة، وذاك البئر الذي كنا ننظف السطح في كل عام لتكون مياهه نظيفة حين تنزل إليه عبر المزاريب. إنني رغم الصيف الحار لا ازال أشتم رائحة التراب، ورائحة أول قطرات المطر، ولا يزال بي حنين لقطعة الأرض الصغيرة التي أهدانيها أبي وأنا صغيرة، قطعة بمساحة غرفتي، وطلب مني أن أجعل منها بستاني الخاص ووضع كل أدوات الزراعة تحت تصرفي.

فتحت هبة فمها تريد التعليق، ولكنها عادت وابتلعت كلماتها مع ريقها وهي تقول في نفسها: (ليكن الله في عونك، بيت كالقصر لا تستطيعين العيش

فيه، وحبيب مفقود لا تزالين تكتبين له وترفضين الاعتراف بوفاته، وخالة تعيشين معها وترفض أن تحدثك عن كثير مما يهمك).

انتبهت سمر لما قالته، ووجدت نفسها تكرر الجو الذي هربت منه والموضوع الذي وعدت صديقتاها بتغييره فأثرت الصمت من جديد، ولكن صمتها جعلها أكثر تحديقا بالمنزل، وأكثر تأملاً له، أحاسيس كثيرة استيقظت في فؤادها وعقلها، حتى باتت تراه ينفض عن نفسه ألوانه الباهتة، ويستعيد حضوره القديم المفعم بالحياة، وبدأت الأزهار تنمو حوله بكل الألوان، حتى أن الأصوات عادت تقرع ذاكرتها، فهذا صوت أم العبد تخرج بأكياسها المملوءة بما فاض من خيرات المنزل، وذاك صوت سيارة أبو سمر يعلن بوقها وصوله، ثم من تلك الصغيرة التي تطل من الباب إنها سمر الصغيرة، نزلت تسابق ام العبد على الأدراج المكسوة بالبلاط المنفط حتى رمت بنفسها في حضنه وهي تصيح فرحة.

- أبي ي ي ي.

رفع الأب ابنته بين ذراعيه بسعادة، وحيا أم العبد وهي تمر به وانطلق يصعد الأدراج، وهمس لصغيرته:

- هل لدينا زوار؟
- نعم، العمة الكبيرة.
- اه، هذا يعني الاستعداد للقتال.

دخل أبو سمر باب منزله، فوجد شقيقته ترتب منديلها على رأسها استعدادا للمغادرة فقال:

- إلى أين؟ أنا لم أرك بعد.

علي العودة، إذا كنت تريد رؤيتي قبل أن أغادر إلى الأردن فالحق بي.

- ولكن لم العجلة وقد وصلت؟

- لا أريد المكوث أكثر.

وفجأة أنزلت سمر من حضن والدها، ثم سحبته جانباً وهي تتلفت وقالت:

- الم تجد أصغر من هذه الفتاة لتتزوجها!

ابتلع أبو سمر ريقه فأكملت:

- إنك على أبواب الستينات أيها الرجل، طلقت سلوى بعد أن اعتزلتها أعواماً، فعذرناك رغم أن المسكينة لم تقترف ذنبا، وقلنا أرغمه والدنا على الزواج من ابنة عمنا خوفاً على أموال العائلة.
- تقصدين أموالي؟
- أحببت هدى وأتيت بها، تزوجتما واكتشفنا بعد ذلك أن أهلها جميعاً في العراق، وأنها شقيقة أحد معارفك من العائدين وما إلى ذلك من مغامراتك، قلنا هو الحب، هذه ستعيش معه وبعد أن أنجبت لك هذه المسكينة، ماذا فعلت، أنت تعرف ماذا فعلت حتى جعلتها تفر ذات ليلة ولا تعود، رحمها الله، والان جئت إلى منزلك وكلي أمل أن أجد فيه امرأة تليق بك وبعمرك، امرأة تربي ابنتك، فوجدت أنك حصلت على ابنة اضافية، إنها في الثالثة والعشرين أيها الرجل! أتظن أن والدها زوجك بها لشبابك؟ أو ربما لجمالك.

رد الوالد باستياء:

- أرجوك هذا أمر لا أحب أن يتدخل به أحد.

صمتت العمة وحملت حقيبتها وتوجهت نحو الباب وقبل أن تخرج قالت:

- سمعت انك تغدق عليها بالهدايا، أو هذا ما فهمته من كلام الصائغ أبو سامي، أفهمت الآن ما يقوله الناس عنك.

ظل الوالد على صمته فأكملت:

- اشفق على هذه الصغيرة فأنا مغادرة إلى الاردن دون رجعة هل فهمت، إن ابنتك تعاني خطباً ما، لم أعرف ما هو، ولكن من الخير لك أن تنتبه لها.
- ابنتي في أحسن حال.
- وما أدراك ؟ إنها تجري نحوك حين تعود لتختبئ وتحتمي بك، ألا تعرف ذلك.
- ولم كل هذا الخيال الجامح في رأسك؟ كيف تفكرين؟
- إنها تجلس معي كلما زرتها ولا تتحرك من مكانها ولا تتحدث وكلما مرت زوجتك انتفضت في مقعدها، ما بك؟ كيف لا تلاحظ كل ذلك؟ أم أن الاحمر الذي تلون به شفتيها ووجهها يعميك؟
- لقد تماديت كثيراً هذه المرة.
- حسناً، أنا ذاهبة دون عودة، فإن أردت رؤيتي سأكون في منزل أخيك أبي مفيد؟

نزلت العمة الأدراج غاضبة تتمتم بصوت خافت كلمات غير مفهومة في حين أخذ الاب نفساً عميقاً ودخل.

كانت عودة الوالد أجمل لحظات أيام سمر، إلا أنه في ذاك النهار دخل متعجلاً إلى زوجته وبين سؤال وجواب ارتفع صوت شجارهما، فتبدل وجه سمر وعرفت أن عليها التوجه إلى غرفتها صامتة.

كان صوت أم العبد في اليوم التالي صاخبا وهي تعترض سائلة:

- لم علي حجزها في الشرفة من جديد؟ أنا أكره فعل ذلك، الا ينتهي هذا الامر؟
- لا وقت لدي لاسئلتك، افعلي ذلك.
- يا ابنتي، إنها طفلة صغيرة، لا أريد أن تقع من الشرفة.
- لن تقع، أريد أن أنهي التنظيف قبل عودة زوجي.

أرادت أم العبد ان تواسي سمر ببعض الكلمات قبل أن تمسك بيد ها

وتمشي بها إلى الشرفة، لكن قلبها كسر نصفين وهي ترى الفتاة تمشي وحدها إلى الشرفة وتغلق الباب خلفها، أطلت أم العبد عليها بتردد وقالت:

- ستمكثين قليلا حتى ننهي التنظيف، سأجلب لك بعض الالعاب.

لم تنطق سمر بشئ، وإنما وضعت رأسها على البلاط متوسدة كفيها ونامت،فهي لا تفهم شيئا مما يجري، ولا تجد له تفسيراً، الا أن انصياع أم العبد لأوامر زوجة أبيها جعلتها، تخافها أكثر وتؤمن أن في داخلها قواً خارقة تسيطر بها على الآخرين، وما عليها سوى طاعتها، وذات يوم، وبدون سبب يذكر، كان صوت زوجة أبيها يعلو بالشتائم واللعنات وأخذ باب الشرفة يفتح بين الحين والآخر فتلقي زوجة أبيها بعض الأشياء وتذهب، اقتربت سمر تبحث عن شيء تلعب به، مدت يدها وسحبت سلة من القش، "إنها سلة أمي المفضلة كانت تضع فيها مقص الأزهار والكفوف البلاستيكية وأكياسها الصغيرة، كانت أمي تقول انني ممنوعة من اللعب فيها فبعض المواد ربما تكون سامة، وما تلك إنها المجلات المصورة التي كانت أمي تحب مطالعتها، وهذه بعض ملابسها وهذه، وهذه وهذه، كم أشتاقك أمي، كم أشتاق ضمات والدي وحنوه، لقد أصبح حزينا بعدك، كثير الصراخ والغضب، ليتك تعودين أمي ليتك تعودين،

حملت سمر ما استطاعت من أشياء امها وركضت نحو والدها، بعد ان سمعت بوق سيارته ينقض على ذكرياتها المؤلمة ويبعثرها.

- ابي ابي.. أنظر هذه أشياء أمي صارت لي.
- من اعطاك هذه؟ كيف وصلت إلى يديك؟

وقبل أن تجيبه سمر كان قد قفز الأدراج نحو زوجته وبدأ يصرخ في وجهها:

- ألم امنحك غرفتك الخاصة على أن تتركي غرفتها، لم فعلت ذلك؟

ازداد الصراخ في المنزل وارتفعت الأصوات وسمر لا تزال على الأدراج تخبئ رأسها في بعض أثواب أمها، تؤرجح جسدها في حركة لا إرادية للأمام والخلف، وتنظر إلى الأرض كالبلهاء وكأنما تنتظر أن تبتلعها وتنهي الأمر.

كشفت سمر وجهها بعد أن شعرت بهدوء الأصوات، فمر بها والدها على عجل ولم ينظر إليها وإنما أزاح ما على الأدراج من أشياء أمها بقدم غضبه وابتعد.

لملمت سمر المجلات في السلة، وحاولت احتواء اثوابها بين ذراعيها الصغيرتين والمرتجفتين دون جدوى، جلست تتردد بصعود الادراج، تلفتت للخلف لعل والدها قد عاد لأخذها بعيداً، فهي لا تجد تفسيراً لهروبه دونها ولكن سيارته كانت قد بدأت بالابتعاد دون أن يلتفت نحوها، عرفت سمر أن زوجة والدها لا بد ستنتقم منها ولكنها أبداً لم تتخيل أن تباغتها في التو والحال وتشدها من شعرها لتصعد بها الأدراج وهي تصيح وتتوعد ثم قالت وهي ترمي بها في الشرفة من جديد:

- خرجت قبل أن أذن لك، وتسببت لي بالمشاكل، لذلك سترين ما سأفعله بك سأربطك هنا وبهذا الحزام، حزام أمك، سأربط قدمك بماسورة المياه هذه فإن حدثك عقلك في فكها سيكون لدي عقاب أكبر لك.

شدت الزوجة العقدة على قدم سمر المنهكة من البكاء ثم صرخت في وجهها:

- هل فهمت ما اقول؟

هزت سمر رأسها بالإيحاب ثم هبطت على الأرض تبكي وترتجف وهي ترى زوجة والدها تبتعد غاضبة.

لم تجرؤ سمر على رفع صوتها بالبكاء، ولم تجد لنفسها ملجأ تفر اليه سوى ما علق بيدها من أثواب أمها فغطت وجهها بها وأجهشت بالبكاء المكبوت حتى أنهكت فالقت بنفسها على الأرض من جديد ونامت، لم تعد تدر

سمر ما الذي جرى بعد ذلك، ولم تفهم كيف انتهى الامر بأن تجد نفسها تنام في سريرها وبعض أضواء المنزل تتسلل إلى عيونها من المسافة القليلة التي ترفع الباب عن الأرض، ولم تستطع فهم صوت والدها الهادئ الذي يفصح عن تبسم وتسامر مع زوجته البغيضة، الا أن وجود مجلات والدتها المصورة قرب سريرها أعاد اليها بعض سكينتها وجعلها تفكر ربما بعد كل هذا يمكنها الاحتفاظ بها لنفسها، وربما تستطيع قراءتها يوما، ظلت تلك المجلات كنز سمر السري، الذي يؤنس وحدتها ويخفف مصيبتها، بعد أن اعتادت تلك الجلسات تحت الشمس الحارقة في الشرفة مربوطة القدم لا يفتقدها أحد

كانت سمر قد رمت رأسها على حافة الشرفة تنظر إلى المساحات الخضراء الشاسعة الممتدة أمامها من جبل عيبال، وتؤنس نفسها بتغريد بعض الطيور، وكاد النعاس أن يسرقها من عالمها، لولا أن حركة غريبة بجانب سور الحديقة لفتت انتباها، أمعنت سمر نظرها، إنه ولد يحاول التسلل إلى الداخل، تلفت حوله من كل ناحيه ولم يرفع رأسه للاعلى، رفع جسده على السور ثم رمى بنفسه إلى الارض، بدأ قلب سمر يخفق بشدة، إنها تراقب لصا ولا تعرف ما عليها فعله فتوصيات زوجة الأب تقتضي الا تصدر صوتاً مهما جرى، خاصة وأن المنزل ممتلئ بالضيوف من أهلها، وها هي رائحة النرجيلة المتنقلة بين الزائرات وتلك الضحكات الخاوية التي تتبع مجاملاتهن الكاذبة قد ملأت المكان، ولا أحد ينتبه للص.

ظلت سمر تراقب بخوف حتى رأته يحني ظهره ويتسلل، ثم يقترب من شوكة كبيرة نبتت في جذع شجرة ملاصقة للسور ومد يده داخلها بهدوء، ولكنه حين أخرجها رفعها للأعلى وقفز فرحا مما جعل عيناه تلتقي بعيون سمر، أنزل يده وتقدم من الشرفة حتى أصبح في موقع مناسب، ثم فتح كفيه قليلاً وقال:

- انها عصافير صغيرة لقد وجدتها في العش.

نظرت سمر إلى العصافير وتهلل وجهها فقال الغلام:

- أتريدين واحداً؟

لم تجبه سمر فأعاد عليها السؤال:

- أتريدين واحداً ؟ انزلي وخذيه.
- لا استطيع.
- لماذا؟
- زوجة أبي ستغضب إن عرفت.
- هل أنت محبوسة هنا؟
- أجل.
- حسنا إذن.

استدار وابتعد قليلا ثم قال:

- سأتدبر الامر.

وضع العصافير داخل قميصه برفق وبدأ يسحب سلماً طويلاً نحو الشرفه حتى ركزه جيداً، قالت سمر:

- إنه سلم قديم درجاته مكسوره.
- وأنا وليد، أنت لا تعرفيني، تسميني أمي وليد العنيد.

تبسمت سمر وهي تراه يصعد نحوها بهمة حتى أصبح قريباً منها ثم أخرج عصفوراً صغيراً ومد يده به وقال:

- خذيه إنه لا يستطيع الطيران بعد.

لم تمد سمر يدها نحو العصفور وإنما ظلت متسمرة مكانها وكأنها تنتظر أن يرى وليد قدمها المربوطة، ولكنه قال ببراءة:

- لم جعلتني أصعد إذن إن كنت لا تريدينه؟

ثم خفض ناظريه يريد نزول السلم فانتبه إلى قدمها المربوطة، فسألها متبسما:

- هل ربطك إخوتك؟ ما هذه اللعبة التي تلعبونها؟

أخذت سمر نفساً عميقاً وحاولت إخراج بعض الكلمات من فمها، فلم يفهم شيئا وقال وهو ينزل الدرجة الاولى:

- لا يهم، فأنا لا أسمح أن يربطني أحد ولو حتى للعب.

استجمعت سمر قواها وهي تراه يكمل نزول الدرج وقالت:

- زوجة أبي..... ربطتني.

أعاد وليد صعود الدرجة وقال مندهشا:

- هل قلت زوجة والدك ربطتك؟ !
- نعم.
- بهذا الحزام.
- نعم.
- ولم لا تفكيه، إن فكه سهل.
- ستعاقبني إن فعلت.
- وهل يعلم والدك بذلك؟
- لا، لا استطيع إخباره.
- لماذا ؟ هل هو قاس معك أيضا؟ هل يضربك أو يربطك؟
- لا أبداً، ولكني..لا استطيع.
- بل تستطيعين، ها أنت أخبرتني، يا لك من فتاة! كيف تقبلين بهذا؟ عليك أن تخبريه.

رفعت سمر كتفيها وهزت رأسها وكأن الأمر مستحيل.

- أتريدين أن أفكه أنا؟

- لا.
- واعجباه، الحلول أمامك وأنت ترفضينها، عليك أن تفعلي شيئاً أيتها الصغيرة، عليك ذلك، هل فهمت،

ثم أخرج العصفور مرة أخرى ومده نحوها.

حملت سمر العصفور وأخذت تتأمله، ثم نظرت نحو الصبي فوجدته يقفز السور مبتعداً، تمنت سمر لو أنه توقف قليلاً لتسأله ماذا تصنع بأكل العصفور وشربه، ولكنه ابتعد بين الأشجار.

قالت أم العبد وهي تطل على سمر بعد أن غادر الجميع.

- يا إلهي، هل وقع هذا العصفور على شرفتكم إنه بشارة خير.
- ثم أكملت وهي تفك قدمها.
- أدخليه معك لنجد له مكاناً مناسباً يبيت فيه.
- خطت سمر نحو المنزل خطوتان قبل أن يدوي صوت زوجة أبيها:
- أخرجي هذا الشيء من المنزل.
- إنه عصفور.
- قلت أخرجيه لا يهمني إن كان عصفوراً أو غراباً.

تدخلت أم العبد وقالت:

- دعيها تحتفظ به إنه مجرد عصفور.
- قلت لا.
- يا ابنتي لا تكوني قاسية القلب هكذا.

نظرت الزوجة إلى أم العبد نظرات حادة وقالت:

- لولا أني أعرف مكانتك عند زوجي ------ أخرجي العصفور وجهزي المائدة قبل أن تغادري ثم نظرت إلى سمر وأكملت:
- أما أنت فاغتسلي بسرعة وتجهزي قبل وصول والدك.

كانت أم العبد كثيراً ما تهم بإخبار أبو سمر بما يجري، الا أن رؤيتها له وقد تراجعت صحته وأصبح كثير التردد على الأطباء وقد حذروه من الإنفعالات جعلها تغلق فمها. استغفرت أم العبد ربها وهي تأخذ العصفور من سمر وهمست لها:

- لم لا نصنع له منزلا في الشرفة؟
- حسنا.

كانت سمر تعد للعصفور بيته الجديد وهي تفكر ولأول مرة بأن عليها أن تفعل شيئا تنتقم به من هذه الزوجه فها هو وليد العنيد قد صعد السلم المكسور دون أن يقع أو يخاف، فماذا كان سيفعل لو كان مكانها الآن، إنه يراها قوية ولا يرى الأمور بتلك الاستحالة.

لما أنهى الأب تناول طعامه، وجلس أمام التلفاز يشرب قهوته، وأشعل سيجارته التي لطالما تشاجر مع زوجته بسببها، في حين انشغلت الزوجة في تنظيف طاولة الطعام جرت سمر نحو الشرفة وأحضرت العصفور وقالت:

- انظر يا أبي ماذا وجدت على شرفتنا.
- اه.... إنه عصفور جميل.
- هل أستطيع الاحتفاظ به؟
- حسناً، ولكنه لن يعيش طويلاً على ما أعتقد.
- لماذا؟
- إنه يحتاج أمه لتطعمه.
- ولكني..
- على الأغلب سيموت، ولن تكوني سعيدة بذلك.

دهشت سمر وتساءلت: لماذا إذن يصطادها وليد؟

تقدمت زوجة أبيها ونظرت في عيونها نظرة غضب ما لبثت أن بدلتها

بأخرى كلها حب وحنان وقالت:

- عزيزتي ألم نتفق أن يبيت العصفور في الشرفة ؟
- لا.

تفاجأت زوجة الأب بما سمعته، وأحست أن سمر ستبدأ الحديث حول أشياء أخرى، لذلك شدتها إليها متضاحكة وقالت:

- حسنا إذن افعلي ما شئت ولكن دعي والدك يستريح الآن.

حملت سمر العصفور وتوجهت به نحو غرفتها، تتوقع أن تلحق بها تلك الزوجة المرعبة ولكنها لم تفعل هذه المرة وتركت سمر تفعل ما تريد.

كان شعورا غريبا بالنسبة لسمر، أن تحقق لنفسها مثل هذا النصر على المرأة القابضة على أنفاس الجميع في نظرها، وأحاسيس جديدة لم تختبرها من قبل اعترتها في اليوم التالي،جعلتها تستيقظ باكراً على أمل أن يغلقوا عليها الشرفة ويطل عليها وليد لتسأله ما جرى لعصافيره بعد أن صدق توقع والدها ومات الطير.

ولكن الأغرب كان مرور زوجة والدها بها دون أن تلتفت إليها أو تدفع بها إلى الشرفة، ما الذي يجري؟ إنني أتحرك بحرية في المنزل وكأنني غير مرئية، هل تقتضي التعليمات الجديدة بإهمالي وتجاهلي، غريب كان احساسها، زوجة والدها تنظر إليها بشكل مختلف، لم تحبسها ولم تحاول حتى معرفة مكانها، ربما إذن أصبحت تعتبرها مصدر خطر، وانها ربما قادرة على الوشي بها لابيها.

- هل كان الامر بهذه البساطة، و الحل كان في المحاولة؟ !

ورغم كل التساؤلات ظلت سمر تطل من الشرفة في انتظار وليد حتى أحست به يتعمد إصدار الأصوات خلف السور بضرب بعض الحجارة وما

يجد أمامه من قطع الزجاج أو الحديد بقدمه.

نظرت إليه وقالت باندفاع:

- لقد مات.
- التفت اليها واشار بيده يسأل: ماذا؟ فأعادت:
- العصفور.. لقد مات.

اقترب وليد وعاود القفز إلى الحديقة حتى وصل إلى السلم وقال:

- أنا بعت عصافيري، هل أنت محبوسة مرة أخرى؟
- لا أدري.
- هل تستطيعين النزول؟
- على السلم؟
- نعم سأساعدك، سأريك أعشاش العصافير إذا شئت.

فكرت سمر قليلاً، إنها مغامرة، هل عليها الذهاب؟ من سيفتقدها إن فعلت، ثم قالت:

- انتظر.

تفقدت سمر باب الشرفة ولما لم تر أحد نظرت إلى السلم تريد النزول ولكنها عادت لتقول:

- هذا مخيف.
- انتظري سأساعدك.

صعد وليد السلم وقال:

- الان سأمسكك، اجلسي على الحافة، والتفي لتقفي على الدرجة الاولى.

فعلت سمر ما طلبه منها وبدأت تنزل الدرجات خلفة.

أمسك وليد بيد سمر وانطلق يجري بها خائفا، قفزا السور واستمرا

بالجري حتى تداريا خلف شجرة، تلفت نحو المنزل وقال:

- لقد نجونا، الان لن يرانا أحد.

وبين لهاث وتضاحك، سار الطفلين يبحثان عن الحرية وبعض المرح في حضن عيبال الساحر، ولم تدر سمر حينها لم أصبحت ساقاها تسيران بخفة، كأنما أصبحت الأرض ضبابية، لا ملامح لها، وأصبح الوقت شئ قديم الطراز لا لزوم له الا بوجود والدها، أهو الخوف أم هو إحساس الحرية ومذاقه الذي لم تعتده بعد، قال وليد وهو يشير بعيدا:

- أترين تلك المنطقة المكسوة بأشجار الصنوبر؟
- نعم.
- لقد وصلتها ذات يوم، هناك بيت قديم وسط الاشجار، يقولون إنه مقام، أي انه قبر لاحد شيوخ المسلمين أو شئ من هذا القبيل، ان اسمه «مقام اسلامية».
- تقصد مقام اسلامي.
- لا ليس مقام اسلامي، "مقام اسلامية" هكذا اسمه.
- وهل رأيت القبر.
- لا لم أدخل ذاك البناء، ولكني قضيت وقتاً جميلاً في صيد الشنار في ذاك الوقت.
- وما الشنار؟
- وهل هناك من لا يعرف الشنار، إنه عصفور كبير، أو ليس تماما إنه طير يشبه الدجاجة ولكنه بري ولا يجيد الطيران، وفي موسمه اصطدنا الكثير منه أنا وأصدقائي لربما آخذك الموسم القادم إلى هناك إذا بقينا اصدقاء.

تبسمت سمر، « هل سنستمر اصدقاء ؟ نعم

مضت سمر تتراكض هنا وهناك بين الصخور والاشجار وقد وجدت في

فرحتها قوة كبيرة تدفعها الى التفكير في الخروج مع وليد كل يوم

توالت رحلاتها الصغيرة الى جبل عيبال، وبدأت سمر ترى الدنيا كما لم تراها من قبل، بدأت سمر تنتبه للمعاني الالف التي يشملها شروق الشمس غير معنى يوم حبس جديد في الشرفة، لم تكن تعرف من قبل علاقة دفء صباح الصيف بكوب الشاي المتنقل في أيدي النسوة من شرفة إلى أخرى،انه صباح يوم جديد، ولم يكن واضحاً أبداً علاقة الافطار المتأخر في ساحات المنزل والذي كثيراً ما يكون جماعياً ضمن استقبال نسائي في يوم يطول صباحه،انه صباح صيفي مميز، لم تكن لترى أبداً جمال جلوس النسوة العجائز على كرسي على الرصيف بجانب باب المنزل في انتظار الانقضاض اللطيف على أحد المارة ليكون تسليتها لذاك النهار.انه الجمال في كل تفاصيله، انها الحياة، كل تلك المشاهد العادية بدت لسمر بثوب مشرق متجدد بكثير من الامل والفرح، كل شيء مبهج ولا ينتظر سوى انقضاضها على السعادة في اجوائه

الأزهار تبرز ألوانها بعد أن ودعت خجل الربيع، وتفتحت على آخرها لا تخشى النحل المتنقل، واللوز قد عقد حلاوته في قلبه الابيض، ووليد لا يجد حرجا في التقاطه وتقديمه لصديقته العزيزة سمر، أحبت سمر التسلل والخروج مع وليد، وبدأت تعتاد اللعب والقفز والحرية، ولم يعد يحزنها الا تغيب وليد عنها في بعض الأيام، وأصبح عيبال جنتها الخاصة التي لا تمل اللهو في أحضانها.

وبينما هي تستكشف عالم نابلس من إطلالة عيبال، قال وليد وهو يشير بعيدا:

- ذاك مخيمنا --- مخيم العين.
- هل انت من المخيم؟
- لا انا من المالحة، وهل المخيم بلد لأكون منه؟

ارتبكت سمر قليلاً وهي ترى وليد يغير نبرة صوته ويكمل بتهكم:

- أراهن أنك لا تعرفين المالحة.
- أهي بلد؟
- إنها قرية من قرى القدس، كانت القدس بالنسبة لبلدي كما وسط نابلس لجبل عيبال، كانت جدتي تصلها سيراً على الأقدام.

أحست سمر لوهلة أن وليد شاب كبير يعرف كل شئ، وأن له امتداد خارج نابلس فسألته ببراءة:

- هل ستعود إلى المالحة إذن؟

رمى وليد حجراً من يده لمسافة بعيدة ثم التفت اليها وقال:

- لا أدري، ولكن على أحد ما أن يعود، علينا الا نتركها للإحتلال، لقد طردوا كل سكانها وسكان القرى المجاورة المحيطة بالقدس، تقول جدتي إنهم كانوا يقتلون كل من يرفض الخروج من القرى السبع.
- ولماذا؟
- كيف تسألين ذلك؟ لقد سكنوا في منازلنا واخذوا أراضينا، الا تعرفين ذلك!

صمتت سمر وكأنما كبر العالم فجاة، اصبح أوسع من شرفة تحبس بها انه وطن فيه احتلال و اناس يهجرون من بيوتهم ويلقى بهم إلى المجهول، وهذا الموعد الغريب الذي لم يخطط له أحد تلتقي به مع ذاك الفتى المهجر، والذي رغم كل شيء لا يزال يحمل معه حلم العودة إلى قريته المنتظرة، الصامدة في انتظار اطلالة أول العائدين حسب قوله، عرفت سمر حينها أن هناك الكثير لتتعلمه، ليس فقط من خلال مجلات أمها، فالعالم أكبر من ذلك وربما عليها البحث عن مصادر أخرى للمعرفة.

مر الصيف سريعا هذه المرة وعادت أيام الدراسة، ولم يعد بإمكان وليد

القدوم للعب من جديد، وأصبحت سمر تلاصق وجهها بنافذة السيارة كلما اصطحبها والدها إلى المدرسة، تتفحص وجوه الطلاب الذين تمر بهم علها تصدف وليد هنا أو هناك، ولكن ذلك لم يحدث سوى مرتين خلال العام مما أبقى سمر متشوقة للعطلة القادمة، مر العام الدراسي ببردة وشتائه وثقله على فؤاد سمر التي ظلت تسترق النظر إلى سور المنزل بين الحين والآخر، رغم يقينها باستحالة قدوم وليد في تلك الظروف، حتى أطل الصيف.

عادت الحياة تدب في الحياة، حين عاد وليد لإلقاء الحجارة على سور المنزل، وعادت سمر تنزل السلم وتركض بصحبته بين الاشجار، أصبحت تعرف أنواع طيور هذه الأرض وأشكال أعشاشها، حتى أنها باتت تعرف كيف عليها المساعدة في اصطياد القبرة المتمايلة المدعية الإصابة لاجل إبعادهم عن العش، قال وليد وهو يرى فرحتها:

- أتدرين؟ ربما علي أن أصطحبك غداً إلى منطقتي المفضلة، أريد أن أريك أجمل بقاع الأرض.

تبسمت سمر منفعلة مما قالة وسألته:

- هل المكان بعيد؟
- ليس كثيرا، نستطيع الذهاب إلى هناك والعودة في الوقت المناسب إن نحن خرجنا باكراً.
- أستطيع الخروج بعد والدي مباشرة.
- هذا جيد، وأنا سأكون بانتظارك خلف السور.
- اتفقنا إذن.

تضاحك الطفلان وهما يختبران معاً ولأول مرة، الاتفاقات السرية، بعيداً عن مسامع الاهل، والموعد الاول للتلاقي دون أن يدري عنهما أحد من الإنس، وكل منهما قد بدأ يفكر بكيفية التنفيذ حتى يفي بما وعد، دون أن يلفت الانتباه.

جاء الصباح كأجمل ما تكون صباحات نابلس في عيون سمر، وقفت أمام المرآة تربط شعرها وأذناها تتابع صوت والدها، لعله يغادر الآن فالساعة قد قاربت على العاشرة.

إنه صوت الباب، لملمت شعرها الأسود خلف رأسها بسرعة ونظرت من النافذة، أجل هذا صوت محرك السيارة، انتعلت سمر حذاء الرياضة بخفة وانطلقت من فورها نحو الشرفة، نزلت ذاك السلم المكسور باحتراف وانطلقت تركض نحو وليد خلف السور، وكعادتهما في كل مرة، انطلقا راكضين حتى الشجرة الكبيرة ثم توقفا مطمئنين.

التقط وليد كيساً صغيراً عن الأرض وعلق مطرة ماء على كتفه وقال:

- الآن نستطيع السير بحرية.
- ماذا في الكيس؟
- لا، هذه مفاجأة.
- دعني أحمله عنك.
- وهذه لا، فأنا الرجل هنا.
- حسنا.

انطلق وليد يعبر جبل عيبال نحو منطقته المفضلة، وسمر تتبعه وقد بدت سعادتها واضحة في قفزاتها وضحكاتها وتجميعها لكل أنواع الأزهار البرية، التي تقع عليها عينها، لم تتعبها المسافات الطويلة، ولم تشتكي من الصعود المرهق، فكل شيء في ذاك الصباح كان جميلاً، ساعات من السير البطيء،ثم قال وليد وهو يشير إلى صخرة بدت وكأنها على حافة من الجبل:

- هذا هو المكان.

هرول وليد نحو الصخرة ووضع كيسه والمطرة، ثم عاد ليمسك بسمر ويقول:

- عليك أن تغمضي عينيك الآن.
- ولم؟
- افعلي ذلك، لن تندمي.
- حسناً.

أغمضت سمر عينيها ورفعت تغطيهما بكفها، في حين أمسكت وليد باليد الأخرى ومشى بها نحو الصخرة وقال:

- الآن عليك الجلوس وعيناك مغمضتان.
- حسناً.

هبطت سمر على الأرض برفق، تتحسس موقعها بكفها وتحافظ على عيونها مغمضة بالأخرى، حتى إذا ما ثبتت قالت:

- هل أفتحهما الآن؟
- نعم.

فتحت سمر عيونها لتجد مدينة نابلس وكأنما جمعت لها من كل أقطارها وعرضت أمامها كلوحة فنية تعجز الدنيا عن وصفها، فتحت سمر فيها مذهولة وقالت:

- الله ... ما أجملك يا نابلس.

هبط وليد بجانبها صامتا. فأكملت:

- إن نابلس كلها تظهر من هنا.
- أليس هذا أجمل منظر في الدنيا؟
- بلا.
- أتدرين بم أحلم كلما جلست هنا؟
- بم؟
- أحلم أني سأصبح رجلاً ثرياً ولي نفوذ في البلد، فآمر ببناء متنزه جميل

على هذه البقعة، ليأتي كل العالم ويستمتع بهذا المنظر.

- نعم، حلم جميل، أنا متأكدة أنك ستحققه يوماً.

تبسم وليد وقال.

- سأسميه متنزه سمر ووليد.
- سنسميه متنزه الأصدقاء ألست صديقي؟
- بلا وإلى الابد.
- هل هذا صحيح؟ فوالدي يفكر في نقلي إلى مدرسة بعيدة.
- مهما حصل سأجدك، فأنا أعرف هذه المدينة شبراً شبراً.

نظرت سمر إلى وليد ببراءة وكأنما أدهشها ما قال فاكمل:

- الا تصدقين؟ أقسم لك بماذا، أقسم لك بالله وبحبنا لنابلس سأجدك أينما تكونين.

نهض وليد عن الأرض بسرعة كأنه تذكر شيئاً ما ثم بدأ بتجميع بعض الحجارة وبناها بشكل دائري وقال:

- الآن موعد الأكل، إنه مفاجأتي، سأشوي لك بعض البطاطا والبصل والبندورة، ستحبين هذه الأكلة كثيراً، أحضري الكبريت من الكيس بينما أجمع العيدان الجافة.

كانت رائحة الشواء ذاك اليوم أشهى ما وصل إلى أنف سمر من روائح، وقد تنقلت حبة البطاطا الساخنة بين يديها من يد لأخرى، تقربها من فمها بخوف ثم تغامر بأخذ قضمة صغيرة وهي تنفخ وتضحك، أحب الاثنين تلك الرحلة واتفقا على العودة مرة أخرى إلى مكانهما الخاص ذاك، إلى أجمل بقاع الأرض بعينيهما، وهذا ما كان حتى تواجد لديهما إحساس بأن عيبال قد أحبهما بقدر ما أحباه وانه يبتسم لهما كلما تراكضا على أرضه، ولعله أيضا تقصد كشف أسراره فقد باتت سمر تعرف كيف يستظل الصيف من حر

الشمس في كهوف عيبال، وكيف تضحك الشمس مقهقهة وهي تهزم الليل كل ليلة، وتبعده عن ساحة السماء بأسرع وقت لتسيطر عليه أطول مدة صيفية.

لم تكن سمر تظن أنه يمكن لسعادتها تلك أن تنتهي أبداً ولا أن شيئاً يمكنه اعتراضها، ولكنها ذات يوم، وحين وصلت المنزل، فوجئت بسيارة والدها تقف في المدخل، لقد عاد قبل موعده، انتاب سمر خوفاً شديداً وأحست بشرايينها تشتعل، صعدت السلم ودقات قلبها تكاد تفضحها، لا تدري إن كانت تضع قدمها على الدرجة الصحيحة، والسلم يكاد يتفلت من يديها، ولم يكن في رأسها سوى صوت توبيخ والدها.

تقدمت نحو مدخل الشرفة، وفاجأها الصمت الذي يلف المنزل، أم العبد بين ذهاب وإياب لا تلتفت إليها، وعمها وزوجته، ما الذي أتى بهما إنها لا تراهما الا في الأعياد، إنهما يجلسان أمام غرفة والدها، تسحبت سمر نحو الحمام تنظف نفسها وتسترق النظر بين الحين والآخر نحو أي خطوة تتحرك هنا أوهناك، حتى سمعت صوت عمها يقول:

- ماذا هناك أيها الطبيب؟
- بسيطة بأذن الله، كانت غيبوبة سكري، لقد بدأ يتحسن، لا تدعوه ينام حتى تستقر حالته كلياً، النوم وهو بهذه الحالة خطر جداً.

شكر العم الطبيب وسار معه نحو الباب في حين أطلت سمر برأسها الصغير ورأت والدها يرتجف تحت الغطاء في سريره، ولم تجد ما يمكنها فعله، فقد كانت تتمنى لو ان بمقدرها الاقتراب منه والتسلل للاستلقاء بجانبه، فهي لا تريد فقدانه أبداً كما فقدت والدتها من قبل.

أتى المساء تلك الليلة بوجه جديد لم تعهده سمر، دخل الليل وكأنه لص ملثم بالأسود، يتلفت ويقفز من زاويه لأخرى، هناك شيء غريب يجري في

المنزل، شعرت سمر أن ثمة همس وتسحب، انتابها القلق على والدها فنهضت من الفراش ومشت ببطء نحو مصدر الصوت لترى زوجة الوالد تتحدث إلى شقيقها تودعه عند الباب وهو يقول:

- لا أدري لم أنت غاضبة! لقد تزوجته لأجل ماله وها أنت ستحصلين عليه.
- انا أخاف أن يطول مرضه، فأنا لا أطيق ذلك، ضغط وسكري وشرايين مقفلة، لقد قال الطبيب إن حالته تسوء بشكل خطير.
- اطمئني، أنا لن أتركك، سأراعي أملاكك من الآن، سألازم زوجك وأساعده في إدارة المحلات والمنجرة.
- أملاكي، إن لهذه الكلمة وقع جميل، حسناً إذهب الآن وسأراك غداً.
- وهو كذلك.

عادت سمر أدراجها إلى السرير مسرعة على أطراف أصابعها تتدارى من زوجة والدها، ولكنها ما إن دخلت فراشها حتى اقتحمت الزوجة غرفتها بغضب ونظرت إليها بارتياب لفترة ثم أغلقت الباب واقتربت منها وقالت:

- هل كنت تتسمعين؟

رفعت سمر اللحاف نحو وجهها وكأنها تريد الإختباء خلفه، فسحبته الزوجة عنها بعنف وقالت وهي تشد على أسنانها بصوت خافت مزمجر:

- إذا فتحت فمك بكلمة ستكون آخر كلمة تقولينها، هل تفهمين؟ سأربطك بالحبل وأدليك من الشرفة إلى أن تموتي، حاولي إذن.

ثم دفعت اللحاف إليها بقبضة مغلولة كادت تلكم وجهها، وغادرت.

استيقظت سمر صباح اليوم التالي ولم تأبه إلى طلة يوم جديد كما اعتادت، لم تعد لها رغبة بمغادرة المنزل إلى الدنيا التي كانت تناديها خلف أسوار منزلها وبقيت تفكر بوالدها المتعب، وبما كان من زوجته في الليلة السابقة. فهل يمكنها تنفيذ تهديدها بعد كل تلك المدة من التحرر، أيمكن العودة

للحبس والربط بهذه السهولة؟

كان الاب قد نهض من فراشه واستعاد بعض نشاطه وجاء صوت الزوجة تقول:

- استرح اليوم لا داعي للذهاب للعمل.
- لا أستطيع.
- أخي زياد سيمر على المحلات ويأتيك بالأخبار، ما عليك سوى إخباره مبا تريد وهو سيفعله نيابة عنك.

ركضت سمر نحو والدها وأمسكت به فنظر إليها باستغراب. دفعها برفق عنه وقال:

- أنا بخير يا عزيزتي فلا تخافي.
- أبي لم عليك الخروج اليوم؟
- سؤال غريب.. لم أعتد أن أسمعه منك. ماذا دهاك يا عزيزتي؟

نظرت سمر في عيون الزوجة التي حدقت في عيونها بتحدي وقالت:

- انت مريض.
- لا يا عزيزتي انظري أنا بأفضل حال.

تفلت الأب من سمر وخرج إلى سيارته يقودها نحو العمل، بينما وقفت الزوجة تلوح له مبتسمة ثم أدارت ظهرها لسمر ودخلت تترنم بالاغنيات.

ظنت سمر أن زوجة الأب متأكدة من أنها لن تستطيع الوشاية لوالدها، لذلك فهي سعيدة، ولكن ما لم تعرفه سمر أن زوجة أبيها، ولكي تحكم الامر وتضمن خط العودة، قضت الليل بطوله وهي توصي الوالد بوجوب الحديث إلى سمر لأنها في الاونة الاخيرة أصبحت غريبة الأطوار، وللأسف أصبحت تكذب كثيراً وتتوهم أشياء لم تحدث لتشتكي منها، وكان مبعث سعادة الزوجة

رد الوالد حين قال:

- انها فتاة صغيرة تفتقد امها، تريد المزيد من الوقت حتى تألفك فامنحيها عذراً.

اقتربت سمر من ام العبد تتلكأ عن قصد، تود لو تجد مدخلا للحديث فتبوح بكل ما في صدرها،ولكن اغنيات ام العبد الخاصة االتي تدندن بها بصوت مرتفع استوقفتها، فهي بين الحين والآخر تدخل اسم أحد أولادها في الأغنية، مرة تذكر فيها اسم ابنها العبد وأخرى تذكر اسم ابنتها وداد وهكذا، وسمر تتبعها من غرفة إلى غرفة، التفتت إليها أم العبد مبتسمة وأمسكت بها وغنت:

روح يا حمام الدار — سلم عالحبايب
اولهم سمر يا حمام — اسألها وين اراضيها
قولها الزمن غدار — يعمل العجايب
لو كان مني الزعل — وينها براضيها

تبسمت سمر بارتباك ولكن أم العبد تنهدت ورفعت جذعها وأكملت بحزن:

اذا يا حمام الدار — لسا بتستنانا
على حيطان الدار — بترحد غُنانا
مرغم تعاشر الغير — دمه ما هو منا
بركي يخلص المشوار — نرجعلك وترجعلنا

نظرت أم العبد نحو سمر مرة أخرى وابتلعت ريقها، تحسست رأسها وأرادت المضي في ترتيب الغرفة فسألتها سمر:

- هل انت من المخيم ايضا؟

نظرت أم العبد إليها باستغراب وقالت:

- أيضاً؟ أنا من المخيم نعم، ولكن من أيضاً؟
- لي صديق ألعب معه، إنه من مخيم العين.

تقدمت أم العبد وشدت سمر إلى حضنها، وتلفتت هنا وهناك ثم قالت بهمس:

- إياك أن تسمعك زوجة والدك.

ثم تبسمت من جديد.

- هل لديك صديق أيتها الصغيرة؟
- نعم، لقد علمني صيد العصافير.
- إذن هناك تختفين معظم الأيام.
- نعم.
- حسناً استمعي إلي، لا تخبري أحداً عنه، زوجة والدك ستفتعل مشكلة كبيرة إن هي عرفت، ووالدك سيغضب بشدة لذلك.
- لماذا؟
- إن الفتيات في مثل سنك لايصادقن الفتيان، وخاصة إن كانوا من المخيم.
- وهل أولاد المخيم سيئون؟

نظرت أم العبد إلى سمر، ولم تعرف ما عليها قوله، فهبطت على مقعد قريب وقالت وهي تقربها من حضنها:

- من اسوأ اولاد عرفتيهم؟
- أولاد عمي؟

- لماذا؟
- لقد كانوا يكسرون الأزهار لامي، ويضربوني دون سبب، ويسرقون ألعابي، لقد كانت أمي تجن حين يحضرون.
- وهل هم أولاد مخيم؟
- لا، إنهم أولاد عمي.
- يمكن أن يكون الولد سيء دون أن يكون ابن مخيم، وكذلك يمكن أن يكون جيداً ومتفوقاً وهو ابن مخيم اليس كذلك؟
- بلا، إذن الا يعرف والدي ذلك؟ لم سيغضب؟

نظرت أم العبد نحو السقف وكأنها تتوقع وجود جواب ما هناك، ثم قالت:

- إن الموضوع شائك، ولكن لنقل هذا، إن أهل المخيمات حين شردوا إلى هذه الأرض لم يكن معهم شيء على الإطلاق سوى خيمة قدمتها لهم وكالة الغوث لا فراش ولا موقد ولاطنجرة ولاملعقة، بعض حرامات سوداء من الوكالة أيضا ومونة يوزعونها عليهم كل شهر كأنهم لم يكونوا يوما أصحاب دور وبيارات وخير كثير.

كانت الام تحتاج كل شيء، أي قطعة قماش يمكنها المساعدة، أي ورقة يمكنها المساعدة.

- ورقة ! ماذا سيفعلون بالورقة؟
- الا تستعملين الاوراق في الحمام مثلا؟

ضحكت سمر وقالت:

- نعم.
- حسنا، لنقول أي تنكة، هل تعرفين التنكة؟
- لا.

ضحكت أم العبد.

- أي قطعة حديد كانت ستساعد، لا تقولين كيف، يمكنهم إشعال النار فوقها واستعمالها بدل كانون الفحم للتدفئة، ولكن الناس في نابلس كانوا قد اعتادوا الحياة الهادئة، وأعتقد أن انتشار أولاد المخيمات للملمة أي شيء تقع عليه عيونهم قد أثار غضبهم، خاصة وأن قلة المياه أجبرت المخيمات على تحمل الأوساخ.

خفضت أم العبد صوتها كأنها تكلم نفسها تبتلع معظم أحرف الكلام.

والجوع والأمراض و..... وهذا لا يعني أيضا انهم جميعاً على خلق وليس بينهم من يستحق ما يقال، إنهم كسائر الناس بينهم الطيب والخبيث.

- ولكن وليد طيب جداً، و دائما نظيف ومرتب الثياب.
- نعم بالطبع، أهل المخيم اليوم يلبسون أغلى الثياب ويأكلون أفضل طعام، لقد تعبوا حتى أعادوا بناء حياتهم هنا، ومعظمهم ترك المخيم ويعيش بأرقى أحياء نابلس.

اقتربت أم العبد من أذن سمر وكأنها ستبوح بسر وأكملت:

- ولكن أهل نابلس لا يحبون الغرباء، يحبون بعضهم أكثر.

صمتت أم العبد وكأنها قالت شيئاً ليس من حقها، ثم نهضت للعمل من جديد قائلة:

- الحمد لله على كل حال...الحمد لله.

كانت سمر تريد اطلاع أم العبد على سرها الا أن أم العبد نهرتها وقالت:

- لقد أخرتني عن عملي يا سمر، اذهبي للعب الآن قبل أن توبخنا زوجة أبيك.

ظلت سمر على حيرتها ولم تدرما تفعل، هرولت نحو الشرفة لعلها ترى وليد ولكنها عرفت أن الوقت لا زال مبكراً، فالمسافة كبيرة بين المخيم ومنزلها،

فتمنت الا يكون هذا اليوم ضمن الأيام التي لا يظهر بها وليد على الإطلاق.

قالت أم العبد وهي تمر بغرفتها:

- هيا بدلي ثياب النوم والحقي بي للمطبخ للإفطار، لم أنت كسولة اليوم؟

ظنت سمر ان هناك فرصة أخرى للتحدث إلى أم العبد، ولكنها فوجئت بزوجة أبيها تجلس إلى الطاولة وتقول وهي تنظر في عيونها مباشرة:

- أين افطاري يا أم العبد؟ أحب أن أتناوله مع سمر، لدي إحساس أننا سنكون صديقتين.

تبسمت أم العبد مستبشرة وعلا صوتها متهللا وهي تقول:

- يا للبشرى على وجه النهار، هذا والله ما تمنيته لكما منذ البداية.

دفعت سمر الكرسي وقامت عن افطارها غاضبة وقالت:

- أنت كاذبة، أنت تريدين أن أسكت ولا أخبر أحد بما سمعته.

تظاهرت الزوجة بالصدمة وقالت وهي تدعي الاهتمام بالموضوع:

- وما الذي سمعتيه يا صغيرتي؟
- أنا لست صغيرتك لقد كنت تتحدثين مع أخيك عن أبي وعن أمواله.

عدلت الزوجة جلستها وقالت موجهة كلامها لام العبد:

- يا للصغيرة المسكينة، لقد سمعتنا إذن، لقد كان أخي يقترح مساعدة زوجي في عمله فترة مرضه، وقد قلت له إني أتمنى الا تطول هذه الفترة، لا أدري كيف فهمت هذه الصغيرة الامر.

ثم نظرت في عيون سمر وسألت:

- هل تسترقين السمع يا صغيرتي؟

لم تدر سمر ما تقول، فقد وجدت نفسها لأول مرة أمام مكر لم تعرف قبلا

عن وجوده، وحدقت في وجه زوجة والدها وكل مفصل في جسدها يرتجف، فتحت فمها ولم تجد فيه أي كلمة تستطيع قولها، حتى أنها ولثوان قليلة كادت تصدق أنها مخطئة، غير أن التهديد الذي تلقته قبل النوم جعلها تفهم أن الامر أعقد من ذلك.

انسحبت زوجة الأب مدعية فقدان الشهية بعد ما كان، تاركة أم العبد توبخ سمر وتكيل لها النصائح والتعنيف، وكلما حاولت الاعتراض ازدادت حدة أم العبد.

جلست سمر في غرفتها وقد تفنن العبوس في تخطيط ملامحها ولأول مرة بدأت تسمع أصواتا تصرخ في رأسها أن عليك فعل شيء ما.

صممت سمر على اخبار والدها بالأمر وأخذت تتخيل غضبه من زوجته وصراخه عليها، ورأته يضمها إليه ويطمئنها انه موجود دائما لاجلها.

وما ان سمعت صوت بوق السيارة حتى ركضت تنزل الأدراج، فتح باب السيارة ونزل الأب ولم يلتفت نحو ابنته وإنما كان منهمكا في الترحيب بضيف معه يطلب منه النزول، فتح باب السيارة وعيون سمر تتابع بحذر، إنه زياد شقيق الزوجة الشريرة، قالت سمر ذلك في نفسها وهي تنسحب من أمام والدها حتى يمر بضيفه ويصعد به الدرجات نحو الزوجة المبتسمة التي لا يرى سواها وقد افرحه ذلك فقال موجها كلامه لزياد:

- لو أني كنت أعرف من قبل أنها تضحك لحضورك، ما دخلت الدار دونك ابداً.

رمى زياد عقب السيجارة من يده ولم يلتفت إلى سمر التي قفزت مبتعدة لئلا يحرقها

كانت الضحكات الباردة تنطلق خلال تناول الطعام مع نكات خفيفة وسمر تنقل نظرها بين وجه والدها المتهلل وضحكات زوجته المصطنعة، وحين مرت بهم أم العبد مستأذنة للمغادرة قالت لها الزوجة:

- أرجوا لا تكوني قد غضبت مني اليوم، فقد غلبتك في تجهيز الفطور ولم أتناوله.
- لا لم أغضب.
- حسنا فعلت، فهي لا تزال طفلة وأنت تعرفين.....
- أجل أجل، أنا متأكدة أنها ستحسن تصرفاتها، إنها فتاة مؤدبة.
- طبعا هذا أكيد.

أكملت أم العبد طريقها نحو الباب، في حين جاء صوت الوالد يسأل:

- ماذا هناك؟ هل أساءت سمر التصرف؟

أجابت الزوجة وهي تنظر إلى سمر:

- بالطبع لا، إنها فتاة لطيفة.

ثم غمزت له في عينها كأنها تطلب منه التغاضي عن الأمر، موحية إليه أنها تسيطر على الموقف.

اجتاح سمر غضباً لم تستطع السيطرة عليه وهي ترى والدها ودون أن يستفهم الأمر، قد التفت اليها وبدأ يوبخ ويهدد فنهضت عن الطاولة، ووقفت بوجه منتفخ وعيون تنهمر دموعا دون استئذان وبدأت تصيح.

- أنت لا تعرف شيئاً فلماذا توبخني؟ هي من عليك توبيخها.
- ايتها الفتاة الزمي الأدب.
- أنا مؤدبة، وكلكم مثل بعض لا تستمعون لي، فقط ترفعون أصواتكم بالصراخ.
- أنت بنت قد تجاوزت حدودك، فانصرفي إلى غرفتك في الحال.

نفضت سمر يديها كأنها تريد الاعتراض، إلا أنها غادرت إلى غرفتها وأقدامها تضرب الأرض غضباً.

كانت سمر وهي ترصد التحركات خارج غرفتها، تتوقع من والدها فتح باب الغرفة ليسألها ما بها الا أنه لم يفعل، رائحة سجائره تقول إنه لا يزال هنا، لا يزال مستيقظاً، صوت "بأبوجه" المتنقل في الممرات وصوت باب الحمام يفتح ويغلق يثبت أنه على بعد خطوات مني فلم يهملني؟ صوت التلفاز يقول إنه يهتم لأخبار العالم، فهل أنا الخبر الوحيد الذي لم يعد يحب سماعه، بكت سمر وهي تفتقد أبيها ولم تجد الا المجلات المصورة تحتضنها وتشتكي لها وتسألها عن أمها، وتساءلت، ترى ما الذي فعله والدي ليجعل أمي تغادر دوني، لقد قالت له عمتي، أنت تعرف ماذا فعلت، لو أني أغادر أنا الأخرى إلى أهل والدتي، حسناً سيكون هذا هدفي منذ اليوم وسأتركهم ذات يوم دون عودة.

ارتاحت سمر لفكرة ترك المنزل وهدأت والتفت بغطائها ونامت.

ومع أول الفجر أفاقت سمر على حركة غريبة في المنزل، أطرقت السمع، إنه صوت عمها، فركت سمر عيونها وجلست في السرير تتأكد مما تسمع، إنه عمها يقول:

- امكثي أنت هنا لأجل سمر، وأنا سأبقى معه في المستشفى.

أسرعت سمر إلى الباب وفتحته، أضواء غريبة تتلألأ في المنزل، أضواء حمراء متقطعة، هل هذه سيارة الإسعاف؟ اقتربت سمر ونظرت إنه والدها، يحمله ممرضان ويدخلانه السيارة، انتاب سمر خوف شديد وبدأت تبكي بصوت مرتفع وتنادي:

- أبي ي ي أبي ي ي.

رفع العم نظره إليها، وهم أن يعود لأجلها الا أن السيارة بدأت بالحركة فقال:

- إنه بخير يا حبيبتي، عودي للداخل سأعود لأجلك بعد قليل.

حضنت زوجة الأب سمر متظاهرة بالإهتمام حتى إذا ما استدارت السيارة تركتها ودخلت وهي تقول:

- لقد قتلتيه، هل أنت سعيدة الآن؟ لقد أغضبتيه، وها هو الآن في المستشفى بسببك.
- لا أنا لم أفعل شيئاً، أنا لم أقصد إغضابه.
- ولكنك فعلت، اذهبي الآن إلى غرفتك لا أريد رؤيتك.

صدقت سمر أن والدها تعب بسببها وظلت لساعات تبكي وتدعو الله له بالشفاء، حتى وصلت أم العبد برفقة إمراة أخرى.

كانت لأم العبد خشخشة خاصة يعرف الجميع عند سماعها أنها وصلت، وكان صوتها الجهور يسمع كل الحضور فقالت:

- لقد أحضرت بائعة الحليب.

خرجت سمر تريد إخبار أم العبد بما جرى فوجدت زوجة ابيها تقف هناك وتقول:

- لا نريد حليباً اليوم، إن مراد في المستشفى.
- سلامته ما الذي أصابه؟
- لم تجب الخالة وإنما قالت بعجرفة.
- هل حليبك نظيف؟

غضبت بائعة الحليب من السؤال وقالت:

- ماذا؟ طبعاً إنه نظيف، نحن نتعب حتى نحلبه ونحمله للزبائن، فهل يعقل

أن نحمله وسخ؟!

- تدخلت أم العبد وقالت:
- لقد تعبت حتى وصلت منزلك، لم لا تشتري الحليب اليوم وتجربيه؟
- حسناً، اشتريه منها لأجل مراد لا أريد إغضابه وهو مريض.

دخلت الخالة إلى غرفتها، وذهبت أم العبد لإحضار الوعاء، في حين بقيت سمر واقفة خلف بائعة الحليب الغاضبة والتي كانت تهمهم:

- الحليب نظيف أيتها المتعجرفة، يا لك من امرأة.

أطلت أم العبد فأكملت:

- أكاد أجزم أنها سبب ذهاب زوجها للمستشفى.
- يا امرأة، اسكبي الحليب ولا تتدخلي بأمور لا تعنيك.
- الا ترينها؟ لم تترك لوناً الا ووضعته على وجهها، وكأن الذي في المستشفى ليس زوجها.
- يا امرأة، اتقي الله، لا تلقي التهم على الناس.
- أكاد أجزم أن هذه الطفلة أيضاً ضحية لهاث والدها خلف إرضاء تلك الزوجة ال.....الصغيرة.
- اصمتي أو غادري.

لم تدر سمر لم ارتاحت لسماع تلك العبارات، إذن احتمال الا تكون هي سبب مرض والدها شيء أصبح وارداً.

توالت الأيام وسمر تدور في المنزل خلف أم العبد، وزوجة أبيها تمنعها من زيارته، تقضي معظم نهارها خارج المنزل وتعود لتأكل وتنام، لا تلتفت للفتاة أبداً.

كلمات غريبة كانت تصل أذني سمر، غرفة الإنعاش، قسطرة، شبكة في

الشرايين، ولكنها لم تكن لتفهم أبداً ما الذي أصاب والدها، فأم العبد باستمرار تطمئنها وتخبرها بأنه سيعود قريبا للمنزل.

لم يلاحظ أحد تدهور صحة سمر، ولا قلة أكلها، حتى افتقدتها أم العبد ذات مرة على الإفطار، وذهبت تبحث عنها لتجدها لا تزال في الفراش وقد بدى واضحا من صوتها تحقن حلقها، وتسببه في ارتفاع حرارتها، قالت أم العبد متخوفة:

- أنت مريضة يا صغيرتي، انتظري سآتي بالماء البارد والكمادات.

جلست أم العبد ذاك الصباح بجانب سمر تتحسس رأسها وتتمتم بآيات قرآنية، وتضع الكمادة الباردة، وبين الحين والآخر كانت تلوم نفسها، لأنها لا تحتفظ برقم هاتف الطبيب.

انتعشت سمر وهي تحس دفء حنان أم العبد وشربت من يدها كل ما قدمته لها من حساء ساخن وليموناضة وحتى حبة دواء خفض الحرارة، ومع مرور الوقت بدأت صحتها بالتحسن، قالت أم العبد وقد اقترب موعد مغادرتها:

- هل أصنع لك شيئاً معيناً قبل أن أغادر؟
- هل ستغادرين؟ أرجوك ابق معي، لا أحب أن ابقى وحدي.
- لن تكوني وحدك، فزوجة أبيك على وصول.

تغيرت ملامح سمر وهي تقول بأسف:

- لا يصدقني أحد، إنها لا تهتم لي أبداً، تقول إنها ستقتلني إن أنا أخبرت أحداً بما قالت:
- ماذا؟

اقتربت أم العبد من سمر وحضنت رأسها وربتت على أكتافها وقالت لها

بهدوء:

- أعيدي علي ما قلتيه.

أعادت سمر جملتها، وبدأت تخبر أم العبد عما سمعته من كلام زياد حول زواجها من ابيها لأجل ماله، وأنها اتهمتها بالتسبب في زيادة مرضه.

استمعت أم العبد لكل كلمة قالتها سمر، رغم تشككها بتضخيم الموضوع، ظنت أنه ربما من الأفضل لو تتأكد بنفسها وبطريقتها الخاصة مما سمعت، ولكنها عادت في تفكيرها ان ربما عليها أن تحافظ على مصدر رزقها ولا تتدخل.

ازداد احساس سمر بالوحدة والغربة، بعد أن أيقنت أن أم العبد لن تقدم أي مساعدة، وعادت تنظر من الشرفة لعلها ترى وليد فتنزل إليه وتحدثه ولكن ذلك لم يحدث.

تكررت زيارات الوالد للمستشفى وازداد انفصالها عنه بحجة مرضه تارة وبحجة انشغاله بضيوفه الرجال تارة أخرى، وحين كان يصدف وتراه وحيداً كانت زوجة والدها تسرع إليها في حضرته وتتظاهر بالاهتمام بنظافتها ومظهرها، فإما أن ترسلها لأم العبد للاستحمام وإما أن تدعي الاهتمام بتسريح شعرها وتمشيطه، وبالتالي تجدها فرصة لشد شعر سمر بقسوة دون أن تتجرأ الأخيرة على فتح فمها بكلمة خوفا على والدها المريض.

طالت غيبة الوالد هذه المرة في المستشفى، وتحدث الجميع في احتمالات إرساله للعلاج في الاردن، أو احتمال إعادته للبيت لعدم قدرته على السفر وسمر لا تفهم شيئاً مما تسمع سوى أن خطراً كبيراً على الأبواب، أيام طويلة من القلق والانتظار، كادت تصل الشهر، قبل أن يعود الوالد.

عاد الوالد إلى منزله، ورغم كل الامه أصر على رؤية سمر هذه المرة، ووجد

لها متسعاً في حضنه، وراح يداعبها ويقبلها بحضور الجميع، حتى إذا ما وصل زياد نهرها ووبخها بقوله:

- ما هذا الدلع، أنت لست صغيرة، قومي واتركي والدك يستريح، لقد كدنا لا نصدق هذه العودة.

تبسم الأب وقال:

- دعها لقد كنت بين كل فتحة عين وإقفالها في المستشفى، أدعو الله أن يمنحني بقية من عمر حتى أراها.
- ولكني أريد أن أحدثك عن العمل.
- وماذا في ذلك، أنسيت أنه مالها أيضا، كان من الممكن أن تكون سمر قد ورثته الآن، اليس كذلك.

تظاهر زياد بالموافقة، ولكن سمر لم تحب رؤيته فانسحبت نحو أم العبد التي لاحظت امتعاض زياد من الفتاة الصغيرة.

ظلت أم العبد منتبهة لكل حركة هذه المرة، فحين استأذن زياد للمغادرة تبعته شقيقته قائلة:

- لم العجلة؟ كنت أريد الحديث معك أمامه.
- لقد تركته لينام.
- حقا؟ إذن انتظرني عند السيارة، سأضع غطاء رأسي وأتبعك.
- حسناً، وأنا لدي أخبار سيئة هذه المرة.

نزل زياد إلى السيارة المتدارية خلف أدراج المنزل، ولحقت به شقيقته ولم يكونا على علم بأن صوتهما واضح في أذني أم العبد التي وقفت على الأدراج تتنصت، وما إن سمعت أول جملة قالها زياد حتى اهتز بدنها من الصدمة وقررت أن تستدرج أبو سمر ليسمع بأذنيه، جرت أم العبد نحو أبو سمر وكلمات زياد ترن قي أذنها:

- أيتها الحمقاء إن زوجك سيكتب أملاكه باسم ابنته، فما أنت فاعلة؟

قالت ام العبد وهي ترتجف:

- انهض يا أبا سمر عليك سماع هذا.

تلفت أبو سمر وسأل:

- ماذا هناك؟
- لا أعرف عليك أن تسرع أرجوك.

نهض بسرعة ولم ينتعل شيئاً في قدمه، وتبع أم العبد التي كانت بين الحين والآخر تتلفت إليه وتشير بإصبعها على فمها أن توخى الصمت، فجاء صوت زوجته تقول:

- هذه الصغيرة تصبح المالكة لكل شيء، وأنا هل سأخرج من المولد بلا حمص، علينا أن نفكر بشيء. ماذا إن فعلها فسأتركه، لن أبقى معه خادمة مجانية.
- هل جننت؟ لدي خطة جيدة.
- ما هي؟
- أتزوج سمر.

ثم بدأ صوته يظهر المكر والخبث وهو يكمل:

- إنها صغيرة وجميلة، وستكون ثرية.
- إنك مجنون، أنا لن أسمح بذلك، فأنا لا أكره أحداً كما أكرهها.

ساد الصمت قليلاً ثم قال زياد:

- سأغادر الآن أراك لاحقاً.

فجاء صوت أبي سمر ليقول بحزم وغضب:

- انتظر، خذها معك.

هربت أم العبد تتدارى عن عيون زياد وشقيقته، في حين ضربت الزوجة على وجهها وصاحت:

- مراد حبيبي، لم تقف هنا؟ هذا خطر على صحتك.
- الحقي بأخيك، لا اريد رؤيتك مرة أخرى.
- لماذا؟ أنت لم تفهم الموضوع، عليك أن تسمعني.
- لقد سمعت ما فيه الكفاية، أنت طالق.
- طلقتني ؟ لا.. انت لاتستطيع ذلك
- انت طالق بالثلاث
- لا .. لقد طلقني..سأجعلك تندم، س...

صفع أبو مراد الباب خلفه ودخل، وأخذ زياد يسحب شقيقته الهائجة ويبتعد، في حين ظلت أم العبد تتراقص من القشعريرة التي انتابتها وهي على جملة واحدة:

- ما الذي فعلته؟ ما الذي تسببت به؟

عاد الأب إلى فراشه تعباً وأخذ يفكر بما جرى، كيف يمكن لامرأته أن تكون بهذا السوء دون أن يشعر؟ لقد طلقها فماذا يمكنها أن تفعل لتؤذيه أو تؤذي ابنته، عاد ابو سمر الى سريره بانفاس مرهقة في حين كانت سمر تطل عليه بين الحين والآخر، فترى غضبه وتبتعد

مرت الأيام متتالية على سمر بين ضحك ولعب مع أم العبد وبين الحين والآخر كانت تتفقد وليد الذي لم يظهر منذ مدة، ولم تكن تلتفت إلى الرجال المتوافدين على والدها، فالمحامي كالصديق، ومدير المنجرة كالعم القريب، إن الجميع يمازحها ويحبها، وأم العبد تقوم على تلبية رغباتها ورعايتها، أما الشيء الوحيد الذي كان يعكر صفوها فهو مكوث والدها في الفراش.

لم تدر سمر كم استمر هذا الحال ولكنها تذكر أنها كانت في عامها الدراسي الخامس، حين تعب والدها للمرة الأخيرة وقال لأم العبد.

- أوصيك بسمر أنا متأكد من أن خالتها ستحضر لأجلها، إعتني بها.

كانت تلك الكلمات لا تفارق أذني أم العبد الباكية وهي ترى سمر تصبح يتيمة للمرة الثانية، وقد تشبثت بها زوجة عمها تستقبل المعزيات وتخبرهم بطريقتها الخاصة انها لن تترك هذه الفتاة وحيدة أبداً، وأكثر ما كان يزعجها رؤية العم وزوجته ينامون في غرفة والديها، ويخططون لاستدعاء بقية أفراد الأسرة للمكوث معهم.

وحين انتهت أيام العزاء الثلاثة قال العم لأم العبد.

- أظن أنك تعرفين أننا لن ندفع أجرتك، لذلك أتوقع أن تتركينا وتبحثين عن عمل آخر.

صدم أم العبد ما سمعت ولم تعرف ما تقول، فقد عاهدت الرجل قبل موته على أن تبقى مع سمر، وكانت متأكدة أنه رتب لمثل ذلك، فما الذي يجري!

- نعم، حسنا، هل بإمكاني استعمال الهاتف، أريد استدعاء ولدي ليصطحبني.
- بالطبع، تفضلي.

توجهت أم العبد نحو الهاتف وهي تفكر لعلها تستطيع مهاتفة المحامي أبو أشرف، على الأقل تبلغه بابتعادها عن الفتاة، فهو يعرف كم أصر أبو سمر على بقائها ضمن العائلة في أكثر من مناسبة، لعل لديه ما يقوله.

اتصلت أم العبد بالمحامي، فردت عليها سكرتيرته، وقبل أن تتفوه بشيء رأت عيون العم تراقبها وبدى واضحاً أنه يتسمع فقالت:

- أين أبو أشرف؟ أنا أمه.

- أهلاً بك سيدتي، إنه ليس موجود، آسفة.
- حسناً يا ابنتي أرجو أن توصلي له هذه الرسالة إن لم يأتي لاصطحابي من منزل أبي سمر خلال عشر دقائق سأضطر للمغادرة سيراً على الأقدام.
- لم ذلك؟ هل هناك ما أغضبك.
- نعم كثيراً، بلغيه ذلك بأسرع وقت.

أقفلت أم العبد السماعة وقد عزمت أمرها على محاولة أخيرة قبل المغادرة، كانت عيونها تبحث عن سمر في كل مكان دون أن تراها، فتشت كل غرف المنزل، ولما لم تجدها، تبادر لذهنها انها لربما تكون مع ذاك الصبي الذي علمها صيد العصافير.

نزلت أم العبد الأدراج نحو بستان المنزل ومشت نحو السور المتداري خلفه لتجد سمر تجلس هناك باكية وقد وقف وليد من الجانب الآخر للسور يقول:

- لن تكوني وحدك أبداً، أعدك، سأكون دائماً بجانبك مهما حصل.

وما إن وقعت عينيه على أم العبد تقترب منهما حتى همس لسمر:

- سأجدك أينما تذهبين.

ثم ابتعد. التفتت سمر نحو أم العبد، وقفزت عن السور قائلة:

- إنه صديقي، إنه صديقي وليد جاء ليعزيني.

وقفت أم العبد في مكانها لبرهة، وعيونها تطارد وليد كأنها تريد التأكد من ابتعاده. زمت عيونها وركزت ظهرها على ساعديها كأنها تبحث عن سبب للشجار والتوبيخ ولكنه ما إن غاب بين الأشجار مبتعداً حتى قالت:

- يا ابنتي هذا أمر لا يجوز، لو رآك عمك...
- إنه صديقي.

- لقد أصبحت صبية، لا يصح أن تصاحبي الأولاد.
- لماذا؟ أنا أريده ان يبقى صديقي.
- لا يجوز للفتاة مصاحبة الصبية، أنت تعرفين ذلك فلم تصاحبيه.

مضت سمر بغضب من أمام أم العبد لا تريد سماع المزيد من العبارات المتكررة دون تبرير، دخلت المنزل بغضب فأكملت أم العبد وهي تشد سمر إلى حجرها:

- سأغادر المنزل وأريد التأكد من أنك ستكونين بخير.

هدأت سمر وهي تسمع تلك الجملة، ثم قالت بارتباك:

- لا لن تتركيه، لن تتركيني مع هؤلاء.
- هؤلاء اهلك.
- لا إنهم يريدون أشيائي والعابي وغرفتي، وأنا لا أريدهم هنا، أنا أريدك أنت وأريد والدي.
- حسنا يا صغيرة، لا تدعيني أبكي الآن، أنا أيضا أريدك، ولكن الدنيا لا تسير كما نريد.

كانت دقائق معدودة، ثم حملت أم العبد كيسها البلاستيكي وخرجت من المنزل وسمر تراقبها ولا تدري ما عليها فعله لإيقافها، ركضت خلفها باكية ولكن أم العبد رفضت أن تنظر للخلف خوفا من لحظة ضعف تعتريها ومضت. أما سمر فقد تعلقت عيونها بأم العبد المبتعدة، لم تبعد ناظريها عنها حتى غابت صورتها خلف الطرقات. قالت زوجة العم:

- حسنا... سنعيد توزيع الغرف...إنه منزل كبير.

فقال العم:

- الطابق الأول أيضا يمكننا ترتيب غرفه.

همهمت الزوجة:

- مممم هذا صحيح.

لم تعلق سمر وظلت عيونها معلقة بالطريق، فاقترب العم منها ونظر إلى حيث تنظر ثم قال مستغربا:

- اليست هذه أم العبد في السيارة؟ ومن هذا الذي معها؟

قالت سمر:

- إنه عمو أبو أشرف المحامي.
- حسناً لنرى ما وراءه، ولم أعاد تلك الخادمة.
- إنها ليست خادمة، إنها أم العبد.

تلفت العم عن سمر بازدراء واستخفاف وراح يفتح الباب.

حمل المحامي حقيبته وصعد الدرجات لاهثا وهو يقول:

- الا ليت الشباب يعود يوماً.
- أهلا وسهلاً تفضل.

جلس المحامي على المقعد في غرفة الصالون وقال:

- بدون مقدمات هناك وصية كتبها أخوك وعلينا تنفيذها.
- وصية! وما يدرينا أن أخي فعلاً كتبها؟
- إنها مختومة وقد شهد عليها في مكتبي أربعة شهود.

أكمل المحامي فتح حقيبته وبدأ يخرج بعض الأوراق حتى أخرج مغلفاً كبيراً ثم قال:

- اجلسو جميعا، اجلسي يا أم العبد.

جلس الجميع بصمت وبدأ يقرأ، كانت سمر تستمع إلى كلمات والدها

المتوفي غير مكترثة للتفاصيل فهي لم تنتبه سوى لعبارة ابنتي الحبيبة سمر كانت هذه العبارة تتردد كثيراً في الوصية مما جعلها تفتقد والدها بشدة من جديد، فراحت تبكي وكأنما أصبحت تتشكك في كل ما يجري، وتتلفت حولها كأنها تتوقع رؤيته يدخل عليهم من أي باب، ليأخذها بحضنه الدافئ الآمن.

انتفض العم عن مقعده وصاح:

- أوصى لي بالسيارة فقط، أنا لا أريد السيارة منه هيا يا امرأة، لنعود إلى منزلنا.
- انتظر هناك أمر آخر.
- لم يبقى شيء لقد باع كل أملاكه قبل أن يموت ولم يتبق سوى المنزل والسيارة.
- يقول أيضاً إنه يسامحك بحصته في منزل والدكما الذي تسكنه الآن أنت وأبناءك ويتنازل لك عنه بشرط واحد وهو أن تأخذ ابنته سمر معك لتعيش هناك حتى تصل خالتها من العراق فهي الوصية عليها من بعده.
- خالتها، من خالتها؟ نحن لا نعرف شيئاً عنها.
- نعم. لذلك وقبل وفاته بحثنا عن عنوانها في العراق وتوليت أنا مهمة إبلاغها برغبة أخيك، الحقيقة أنها رفضت الحضور ولكن بعد وفاته رحمه الله أعدت الاتصال بها وأخبرتها بوصيته وأظنها ستصل بأي وقت.
- ما هذا الكلام السخيف سنبقى نحن هنا مع الفتاة حتى تصل الخالة إذن.
- ولكن هناك أمر آخر، لقد اوصى بتسليم مفتاح المنزل إلى أم العبد لتبقى ترعاه وتعمل على الاعتناء بمحتوياته حتى تعود سمر لتستلمه بعد أن تصبح ضمن السن القانوني.
- استمع إلي، هل علينا تنفيذ الوصية؟ ماذا سيحصل إن لم ننفذها؟
- كما ترى أنا محامي المرحوم وعلي التأكد من تنفيذها بكل تفاصيلها.
- هل يعني هذا تنفيذ اجباري؟
- تستطيع أن تقول ذلك.

لم تفهم سمر الكثير مما قيل، ولم تعرف سبب غضب عمها، وسبب إمساكه بالهاتف والتحدث إلى فلان واستشارة أخر بما يجري، ولكن شيئاً واحداً كان واضحاً وهو أنه حمل أشيائها التي حضرتها أم العبد مرغما وقال لها:

- تفضلي ايتها الغالية يا ابنة الغالي سآخذك إلى منزلي كما أوصى أبوكي.

أمسك العم بيد سمر فأيقنت أنها ستفارق البيت لا محالة، فسحبت يدها من يده وجرت نحو غرفتها، لحقت بها أم العبد لترى الأمر فوجدتها تخرج مجلات والدتها وتحتصنهم قائلة:

- سآخذهم معي وسآخذ صورنا.

حضنت أم العبد سمر للمرة الأخيرة وبكت حتى سال أنفها ثم جلبت كيساً وضعت فيه المجلات والصور وخرجت بسمر.

نظرت سمر إلى عمها وقد جلس مكان والدها بالسيارة، وإلى جانبه زوجته التي بدأت تعبث بجيوب السيارة وتتفقد الأشياء التي تركها والدها هناك. تلفتت سمر للخلف تريد رؤية المنزل للمرة الأخيرة فرأت أم العبد تقفل أبوابه وتلوح لها والدموع تتدافع من مقلتيها بحرقة.

ابتعدت السيارة مسافات ومسافات وبدا السفر لسمر طويلاً طويلاً، وتسلل إلى قلبها إحساس بارد مؤلم، إحساس الوحدة رغم وجودها بين الأهل، احساس الغربة وهي في احضان سيارة والدها،التي ظلت تجري بها مبتعدةدون رحمة. توقفت السيارة، وجاء صوت العم يقول وهو يفتح الباب من ناحية سمر:

- هذا أفضل موقف هيا يا سمر انزلي وأنا سأحمل حقيبتك.

ثم رفع صوته قائلاً لزوجته:

- أمسكي يدها.

ودون نقاش أمسكت الزوجة بيد سمر وسارت بها، نظرت سمر حولها لتجد نفسها في منتصف مدينة نابلس على الدوار الرئيسي، صعدت الرصيف وهي تتلفت حولها، بضع خطوات في الزحام وبين المباني الضخمة، كان مدخل سوق البصل فاتحاً ذراعيه ورائحة الأسماك في بابه ترحب بالمشترين من كل صوب، المحلات التجارية على جانبيه قد أخرجت محتوياتها تعرضها للمارين بترتيب جميل، الكل يناديك لتشتري، والخضروات الطازجة في كل مكان ومن كل صنف، بدى الأمر جميلا في البداية، عيون سمر تتنقل بإعجاب طغى على حزنها من بسطة إلى أخرى، البيوت القديمة تطل بين الحين والآخر من أحد الأزقة ثم تعود وتختفي كأنها تتهامس حول الزائرة الجديدة على استحياء.

رجل يلبس زياً أحمراً، طربوش أحمر تتراقص خيطانه كلما حرك رأسه بنطاله الأحمر الفضفاض، ضيق من الاسفل، أنيق بشكل غريب تطريزات جميلة على زيه هل يبيع السوس إن رنات "الصاجات النحاسية"، في يده تبعث في النفس طرباً فريداً واحساساً بالسعادة لا تفسير له، السوق كأنه شطر قصيدة كتبت في زمن شهرزاد، أو ربما بقايا موشح شامي نسيه الزمان منذ عهد هارون الرشيد.

لسبب ما ليس هناك أي وجه عابس، ولنفس السبب لا يسعك وأنت تسير فيه الا أن تبتسم.

أما سمر حين تبسمت فقد كانت تقول في سرها، لو أنك ترى هذا الحضن الكبير يا وليد، حضن يلم الناس بحضنه ويحنو كما الأم الحنون، السوق يا وليد عالم آخر يسكن عالم نابلس.

ظنت سمر أن زوجة العم تريد شراء شيء من حزم النعناع والبقدونس حين انعطفت عن طريق السوق نحو البسطة، ولكن البائع تنحى وغض عنها

البصر وتركها لتمر خلفه إلى زقاق آخر، زقاق معتم أضيئ في آخره مصباح كهربائي، تركت يد سمر وقالت:

- لقد وصلنا، أين عمك؟

تلفتت زوجة العم خلفها في حين تلفتت سمر حولها تستطلع المكان، حيطان قديمة ومتأكلة وأدراج ضيقة يطل أولها من أحد الجوانب ويختفي الباقي خلف جدار آخر، رفعت سمر ناظريها للأعلى، إنه مبناً مرتفع بطوابق عليا فأين المنزل؟

أطل العم من الزقاق وتابع سيره ماراً بهما متعجلاً وقال:

- هيا، لم توقفتما؟

أسرعت سمر خلف عمها لتجد زقاق آخر وآخر، كل في اتجاه مختلف حتى وصلت في النهاية إلى ساحة ليست بالضيقة ولا بالواسعة، صوت أطفال يتنادون ويتلاعبون، ولكن لا أحد يظهر، قال العم مهمهما:

- إنهم أولاد ميسون.
- لا أعتقد ذلك.
- بلا، لقد عادت.
- ربما في زيارة عادية.
- يا امرأة ! لقد أعدناها بالأمس فقط لزوجها.

صمتت الزوجة وصعد العم درجتين مرتفعتين بشكل ملحوظ، ثم دفع الباب ودخل.

كانت غرفة واسعة على غير ما تخيلت سمر فيها كنبات قديمة نسبة إلى أثاث منزلها وتلفاز كبير الشاشة في الزاوية، سقف الغرفة مرتفع جداً تتجمع أضلاعه في أقواس جميلة لتصنع قبة بفن نادر.

تراكض طفلان نحو العم يحضناه ويقبلانه مرددان:

- جدي جدي.

قبلهما الجد ونظر إلى ابنته التي أطلت خلفهما وقالت بصوت فيه بعض الحرج:

- أنتما لم تتشوقا لنا بعد.

نظر الأب إلى زوجته وقبل ان ينطق أكملت الفتاة.

- أنت قلت لي، إذا لم يحسن معاملتك عودي.
- وهل فعل؟
- نعم.

أخذ الأب نفساً عميقاً ثم شد ظهره ورفع بنطاله بحركة سريعة وقال:

- سأعود لنتحدث لاحقاً.

وخرج من جديد تاركاً زوجته تضرب كفاً بآخر وتقول:

- ولم لا؟ لديه الآن سيارة.

تبسمت ميسون وهي تنظر إلى ابنة عمهاوقالت:

- لقد كبرت يا سمر، هل ستمكثين عندنا؟ إني أرى أمتعتك.

قالت الأم وهي تشير لابنتها بمساعدة سمر:

- خذيها إلى غرفتك، لعلك تدبرين لها مكاناً فيها.
- بالطبع بالطبع، تفضلي يا ابنة العم، سنكون صديقتان رغم فارق العمر فلا تخافي.

حملت ميسون أمتعة سمر وتوجهت للداخل في حين تمتمت الام:

- يا لفرحتي إذا تصادقت هذه المصيبة مع النمرودة ميسون، لتكتمل الكارثة على رأسي.

اقتربت ميسون من أذن سمر وهمستك:

- أعرف ما تتمتم به أمي، على الأرجح أنها تندب حظها لاني عدت وتقول، الله يسترنا من صحبة هذه النمرودة مع سمر، تخاف عليك مني.

لم تدر سمر ما تقول ولكنها أحست بأن هناك شيء ما ليس على ما يرام فتجرأت وسألت:

- كم عمرك؟

تفاجأت ميسون من السؤال وقالت بتهور:

- لماذا؟ هل أبدو لك امرأة كبيرة، إنني لم أبلغ الثالثة والعشرين بعد، هل تظنين أنني كبيرة على مصاحبتك؟ لم هذا السؤال؟ زوجي يقول...
- ما بك؟ توقفي، لقد سألت لأني أراك صغيرة على أن تكوني أم لطفلين هذا كل ما بالامر.
- إذن، أنا لا أزال أبدو صغيرة.

جلست ميسون على طرف السرير وتنهدت بحرارة وقالت:

- أنت لا تزالين صغيرة، لن تفهمي أبداً ما أقول ولكن أمي بالتأكيد تعرف ما أحسه حين يقول لي ذاك ال...

وبصوت خافت وكأنها قررت السكوت أكملت.. يا بغلة

فركت ميسون كفيها وأخذت نفساً عميقاً وقالت بصوت مرتفع يدعي الابتهاج:

- حسنا لنرى أين سنضع ثيابك قبل أن تحضر أختاي..توم وجيري.. أنت تعرفين جنونهما.

ثم نهضت وبدأت تغير ترتيب بعض الثياب في الخزانة، وسمر تنظر وتبتسم من قولها أطلت الأم من باب الغرفة وقالت:

- أريد أن نتحدث قبل عودة والدك.
- لم؟ الأسئلة ذاتها والإجابات ذاتها، لم يتغير شيء.
- سيسألني، أريد أن أعرف بم أجيبه.

نظرت ميسون في عيون سمر وكأنها تشفق عليها مما ستسمع ومع ذلك قالت:

- قولي له إنه لا يزال يضربها.

ارتبكت سمر قليلاً وأزاحت نظراتهاولكن زوجة العم أيضا وجهت نظرها نحوها وقالت باستهتار:

- لا يحرجك شيء فأبوها من قبل قد ضرب أمها.

صاحت ميسون على الفور وكأنها تريد أن تسبق أي ردة فعل لسمر:

- حرام عليك يا أمي، لم قلت ذلك:
- وماذا قلت؟ الكل يعرف ذلك.

حضنت ميسون رأس سمر وكأنها تريد أن تحول بينها وبين ما يجري ثم قالت بألم:

- إذن هذا ما ستقولونه لأولادي مستقبلاً.
- إن عدت لزوجك وأصلحت حالك معه، فلن يضطر أحد لذلك.
- هذا أكيد، لانهم ساعتها سيرون ذلك بأم أعينهم.
- أليس ذلك خير من الا يروك على الإطلاق.

فتحت ميسون فمها بضحكة بلهاء تعترض بها على ما سمعت ثم نظرت في عيون والدتها وقالت بثقة:

- بالطبع لا، انا متأكدة أنهما ساعتها سيسعدهما أن لأمهما كرامة حافظت عليها.

تركت ميسون سمر واقتربت من أمها وأكملت:

- سيتعلمان الا يسمحا لاحد بإيذائهما، على عكس ما تحاولين أن تعلميني.

شدت الأم على أسنانها وزمت عيونها وقالت بحنق:

- أنت فعلا فتاة نمرودة، ولولا العيب بعد هذا العمر لضربتك.
- خذي راحتك أمي فقد اعتدت الضرب.

ابتعدت الأم عن الباب، وقد اتخذت قراراً تعرف أنه يستفز ميسون وقالت:

- غداً صباحاً وقبل أن يستيقظ الأولاد ساصطحبك إلى حارة السمرة رغما عنك.
- لن أذهب.
- ها أنا أخبرتك...لعلنا نجد لجنونك علاجا.

أحست سمر وكأن الأم ستصطحب ابنتها إلى غرفة الفئران، أو أنها ستأخذها إلى أبو رجل مسلوخة، فاعتراض ميسون وغضبها من الأمر أعربا عن رعب وخطر كبيران. فمن هم السمرة وماذا يفعلون؟

لم يجد اعتراض ميسون نفعا فمع اول النهار كانت السيارة تتجة بها وبوالدتها نحو طرقات غريبة، وهناك أخذت تسال عن منزل "الفتاحة أم صالح" حتى وصلت إلى منزل من طابقين، يبدو قدمه واضحاً للعيان رغم بعض التحديث الذي لحق به قالت وهي تسأل الفتاة التي فتحت الباب:

- هل أم صالح موجودة؟
- أجل تفضلي وانتظريها هنا.
- دخلت الأم تجر ميسون خلفها وقالت:
- لنجلس وننتظر.

"ثم تمتمت":

- أثاث قديم ومهترئ! وقمامة أمام المنزل!
- بالطبع، هذا لجلب الشياطين.
- أطبقي فمك، إنها امرأة مبروكة، إنها مسلمة، وتفتح بالقرآن.
- لقد أحسست أننا لسنا بحي السمرة.
- لم اخذك إلى السمرة، لعلك تكوني راضية.

صمتت ميسون على مضض وهي ترى الفتاة التي فتحت الباب تعود لتجلس معهما وقد حملت بين يديها طفلة في شهورها الأولى، قالت الأم وهي تتأملهما:

- أنتما بنتا أم صالح؟
- أنا ابنتها، وهذه ابنتي.
- ما شاء الله.

تدخلت ميسون وسألت:

- ابنتك! وكم عمرك؟
- سبعة عشر.
- ولم العجلة في تزويجك؟
- وقبل أن تجيب الفتاة، جاء صوت أم صالح وهي تنزل الأدراج.
- من قال إننا تعجلنا؟ أهلاً وسهلاً بكم– اننا لم نتعجل، لقد أحبها ابن عمها واتعبني بل أرهقني وهو يتوسل كي أزوجه منها.

تبسمت الأم وكأن الجواب أقنعها، ولكن سمر عادت لتعترض.

- توسل لصالحه فأين صالح الفتاة؟

تبسمت أم صالح بمكر وقالت وهي لا تزال تمسك بيد أم ميسون مصافحة، وتغمز لها بعينها كأنما تثبت المعلومة:

- إنها ابنتك أليس كذلك؟

- بلى.
- وقد جئت لاجلها.
- نعم.
- أنا أعرف. إنها من النوع المتعب ولكن لا بأس.
- أريد عونك يا أم صالح.
- لا تخافي لقد مرت بي حالات أصعب منها، تفضلي بالجلوس، ما المشكلة؟
- هنا جاء صوت ميسون متحدياً.
- أنت الفتاحة، عليك معرفة كل شيء.
- أستغفر الله، أنا عبدة من عباد الله، أساعد الناس بالقرآن.
- تفتحين بالقرآن، لم ينزل القرآن لذلك.
- وما علمك أنت، دعيني أرى، إنك على خلاف مع زوجك أليس كذلك؟
- بلى، إنه يضربها.
- لنر.

مدت أم صالح يدها وتناولت القرآن عن الطاولة، وبدأت تتصفحه ثم سالت:

- ما اسمك؟

ظلت ميسون صامتة فتولت الأم الإجابة.

- ميسون.
- واسم الأم؟
- صباح.

عادت أم صالح للقراءة ثم قالت:

- زوجك مسحور، لقد شرب سحراً، عقد ليسيء معاملتك ويضربك حتى الفراق.
- ماذا؟ اسمعي جيداً يا ميسون.

- التي سحرت له امراة من لحمه ودمه.
- أكيد حماتك.
- وأنت أيضا سحروا لك، وسحرك أقوى من سحره.
- ماذا يعني ذلك؟

نظرت أم صالح إلى ميسون وقالت؟

- لا شيء يعصى على أم صالح بإذن الله، الآن سأخرجه من معدتها، تعالي إلي أيتها المتشككة مدي جسدك على الكنبة.

قامت أم ميسون تساعد ابنتها على إطاعة أم صالح باستعجالها وتشجيعها حتى تمددت حيث أمرت، ضغطت أم صالح على بطنها ضغطة قوية كادت تقطع نفسها، ثم بدأت تنقل يدها للأعلى بضغطة أخرى وقد احمر وجه ميسون واختنق صوتها وهي تدفع بيدي أم صالح عنها، ومع تدخل أمها استمرت أم صالح تحرك كفها واصابعها في معدة سمر حتى كادت تستفرغ، هزت أم صالح لأم ميسون رأسها مطمئنة وكأنما بدأ العلاج يأخذ مجراه وأكملت فرك معدة سمر بعد أن أجلستها، ثم نقلت كفها إلى عنق ميسون وكادت تخنقها وهي تضغط بإصابعها على لوزتيها وتحركهما بقوة وباستمرار حتى بدأ فم ميسون وأنفها بالسيلان، ألقت أم صالح إليها بمناديل الورق وتابعت العبث في حلقها حتى بدأت تسعل وتبصق بشدة، هنا حمدت أم صالح الله وقالت:

- الآن بصقت العمل.

لم تستطع ميسون التحدث، ولكن والدتها انطلقت تبوح وتشرح وأم صالح تهز رأسها وتقول بين الجملة والأخرى:

- أعرف، نعم أعرف.
- إذن ما الحل؟
- سأعطيك زجاجة خل، لقد قرأت عليها وجهزتها للتحصين، عليها أن تغسل

بها وجهها لمدة أسبوع، وأن تعود بعدها لأعطيها تحصيناً لزوجها إن شئتما.

- طبعاً طبعاً.
- أنا آخذ أجري قبل إعطاء الخل.
- وكم أجرك؟
- مئة دينار لتحصين الفرد الواحد، اثنان إذن مئتان.
- نعم، سأعطيك اليوم مئة وآخذ الخل، وفي المرة القادمة نأخذ لزوجها وندفع.
- لا باس.

تم كل شيء وميسون تنظر إلى أمها وتتساءل:

- أي عودة تلك التي تتحدث عنها!

كان صوت ميسون مرتفعاً وهي تدخل المنزل وتقول:

- إنها دجالة، ولن نعود إليها.
- ألم تري ما أخرجته من بطنك؟
- ماذا أخرجت؟ أي إنسان يفعل به ما فعلته بي سيقذف ما في بطنه.

توجهت كل منهما إلى غرفتها وصوت الأم يقول:

- ستشكريني غداً حين تعودين لزوجك وبيتك.
- بل ستشكريني حين أوفر عليك المئة دينار الأخرى.

لحقت الأم بابنتها بغضب وقالت:

- لقد قالت أم صالح إنك بحاجة لأكثر من جلسة.

ثم نظرت في وجه سمر المنصتة لهما وقالت:

- كان ينقصني وجودك أنت الأخرى.
- أماه، إن سمر تعيش في حصتها من البيت ونحن نشاركها فيها.

اشتدت علامات الغضب وضوحاً على وجه الوالدة، ومع ذلك اثرت الابتعاد صامتة، على الدخول في شجار مع ابنتها.

التفتت ميسون نحو سمر المرتعبة وقد حاولت أن تداري دمعها وضيقها من كل شيء، وقد بدى واضحاً أن كلمات زوجة عمها قد زرعت بذور الكراهية في قلبها، وزادت مساحات الغربة والوحدة التي تعيشها مجبرة.

أمالت ميسون رأسها قليلا تريد استيضاح الامر وقالت باستهجان:

- أوستبكين؟ أنا لا أحب الضعيفات، امسحي دمعك فأنت تعرفين أن لا ذنب لك فيما جرى، فهل ستكونين فتاة ضعيفة؟

هزت سمر رأسها بالرفض ومسحت دمعها:

- لا.
- إذن، انهضي وأريني الفتاة القوية كيف تبتسم رغم كل شئ.

كان واضحا من الأصوات الصادرة من المطبخ أن الام كانت قد بدأت تطهو شيئا، فتوجهت ميسون لمساعدتها بعد أن عبثت في شعر سمر مداعبة، وقالت:

- حين تنتهي انضمي لنا، سأساعد امي في المطبخ.

هزت سمر رأسها فتابعت ميسون سيرها بخطاً ثقيلة وما إن وصلت المطبخ، حتى بدأت أصوات الأواني تعلو، وتتخللها بين الحين والآخر بقايا كلمات من حوار اجتهدتا أن يكون هادئاً دون جدوى، فتأتي جملة معترضة للأم فجأة بصوت صارخ:

- ماذا سيقول الناس عنا إذا تطلقت؟ ما سيكون مصير إخواتك؟ الا تفكرين الا بنفسك.

كان الصوت يعلن عن بداية حرب بين ميسون وأمها، أغمضت سمر عينيها وكأنها تبحث عن ملاذ تهرب إليه من هذه النزاعات والمشاحنات، إلا أن يدا

دافئة وقعت على كتفها فجأة تهزه، وصوتاً هادئاً أتى ليسألها:

- سمر ما بك أين وصلت بأفكارك؟

دارت الدنيا بسمر بسرعة فائقة، كأنما مرت بدورتها السنين لتفتح سمر عينيها وتجد نفسها أمام صديقتيها داليا وهبة من جديد، وهما تجهزان الطعام في المطبخ وتسألانها عن إبريق الشاي تنهدت سمر وقالت:

- للحق، كانت قوية الشخصية وكم كنت أحبها.
- من؟ الملعقة أم إبريق الشاي؟

تضاحكت الصديقات فقالت:

- الحمد لله لقد كانت أياماً قاسية تلك التي عشتها في منزل عمي وانتهت.
- ومن تلك صاحبة الشخصية القوية؟
- ابنة عمي ميسون.

أكملت الصديقتان تجهيزات الشاي وهما تستمعان لها تقول:

- لقد سمعت منها كلاماً غريباً لا أزال أحفظه حتى الآن وأعجب به.
- إذن حدثينا.

حين صممت ميسون على الطلاق من زوجها رفض والداها بإصرار، حتى دخل ذات يوم عمي إلى المنزل برفقة أحد الشيوخ، وقال إنه أتى به ليتحدث إلى ميسون. ركضت زوجة عمي إلى ميسون تخبرها بالأمر، فتفاءلت وظنت أنه آت ليطلقها وينهي مأساتها، ولكنها حين دخلت لتتحدث معه، ارتفع صوتها ليملأ البيت وهي تقول:

- اليس من حقي طلب الطلاق؟

فجاء صوت الشيخ بعد أن ركضنا نحو الباب نستمع إلى ما يجري:

- يا ابنتي إنّ الدين الاسلامي يقول، على المرأة أن تطيع زوجها ولا تعصي

له امراً.

- حسناً، أعطني زوجاً يطبق الدين الاسلامي ويخاف الله، وأنا بدوري لن أعصي له أمراً.
- يا ابنتي إنك تصعبين الأمر، لا تكوني امرأة ناشزاً.
- من هي المرأة الناشز يا شيخنا؟ إن كانت هي المرأة التي تعصي بعض أوامر الزوج فإن حواء امرأة ناشز، لم تمتنع عن الشجرة حين أخبرها آدم بالأمر وبذلك كل النساء نشاز. يا شيخنا ألم يأمر الإسلام بالشورى؟ ألم يأمر بالحب؟ ألم يأمر بالتعاون؟ ألم يوصي الرجل بالمرأة وكأنها قارورة؟ ما بكم لا ترون الأمر الا كما تحبون؟ فنهض الشيخ معترضاًوهو يردد:
- أستغفر الله، أستغفر الله..
- ماذا عن الرجل الناشز ؟ إني لا أسمع له ذكراً، الم يقل الله في سورة النساء "وان امرأة خافت من بعلها نشوزا....."
- أستغفر الله العظيم.
- ماذا تعني؟ أنا لم أكفر.
- ألا تعرفين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها".
- لنفترض أن هذا الحديث صحيح، ألم تعرف يا شيخنا لم ذلك؟
- هذا يثبت أن على المرأة أن تطيع الرجل.
- إذن لماذا سجدت الملائكة لآدم؟ الموضوع لا دخل له في امراة ورجل وإنما إن كان الله قد نفخ الروح في آدم وليس في حواء وخلق حواء من بعض روحه وجسده فمن الطبيعي أن يسجد البعض للكل، ولأن آية الله في نفخ الروح أعظم في آدم ولأن الرجال لن يفهموا هذه الحقيقة وسيتغاضون عنها ببساطة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر أي امرأة بالسجود لأي رجل.

هرول الشيخ نحو باب المنزل وهو يقول لعمي:

- ليعينك الله على ما ابتلاك، ليعينك الله على ما ابتلاك.

فلحق به عمي وهو يعتذر منه ويطلب المسامحة، وكأن ما جرى من حديث كان كفراً او مساً من الشيطان.

رفعت هبة حاجبيها بإعجاب، وظلت تمسك كوب الشاي وكأنها نسيته في يدها فلا هي تشرب ولا هي تضعه وقالت:

- لأول مرة أسمع هذا التفسير، إنه رائع ومنطقي، ولكن هل هو صحيح؟
- لا أدري، ولكنه أعجبني أيضاً.

فقالت داليا:

- نعم، نعم، لقد قلت إن شخصيتها قوية، فهل لها تفسيرات أخرى لقد باتت تعجبني.
- أتدرون.. لقد شرحت لي ذات مرة لم قال الله تعالى "ولن تعدلوا".
- إنها الآية التي تحلل تعدد الزوجات.
- نعم الآية الوحيدة التي يحفظها الرجال "مثنى وثلاث ورباع".
- حسناً ماذا قالت في شرح ذلك؟
- قالت أن الزوج لا يستطيع أن يعدل على الإطلاق لأنه حين يتزوج الأولى يكون لها بنسبة مئة بالمئة فإذا تزوج الثانية وأراد ان يعدل في كل شيء حتى المشاعر لن يستطيع لأنه سيأخذ من الأولى خمسين بالمئة ويعطيها للثانية فيصبح لكل منهما نفس النسبة، إذن هو لا يعطي من نفسه بل يعطي من حصة الأولى، وكذلك إذا تزوج من الثالثة ينقص من الأولى والثانية، وتبقى حصته من النساء كاملة وبالتالي صدق الله سبحانه حين قال "ولن تعدلوا".
- أتعرفين رغم دراستنا الجامعية نحن النساء الا أننا لا نزال جاهلات بحقوقنا وما كتبه الله لنا من مكانة رفيعة.

- أتظنين أن علينا أن نخاف؟ أقصد هل الرجال ظالمون لهذا الحد؟
- كل ما أعرف أن الرجال أنواع كما النساء تماماً، فهناك نساء ينادين بحق الرجل على المرأة، وان المرأة ما هي الا جارية في بيته على خلاف ابنة عمي، ومن المؤكد بان هناك رجال ينادون بحق المرأة والحفاظ على كرامتها.

ضربت هبة بيدها على الطاولة ونهضت وهي تحمل كوب الشاي وقالت:

- إذن هل عادت لزوجها أم ماذا؟
- لا لم تعد، وقد تقدمت بطلب للبلدية لترميم بعض الغرف المتضررة من القصف الاسرائيلي، وبالفعل ترممت الغرف واستغلتها منزلاً لها ولصغارها، ثم إنها زارتنا قبل حوالي شهر وقالت إنها خصصت غرفة من المنزل لأطفال ترعاهم مقابل أجر معين، أي انها افتتحت حضانة صغيرة في منزلها وهي سعيدة بذلك.

قالت داليا وقد أخذت نفسا عميقا:

- حسنا فعلت، لنشرب الشاي على الشرفة ونتكلم في مواضيع أخرى، فأنا وبصراحة سيقتلني الفضول لمعرفة قصة الشاب الذي رأيته في منامك، فهذه ليست المرة الأولى التي تحدثينا عنه، وأنا أريد معرفة حكايته كاملة فللحديث الليلة مذاق رائع مميز.
- حكاية جابر....!
- هل هذا اسمه؟
- نعم، ولكن، لا أدري.
- هل تطوع، هل سمحوا له أصدقائه بالانضمام إليهم؟
- نعم.
- واستشهد؟
- نعم، لقد وجده محمد، أحد الجيران الذين أتوا لوداعي وخالتي قبل

انتقالنا إلى نابلس من المخيم، كان يتحدث دون أن يعرفه، قال: "عندما احتدم القتال في الاجتياح، واصبح لا مفر من الاستشهاد او الاستسلام للجيش الاسرائيلي المحاصر لنا في البقعة المتبقية من المخيم بعد هدم معظمه، تسللت من بين الجدران المهدمه والبيوت المعرضة للجرف، من حائط نحو آخر أطلب النجاة والعودة لبناتي الصغيرات، فقد عذبتني صورتهن مرعوبات باكيات، تحت القصف الجنوني الذي شمل المخيم، كان صوت البلدوزر الذي يهدم البيوت على ما فيها يقترب، وأصوات المكبرات التي تطالب بالاستسلام تملأ المكان، دخلت أحد المنازل فوجدت، بها بعض شباب وقد أربكتهم إصابة صديقهم الذي جلس على الأرض ينزف، صحت بهم:

- ماذا تفعلون؟ البلدوزر يكاد يصلكم.

ثم حملت المصاب على كتفي وأسرعت به حتى وصلنا إلى منزل نهائي، جرف البلدوزر كل ما حوله، ولا مجال لأي حركة خارجه دون الانكشاف أمام أسلحة الجيش، كانت الغرفة ممتلئة بالناس، أطفال ونساء وشيوخ وشباب، و الكل يبحث عن حل،البلدوزرات لا تنتظر احد، وهي لابد قادمه، وهذا المنزل سيفجر على من فيه لا محالة، وضعت المصاب على الأرض وأخذت أفكر بالوضع، فقال المصاب وهو ينظر في عيوني من خلال نظارة طبية كان يضعها على عينيه وسأل:

- هل سأموت؟

صحت به:

- لا يا رجل، إنها محرد إصابة بالكتف.

افترب مني أحد أصدقائه وهمس:

- إن إصابته في شريان عنقه وسينزف حتى...

قالت داليا مقاطعة:

- شريان العنق، يا إلهي، هل مات وهم ينظرون إليه؟
- الموت لم يكن شيئاً غريبا في تلك الأوقات، بل على عكس، ذلك كان الشيء الوحيد المنتشر بكل مكان، حتى فقد رهبته وهيبته، ولكن التمسك بآخر خيط للحياة كان محزناً ومؤلماً، فجابر كان يحلم بالنهوض ومتابعة القتال مع أصدقائه لأبعد من ذلك.

قال محمد:

- لم أستطع النظر في عيونه مرة أخرى، وصممت على المغادرة أكثر وأكثر.

جاء صوته للمرة الثانية:

- هل سأموت؟

لم أجبه ولكن رجلاً كبيراً بالسن اقترب وجلس بجانبه وهو يقول:

- أنت بخير، سأقرأ لك القرأن.

قرر الحاضرون في نهاية الأمر أن تخرج النساء والأطفال والشيوخ للساحة، حيث يسلمون أنفسهم، وأن يبذل الاستشهاديون جهدهم للنيل من الجيش. قلت:

- أنا لا أريد تسليم نفسي، ولا أريد الموت.

فقال العجوز:

- اخرجو جميعا وانا سأبقى مع هذا الشاب

ثم نظر الي وقال بجدية

- عليك بالسير في أماكن تواجد القناصة، فهم لا يتركون أماكنهم للقبض عليك، وابتعد عن فرق المشاة قدر المستطاع.

كانت نصيحة جيده، فقد حملت أول طفل وقعت عليه عيني وخرجت،

وبالطبع لحقت بي أمه من فورها، سرت بسرعة أستر وجهي بالطفل،اعيق القناصة عن استهدافي، أسرعت أصعد نحو القناصة كما وصاني العجوز، ومكبرات الصوت تناديني وأنا لا ألتفت، ولكني كنت أدرك أن كثيرين خلفي فعلوا مثلي وتبعوني، كنت احسهم واكاد اسمع انفاسهم فأزيد من سرعتي، وبالفعل،تم تفجير المنزل الذي كنا فيه، واصلنا السير حتى وصلنا السور الفاصل بين مخيم جنين وبين مدينة جنين، وقفزناه، وبذلك فقط بلغنا الأمان، فلا حرب خارج المخيم، لا حرب خارج السور.

- ماذا عن جابر.
- نعم، لقدسألناه فقال انه التقى محمد بالعجوز الذي تبقى معه وسأله عنه فقال:
- لقد فرشت له تحت السرير وأرحته هناك، لأني أعرف أنهم سيقصفون البيت لا محالة وخشيت نزول السقف أو الأتربة على وجهه وهذا ما كان.
- ماذا؟
- قصف البيت على الفور ولكن العجوز أكد أكثر من مرة أن الشاب كان قد توفي قبل القصف ويبقى الله أعلم.

ظلت داليا وهبة تحملقان بسمر فقالت:

- ماذا؟ الا تصدقان؟
- الم تلاحظي؟
- ماذا؟
- أنك تتحدثين عن الإجتياح دون ارتعاش أو تلعثم.
- نعم، لقد فعلتها يا فتاة.
- نعم أظنني فعلتها.

صاحت الفتيات الثلاث فرحاً ورحن يغنين ويتضاحكن حتى نال منهن التعب، فألقت كل منهن بنفسها على مقعدها وصمتت.

جلست الصديقات الثلاثة وسرحت كل منهن في خاطر في رأسها مع تلك الظلمة اللماعة في سماء نابلس وكأن النهار لم يغب، وإنما هو في مكان ما يلتف بعباءة الليل، فيأتي الليل منيراً بطريقته الخاصة، أما سمر فما إن هدأ حالها حتى عادت تذكر وليد فهمست له في سرها:

- (تزاحم أفكاري وتزاحم همومي وتظهر

تشق طريقك بين السطور المنسية وتظهر
تنفض الحاضر كأنه غبار زمن على ذاكرتي وتظهر
وحين أراك وأهم بالتحدث إليك
تبتسم على شق فيك كما كل مرة
تلملم غموضك وتضع كل أقنعتك وترحل
فلا أدري إن كنت حقيقة
أم أن طيفك يكذب على لهفتي فأراك تظهر)

نامت سمر ليلتها تلك كطفلة تخففت من هموم الدنيا، بعد أن كاد ثقل الماضي يطيح بها وكأن ليلة في حضن المنزل القديم كانت تكفي لعودة السكينة لروحها، وجعلت شوقها ينصب في العودة إلى الخالة نهلة، والمبيت في حجرها.

الفصل الثاني

دوار مدخل مخيم جنين

في منتصف مدينة نابلس، وفي متجر بدل العرائس، قالت الخالة نهلة وهي تشيح بوجهها عن المرايا إلى الحائط:

- يطاردني وجهي من مرآة لأخرى، وأنا لا أحب النظر إليه على الإطلاق، أعتقد أنه ليس وجهي الحقيقي، لقد كان لي وجه آخر، لا أزال أحتفظ بصورته في ذاكرتي، وأبقى على اعتقاد أنه لا يزال معي، حتى إذا ما نظرت في المرآة كأني أرى إمرأة أخرى تشبه أمي إلى حد بعيد.

قالت ذلك بصوت مرتفع، فتضاحكت خولة وهي تجيبها:

- أرجوك يا نهلة، لا أحد يستطيع الإحتفاظ بشبابه للأبد، هيا ساعديني على مسح المريا قبل وصول الزبائن.

تنهدت نهلة وكأنها لم تسمع من كلام خولة شيئاً، ورفعت ناظريها نحو المرآة، وتاملت وجهها كما لو أنها تراه لأول مرة ثم قالت:

- صباح الخير أيها الوجه التعس.

ثم تمتمت:

- رحم الله أبا إسحق.
- ومن أبو إسحق هذا؟

أخذت نهلة شهيقاً مطولاً ثم زفرته كما لو أنها تخرج معه حملاً كان جاثماً على صدرها ثم قالت:

- ربما أخبرك عنه فيما بعد.

ثم اقتربت من المرآة قليلاً وأكملت:

- أعرفك بنفسي أيها الوجه ال.. لا أدري بم أصفك، أنا نهلة، ورغم أني أحملك معي أينما أذهب، وأتحمل منظرك المحزن ورسمات الزمن المخططة على صفحتك، الا أنني لا أعرف متى وكيف وأين ظهرت لي.
- أرجوك يا نهلة لنسرع في عملنا قبل أن يصل أبو فادي، سيغضب إذا رآنا نتحدث.

وما إن أكملت خولة جملتها حتى جاء صوت أبي فادي من الطابق السفلي:

- خولة، نهلة، لتأتي إحداكما.

قالت خولة وهي تضع قطعة القماش في يد نهلة:

- سأنزل بسرعة، يبدو أن أول عروس لهذا النهار قد وصلت.

نزلت خولة الدرجات لترى الأمر في حين أكملت نهلة مسح المريا وهي تبتسم وتقول:

- دائماً هناك عروس أخرى، لا أحد يتعلم من تجارب السابقين.

كان صوت الأقدام الصاعدة نحو الطابق الثاني، تؤكد أن خولة قادمة بصحبة أكثر من امرأة، مالت نهلة بجسدها نحو المدخل وأطلت لتستطلع المشهد، لعله يختلف عن المشهد المألوف ولكنها وجدته كمشهد كل يوم عروس صغيرة نضرة بصحبة امرأتان متكدرتان، إحداهما الأم والأخرى أم الزوج، تتوسطهن كالعادة خولة بقامتها النحيلة وطولها الفارع، نفضت نهلة الفوطة بلطف وتوجهت نحو الأدراج تريد إعادة مواد التنظيف، فوكزت خولة وقالت:

- أظنه يوماً سعيداً.
- أظنه كذلك.

تضاحكت الزميلتان، وبدأت خولة تستعرض الأثواب البيضاء مع زبوناتها، تاركة نهلة تنزل للطابق الأول في انتظار أول عروس ستحضر لاختيار فستان الخطبة الملون من هناك، فرائحة الصيف القادمة مع أول حزيران تحمل معها بشائر الأفراح، كألوان أثواب الأعراس المنقمشة، وتأتي بها من شتى أنحاء نابلس وقراها المتعددة.

مضى النهار مكتظاً بالزبونات حتى كانت خولة تلبس الثلاث عرائس بوقت واحد وتنتقل بين غرف القياس على أمل أن تتشاور النسوة المرافقات للعروس ويتفقن على إحداها.

كانت نهلة تكتب والعروس تملي:

- لا تنسي أن تكتبي أني أريد هذا الثوب بكتف واحد.
- حسنا.
- والاستلام بعد أسبوع ومعه طرحة طويلة.
- نعم نعم.

كتبت نهلة كل تلك الملاحظات على بطاقة مرفقة مع الثوب، وعلقته بجانب المدخل ينتظر الذهاب إلى المخيطة ليأخذ شكله النهائي حسب طلب العروس، وصوت أبي فادي يعلو بين الحين والاخر:

- تعالي يا نهلة.هناك من يسأل عنك
- تعالي يا نهلة، إنه يلح ويلح، أنظري ما يريد واصرفيه بسرعة.

نظرت نهلة نحو الرجل ثم سحبت نفساً قوياً لشدة دهشتها من رؤية زوج أختها هناك، توجهت إليه بسرعة وصافحته قائلة:

- أبو سالم أهلاً، ما الذي أتى بك إلى هنا؟
- خيراً، كيف حالك؟
- بخير.

- كيف حال سمر؟
- بخير، ماذا هناك؟

تلفتت نهلة خلفها لتلقي نظرة على أبي فادي المذعور من تركها للزبونات، ثم استدارت نحو أبي سالم وكررت.

- ماذا هناك؟ أنت لا تأتينا بلا سبب.
- الحقيقة ليس هناك ما يخيف، فقط أريد سمر عندنا في المخيم لبضعة أيام.
- سمر، أنت تعرف أن الموت أهون عليها من العودة إلى هناك.
- نعم، ولكن أختك تحتاجها، نريدها أن ترافق خالتها لبعض أيام في المستشفى، ستجري عملية بسيطة.
- ماذا؟ أختي، عملية جراحية، لماذا؟
- لا شيء، فتق بسيط في البطن، ونريد سمر بأسرع وقت أريد بطاقتها الشخصية لأسجلها كمرافقة لخالتها وأستخرج تصريح لها لدخول القدس.

فتحت نهلة فمها تريد أن تعلق لولا أن أبو فادي رفع صوته قائلاً:

- أنظري إلى الزبونات يا نهلة.

شدت نهلة على أسنانها لبرهة ثم قالت لأبي سالم:

- سأطلب سمر على هاتف الجوال، إنها بالتأكيد في المكتبة العامة وستصحبك إلى المنزل.
- لا وقت لدي لذلك.

أجابته وهي تبتعد.

- سألحق بكما بأسرع وقت، فقط انتظرها هنا حيث أنت.

دخلت نهلة المتجر وهي تتفقد جيبها بحثاً عن هاتفها، وما إن رأت النسوة متجمعات حول العروس المتبخترة امام المرايا بثوبها الأرجواني، حتى عرفت

من وجوههن أن ذاك الثوب قد أعجبهن، فقالت مبتسمة:

- كم أنت جميلة بهذا الثوب، كم يناسبك هذا اللون.

لم تزد نهلة على تلك الكلمات حتى سمعت النسوة تتبادل نظرات الرضى، وكلمات الموافقة والإعجاب، وعرفت أن ثوباً آخر قد حجز.

اتصلت نهلة بسمر وبدأت تختصر العبارات قائلة:

- تعالي فوراً، قلت فوراً الأمر هام، لا تتأخري.

كانت نهلة تختلس النظر بين الحين والآخر نحو زوج أختها لتراه بين جيئة وروا ح أمام المتجر وبعد أقل من نصف ساعة رأته يبتعد وقد ترك سمر تقف أمام الباب لوحدها وقد ارتسم على وجهها الغضب والقهر.

تبسمت نهلة وهي تصعد الأدراج نحو الطابق الثاني لتقديم المساعدة لخولة، وقالت في نفسها متشفية:

- جاءك يا أبو فادي من يلهيك عنا.

قالت خولة وهي تسرق النظر من خلال الأثواب نحوها:

- ما الذي يضحكك؟
- تركت سمر عند أبي فادي.
- هذا جيد، سيتناقشان الآن بالسياسة حتى يقتل إحداهما الآخر.
- ليكن، أقلها نعلق نحن الأثواب ونستريح قليلاً، أعتقد أن وقت ذروة العمل قد انتهت.
- أعتقد ذلك.

أنهت الزميلتان ترتيب الأثواب في أماكنها، ثم هبطتا على مقعدين متجاورين وصمتتا وقد بدى الإرهاق مسيطراً على تسارع أنفاسهما وارتخاء مفاصلهما المفاجئ، فانتبهتا والحال هذا إلى صوت سمر تقول:

- لقد كدت أضربه، لولا خوفي من غضب خالتي نهلة.

فجاء صوت أبو فادي قائلاً:

- كان أحرى بك أن تضربيه، كيف يقول ذلك؟
- المشكلة المحزنة أن أحداً لا يعرف الحقيقة.
- الفلسطينيون يطردون مرة أخرى.
- بصراحة أيها العم، إن أخوالي هناك قد رأوا الموت ألف مرة، طردوا من العراق وحشروا على الحدود مع سوريا بمخيمات مهينة لا بد أنك سمعت بها، مخيم التنف ومخيم الوليد وغيرها، لقد نسيهم العالم هناك ولما وجدوا أنهم لا يموتون تأتي الإشاعات لتقول إن إيطاليا تفكر بإعطائهم تأشيرات مرور.
- إذن..
- لا أدري، رحم الله أبا إسحق.
- نعم، إن الأيام تثبت صدق قوله.

هبطت خولة على آخر الدرجات وقد شدّها ما سمعت وسالت:

- نعم، أبو إسحق هذا، ما حكايته؟
- خالتي خولة كيف حالك؟

جرت سمر نحو خولة تقبلها في حين أصرت خولة على معرفة حكاية أبي إسحق مهما تكلف الأمر.

قالت سمر وقد نظرت نحو نهلة التي كانت تلحق بخولة ببطء وكأنها تريد رؤية المشهد دون الخوض فيه:

- أنا لا أعرفه، فقط أسمع أمي نهلة تقول هذه العبارة كلما حزنت على حالنا السياسي.

سمعت نهلة كلام سمر وتسمرت عيونهما تنظر كل للأخرى وكأن كل منهما تقول للأخرى أفهم ما وراء كلامك أو صمتك، أزاحت نهلة بوجهها نحو الطريق ثم قالت:

- غداً الجمعة، سأصحبك إلى دار خالتك.

ثم التفتت مرة أخرى نحو سمر بنفس النظرة الحادة المتحدية، فقالت سمر:

- هو غضب الامس إذن؟ غداً الخميس، ويوم الجمعة لن أذهب إلى أي مكان.
- استشعرت خولة ما يجري بين نهلة وسمر فقالت وقد وقفت بينهما:
- على رسلكما، أكاد أشم رائحة إطلاق القذائف بينكما، ماذا هناك؟
- قالت نهلة وقد وجهت كلامها لأبي فادي:
- أريد غداً عطلة، لدي أمر هام لأقوم به.
- بالطبع لا، ما هذا الهراء، لقد رأيت كم أنا بحاجة لك هنا اليوم.
- ولكن أختي ستجري عملية جراحية.
- حسناً، لها السلامة إن شاء الله، يمكنك الإطمئنان عليها بعد العمل.
- أريده إجازة يا أبا فادي.
- لا.
- إذن أنا مستقيلة هيا يا سمر.

أمسكت نهلة بيد سمر وسحبتها نحو الباب وخرجت تاركة كل من خولة وأبو فادي ينظر كل منهما إلى الآخر بدهشة.

التزمت نهلة الصمت طوال الطريق من شارع الجامعة وسط مدينة نابلس حتى وصلت منزلها في شارع سفيان دون أن تلتفت إلى سمر التي تبعتها بصمت هي الأخرى، حتى إذا ما دخلتا المنزل وأقفلتا الباب استوقفتها وقالت:

- نريد أن نتحدث أيتها الشابة.
- حسناً، يمكن أن يكون حديثنا خلال تناول الطعام.
- لا أعتقد أنني سأصنع أي طعام.
- حسناً، أعتقد أن من العدل أن أجهزه أنا بينما تبدلين ثيابك، أو تغتسلين إن شئت.
- أريد أن نتحدث الآن.
- أرجوك يا أمي، كلانا تعرف ما ستقوله الأخرى، فلم هذا الحديث؟
- أنا أعرفك حين تناديني أمي فلا تحاولي، إننا سنتحدث عن صحة شقيقتي، صحة خالتك.

صمتت سمر وكأن ذلك الموضوع لم يكن ليمر ببالها، فأكملت نهلة وقد لاحظت تبدل وجهها:

- سمر أيتها الحبيبة، بالأمس أعطيتك مفتاح منزلك ونزلت عند رغبتك، واليوم خالتك بحاجتك، ونحن لم نعتد ترك أحد بهذه الطريقة.

تركت سمر نهلة في مدخل المنزل وبدأت تسير بخطوات بطيئة نحو المطبخ، وكأنها تطلب فترة للتفكير وقبل أن تلحق بها نهلة دق الباب بقوة، واستمر الدق المزعج لوهلة فظنت نهلة أن أمراً مريعاً يحصل على الباب، والتفتت بسرعة لتفتحه وهي تردد:

- من، من هناك؟
- وإذا بخولة قد أطلت منه وهي تقول:
- مرحباً، هل تشاجرتما، أرجوك يا نهلة أين سمر؟

تركت نهلة خولة تلتقط أنفاسها وتهبط على المقعد بإنهاك وأخذت تنظر إليها بتعجب ثم سألت:

- ماذا كنت تتخيلين؟ هل توقعت أن أضربها؟

- بصراحة خفت على كلاكما وتركت العمل لأبي فادي وجئت.
- تركت العمل؟
- نعم.

دخلت سمر الغرفة مبتسمة وهي تحمل كوب ماء بيدها وقالت لخولة:

- تفضلي بعض الماء، تبدين بحالة مريعة.

شربت خولة بعض الماء ثم نظرت إلى سمر وقالت:

- أيتها العزيزة، لقد تربيت في حجري وحجر نهلة منذ رأيتك قبل سنوات، وها أنت الآن كإبنتي التي لن أراها أبداً، طالما رجال هذه الأيام قد عموا عن جمالي وطولي ورشاقتي...

بدأت سمر تضحك وخولة تمد بذراعيها يمنة ويسرة تفاخراً بصفاتها، وجلست نهلة على المقعد بجانبها وهي تردد:

- أيتها الحمقاء يا خولة، ولم تركت العمل؟
- ولم تركته أنت؟ الا تعرفين أنني لن أعمل دونك، ثم إنني قلت لأبي فادي إننا نكره صراخه طوال النهار وان عليه أن يجد حلاً لهذا الأمر.
- هل قلت ذلك؟
- بلا، واقترحت عليه أن يشتري لنا لاسلكي كالذي يستعمله سائقو السيارات للتحدث مع المكتب "خولة خولة حول" أبو فادي " أسمعك حول"

انطلقت الضحكات من الثلاثة فأسندت خولة ظهرها على المقعد وقالت:

- حسناً، ليس لدي وقت كثير، ما الخطة، ماذا سنفعل الآن بعد أبي فادي؟

قالت نهلة:

- هذا أمر لا يقلقني، ما يقلقني الآن مرض شقيقتي، ومشكلة سمر.
- حسنا، وما مشكلة سمر؟ عدا عن قضائها معظم وقتها في المكتبة المركزية؟

- نظرت نهلة إلى سمر نظرة مطولة وقالت:
- هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها يا خولة عن سمر.
- قالت سمر وقد بدأت تضرب قبضة يدها بكف اليد الأخرى:
- إن الأمر صعب جداً، أنا لا أستطيع أن أرى المخيم من جديد.
- ولم؟ لقد انتهى الأمر منذ أعوام. لقد عرضتك على أطباء الكرة الأرضية حتى عدت إلى حالتك الطبيعية، وألحقتك بأحسن المدارس، وأصبحت الآن تحققين حلمك وتدرسين الإعلام في جامعة النجاح، لم تعودي طفلة ولم يعد هناك سبب للخوف.

وقفت خولة فجأة وبدأت تهندم نفسها استعداداً للمغادرة وهي تقول:

- حسناً يبدو أن هناك أشياء كثيرة لا أفهمها مما تقولانه، لذلك اسمحا لي بالمغادرة.
- توجهت خولة نحو الباب، ولكن نهلة أمسكت بها بلطف وقالت:
- أتذكرين حين صدف ودخلنا لنسأل عن عمل عند أبي فادي ماذا قال:
- ماذا؟
- لقد سألنا هل أنتما شقيقتان؟ نهلة وخولة. فقلنا لا، وبعدها..
- نعم ظل يعاملنا على أننا شقيقتان وكأنه لم يسمع كلمة لا، وحتى سمر كانت تتنقل بيننا فيقول لها، من أمك خولة أم نهلة.
- إذن أنت تعرفين أنك شقيقتي، وأن بإمكانك مساعدتنا حتى في هذه المشكلة.

توقفت خولة أمام الباب ثم قالت:

- حقا؟ ماذا علي أن أفعل الآن؟

فقالت سمر ساخرة:

- لنحتضن بعضنا بعد هذه الجمل المؤثرة ونبكي كما في الأفلام، وبدأت سمر تحضن خولة بذراع ونهلة بالآخر وكم كانت دهشتها حين رأت

كلتاهما قد حضنت الأخرى وبكت.

قالت سمر وقد أرادت أن تغير الجو:

- خالتي خولة أنت من نابلس أليس كذلك؟
- بلا، إني من نابلس أباً عن جد.
- إذن هل تستطيعين تسمية قرى قضاء نابلس؟
- بلا.
- أعتقد أنك لن تسمي أكثر من أربعة أو خمس قرى.
- وهل هي أكثر من ذلك؟

قالت نهلة بعفوية وقد توجهت نحو المطبخ:

- ها قد بدأنا، سمر الثرثارة وأبحاثها في المكتبة.

ولكن سمر أكملت:

- نتراهن إذا سميت عشر قراً سأصنع لك الطعام الذي تحبينه الآن، والا سنأكل جميعاً طبيخ نهلة البائت من الأمس.

فركت خولة كفيها وبدأت تعد في حين بدلت نهلة ثيابها وبدأت تحضير الطعام في المطبخ وهي تقول:

- لن تسمي خولة أكثر من خمسة، أعرف ذلك.

كان صوت خولة الجهور يزداد ارتفاعاً وهي تتحدى سمر وتقول:

- عقربا، حوارة، قصرى، بورين، عورتا و....

قالت سمر وهي تتجه بخولة نحو المطبخ:

- سنأكل الطعام البائت... بيت..
- بيت فوريك، ماذا أيضاً؟
- يا خالة إنها أكثر من أربعين قرية.

- لا، هل أنت متأكدة.
- نعم
- اذن.. حوارا قصرى
- لقد سميتيهما من قبل
- هل تعرفيها انت
- طبعاً، أنت لم تتمي العشرة، أين بيت دجن أين حجة أين عوريف، عين أبوس، قبلان، قريوت، مجدل بني فاضل...
- حسناً حسناً إني أستسلم يا سمر، إلي بالطعام البائت يا نهلة.

ولكن سمر أكملت:

- أين بتيا، عصيرة الشمالية، عصيرة القبلية، بيت امرين.

هزت خولة رأسها وكأنها تنفضه من سمر وكلامها وتوجهت بالحديث إلى نهلة وقالت:

- أتظنين أن أبو فادي سيتصل بنا على المحمول؟
- ولم يتصل؟
- ليعيدنا للعمل.
- إجلسي لنأكل الآن وبعدها نتحدث.

ولكن خولة وكانها أصيبت بعدوى الثرثرة من سمر، سحبت الكرسي وجلست إلى الطاولة وهي تسأل:

- حسناً، ما حكاية أطباء الكرة الأرضية الذين عرضت عليهم سمر؟

تبسمت نهلة وقالت وكأنها تستسلم:

- هل ترين هذه الثرثارة سمر.
- أجل.
- لقد كانت لا تستطيع قول كلمة ذات يوم.

- ماذا..؟
- لقد أصيبت بحالة نفسية مزرية أثناء الإجتياح الأخير لمخيم جنين حتى شل لسانها ولم تنطق لمدة جاوزت العام.
- وما علاقتها باجتياح مخيم جنين؟ هذا غريب.
- حسناً، سنتحدث لنحكي لك الحكاية من بدايتها.

رفعت نهلة ناظريها نحو السقف وكأنها تتأمل صورة الماضي المنعكسة على صفحته وبدأت تتمايل كأنما تحاول إيجاد زاوية تبدأ منها الحكاية ثم قالت:

- قال لي الطبيب، لا بأس في تكرار الحكاية على مسامع سمر لعلها تتشجع وتخبرنا بما رأته أو سمعته خلال الإجتياح وتشاركنا في سرها الذي منعها من النطق لأكثر من عام.

ثم نظرت في عيون سمر الصامته وقالت:

- كانت سمر لا تزال صغيرة، أعتقد كانت في الثانية عشر من العمر عندما علقنا بمخيم جنين، وكانت معنا جدتها "أمي" وشقيقتي أم سالم قبل الإجتياح الأخير الذي دمر المخيم، هل تذكريه؟
- بلا، لقد كان في العام الفين واثنين كما أذكر.
- شهدت سمر اجتياح المخيم، واستشهاد سلمان ابن اختي، وشقيقته«صفاء» رحمها الله وتدمير منزل العائلة،تشردت سمر وعانت، ونحن حتى الآن لا ندري ما الذي رأته خلال الاجتياح بشكل خاص، جعلها أصيبت بحا لم تستطع معها النطق على الاطلاق لمدة عام كامل، علمنا من ابي اسحق تفاصيل استشهاد سلمان، اما صفاء فسر سمر الدفين،حاول الأطباء وأنا حاولت وحتى المعلمات في المدرسة حاولن مساعدتها على البوح بالأمر دون جدوى، لسمر أسرارها الخاصة، تَفَهمنا الأمر ولانزال نتفهمه حتى الآن، فحين ترينها في بعض الأحيان مرتبكة ومتلعثمة تشد جفنيها على

عينيها حتى تركز على كلماتها قبل أن تتفوه بها، تكون قد عادت لها دفعة كبيرة من الذاكرة المؤلمة بسبب خبر أو مشهد يتعلق بالاجتياح، ولا نزال نأمل ان يأتي اليوم الذي تبوح به بما أصابها، والله كريم.

- هل أفهم أنها كانت وحدها، لا أحد معها في الاجتياح؟ وأنت أين كنت؟
- للأسف كان المحامي المسؤول عن أملاك سمر قد ألح علي بوجوب التوقيع على بعض الأوراق، وبالفعل لو لم أذهب يومها لضاع حق هذه الفتاةوكانت اوراق كثيرة ضاعت بوفاة المحامي رحمه الله.

دفعت خولة بظهرها نحو ظهر الكرسي وتركت اللقمة من يدها وسألت:

- ماذا تقصدين؟ هل لسمر أملاك؟
- أعتقدت أن ذلك سيفاجئك، وها أنت مندهشة، أنت تعرفين أنها ابنة أختي الكبرى رحمها الله، حضرت خصيصاً لأجلها بعد أن أتم محامي والدها كل الأوراق اللازمة، فأمها رحمها الله قد توفيت في العراق منذ زمن طويل، أما سائر العائلة، فقد عدنا إلى فلسطين مع من تسمونهم "العائدين"، بعد وفاة زوجي، ونزولا عند رغبة والدها في وصيته قررت أن آخذ سمر لتعيش معي، وقد عرضتها بالفعل حين مرضت على شتى الأطباء هنا وبالأردن دون فائدة.

صمتت خولة ولم تعلق وأخذت تأكل دون أن تنظر إلى نهلة أو سمر وكأنها تحاول استيعاب ذاك الحديث الذي سمعته حتى قالت نهلة:

- إنها تعرف أني أحبها وهي تحب العيش معي، أليس كذلك؟
- نعم يا أمي.

ابتلعت نهلة ريقها وهي تسمع كلمة أمي من سمر، وكأنما أصبح لها هذه المرة طعم جديد، فقالت خولة وقد عاودت الأكل:

- لنقضي على هذا الطعام البائت إذن، إليّ بصحن البامية.

تبسمت سمر في وجه نهلة ودفعت نحوها برغيف وقالت:

- لنقضي على البامية.

لم تثر خولة أي موضوع شخصي، وحرصت نهلة على التكتم على بقية القصة، حتى نهضت خولة لتغادر المنزل قائلة:

- إذا اتصل بك أبو فادي أخبريني، وأنا سأفعل المثل.
- حسناً.
- وعندما تذهب سمر إلى خالتها في المخيم أخبريني فربما أبيت عندك في بيتك بضع ليال، ما رأيك؟
- هذا جيد، سأفعل.
- إذن إلى اللقاء.
- مع السلامة.

لم ترغب نهلة في النهوض من الفراش صباح يوم الخميس، على عكس سمر التي اعترتها مشاعر جديدة ذاك الصباح، مشاعر تدفع بها للخروج باكراً نحو المكتبة، في شوق كبير لرؤية مصطفى ذاك الصديق المفضل رغم اتفاقها ليلة البارحة مع صديقتاها على الالتقاء هناك بعد ساعة من اللحظة، حاولت نهلة الاستسلام للنوم الا أن صوت أقدام سمر تخرج وتدخل في المنزل قد أرقها فنهضت لترى الأمر، فوجدتها قد أتمت استعدادها للمغادرة نحو المكتبة فقالت بتثاقل:

- إلى أين؟
- إلى المكتبة.
- وما حاجتك إلى المكتبة؟
- أساعد بعض الأصدقاء في أبحاثهم. ويساعدوني بدورهم.
- يمكنهم الإعتماد على أنفسهم اليوم، إبقي بالمنزل.
- لا، لا.

قالت بصوت مرتفع ثم أكملت في نفسها:

- أتوق لسماعه يطلب مساعدتي في أبحاثه، ولكنه لم يفعل حتى الآن.

توقفت سمر مع نفسها لبرهة وتساءلت:

- هل حقا أتوق لسماعه يطلب المساعدة؟ ككل عام، يطلبها في اللحظة الاخيرة.

عادت نهلة إلى سريرها وهي تقول:

- لا تتأخري اليوم، أريد اصطحابك للبلدة القديمة للتسوق قبل ذهابنا للمخيم.

كانت سمر تظن أن عدم التحدث بموضوع المخيم ربما يمنع حدوثه، لذلك أسرعت بالمغادرة وهي تتمنى لخالتها نهاراً سعيداً، وتوجهت نحو المكتبة بخطاً سريعة متجهة نحو شارع الشويترة، الذي يحتضن المكتبة.

- نظرت سمر نظرة خاطفة إلى هاتفها النقال وقالت في نفسها:
- إنها العاشرة تماماً، لا بد أن مصطفى قد وصل، وبالتأكيد وصلت داليا قبل الجميع، فهي تحبه، إذن ما لي وكأن الأمر يؤلمني، إنهما صديقاي وسأكون سعيدة لأجلهما، ومع ذلك ليته يكون وحده، ليتني أقضي وقتاً جميلاً كما كنت أفعل أول معرفتي به، ربما هبة أيضا حضرت قبل الموعد، ستطلب كل منهما مساعدة ما وستتلهى بالتحدث إليه واستشارته المصطنعة ببعض الأمور.

استجمعت سمر أنفاسها وأكملت:

- وما يهمني أنا، إنه مجرد صديق عزيز، أحب أن أساعده قبل تغيبي في المخيم.

وصلت سمر مفترق الطرق عند شارع عمر بن الخطاب، وأخذت تنظر يمنة ويسرة تريد عبوره نحو «شارع الشويترة»، حيث المكتبة حين سمعت صوتاً

يناديها باسمها، نظرت خلفها فوجدت داليا وقد أسرعت خطاها نحوها

اقتربت داليا وألقت التحية وسألت:

- إلى المكتبة؟
- نعم.

شيء ما هذا الصباح بدى مختلفا، شيء ما لم تميزه سمر بعد، جعلها تندفع اليوم إلى المكتبة تريد رؤية مصطفى، وكأن بعض الحديث بالأمس كان سحرياً، أو لعل المبيت في منزلها حيث كان كل ما ضاع منها في انتظارها قد أعاد اتزان أمور لم تعهدها، لم تتكبد سمر عناء سؤال ذاتها عن تلك الرغبة المفاجئة في الإنطلاق، لديها رغبة في التكلم، وفي التهكم على الدنيا وفي تجربة بعض الحماقات التي تشدها نحو مصطفى، صديقها، فهي مؤمنة بأنها لا تزال على عهدها مع وليد المفقود منذ سنوات، وأنها بلا شك ستجده يوماً ما.

قالت سمر وهي تضع أول قدم على مدخل حديقة الشويترة:

- كم أحب هذه المكتبة.
- المكتبة أم الحديقة؟
- كلتاهما فهما كيان واحد بالنسبة لي.
- أنا لا أحب المكتبة، إنها مبنى قديم جداً.
- ولكني أحبها لهذا السبب، إنها مبناً أثري الا تعلمين ذلك؟
- لا تتحديني الآن بهذه المعلومة فأنا أيضاً أعمل أبحاثي هنا وأعرف أنها مكتبة قديمة وليست أثرية.
- بلا. إنها كذلك.

احبت الفتاتان جدالهما حول المكتبة فقد كان خير هروب من المواجهة بالأسئلة الحقيقية، فقالت داليا:

- المعالم الأثرية في نابلس كثيرة، ولكن المكتبة ليست منهم، فأنا أعرف

المسجد الحنبلي الذي بناه الملك سلمان بن عثمان.

- ومن يكون هذا؟
- ملك من ملوك الفترة العثمانية، وأعرف أيضاً المستشفى الوطني بناه السلطان عبد الحميد، والمدرسة الفاطمية مثال آخر.
- حسناً، ومبنى مكتبة بلدية نابلس هذا أيضاً يعود تاريخه إلى العصور العثمانية، ألم تري نافورة الحديقة وقد نحت عليها علم تركيا، إنها نافورة أثرية أيضاً حتى هذه الأشجار.
- توقفت سمر فجأة عن الحديث وتنهدت ثم أكملت:
- إن هذه الأشجار قد جيء بها من حيفا ويافا لتزرع هنا.
- وما لك تقولين ذلك بحرقة؟
- لأنها بلدة أمي، وجدتي، رحمهما الله، أشجار الخشخاش الجميلة.
- حسناً، هيا إلى المكتبة الآن ودعيك من هذا القول.
- الا تصدقيني ؟ اسالي عبير امينة المكتبة اذن، او اعملي ابحاثك ايتها المجتهده

أسرعت داليا تدخل باب المكتبة، وأسرعت سمر وراءها تجتازان الطابق الأول نحو الطابق الثاني، طابق المراجع حيث الطاولات والكراسي لمن يريد الجلوس للقراءة أو الكتابة بهدوء.

أطلت داليا برأسها وقد رأت مصطفى ينهمك في نقل بعض المعلومات إلى دفتر ملاحظاته، فاتجهت نحوه مبتسمة في حين تباطأت سمر على الأدراج تريد رؤية ما سيكون من رد ة فعله.

سحبت داليا الكرسي قبالته وألقت تحية الصباح.

رفع مصطفى ناظريه عن الأوراق للمحة ورد عليها التحية، ثم عاد لينهمك بالكتابة.

وضعت داليا حقيبتها على الطاولة وبدأت تلملم شعرها عن وجهها، وتدفع به للخلف وهي تنظر إلى مصطفى تارة وتتفقد مكان سمر تارة اخرى.

كانت سمر تعرف ما ينقص مصطفى في بحثه وتتوق الى مساعدته، ولكن معرفتها به منذ كان طالباً في عامه الجامعي الأول، حتى أصبح الآن في عامه الأخير، قد جعلها تعرف أنه سيبقى في مساعدة الجميع و لن يطلب المساعدة الا في اللحظات الأخيرة، فقالت وهي تهمس بالقرب منه وكأنها توجه كلامها لداليا:

- اليوم سأغادر مبكرة، ولن أحضر إلى هنا لأسبوع أو أكثر.
- نظرت إليها داليا باستغراب وقالت:
- هل هناك مشكلة؟
- لا، ولكن ظننت أنك قد تستفيدين مني، إذا طلبت مساعدتي اليوم.

تبسم مصطفى وظل على حاله يكتب ولا ينظر لأحد، في حين استغلت داليا الموقف وقالت:

- طبعاً، ألم يطلب منا الأستاذ اختيار موضوع لنشرحه ونناقشه أمام الجميع.
- حسناً، ماذا في ذهنك؟
- لا موضوع محدد، أي موضوع نختاره مقبول على أن نجيد مناقشته.
- إذن ناقشي تاريخ القدس، تقسيمها، ناقشي آثار نابلس.
- آثار نابلس، فكرة جيدة.
- انهضي إذن لنأتي بالكتب المناسبة.

مشت داليا تتخبط كما الطفل المدلل وقالت لسمر:

- ما بك اليوم، لم لا تتركيني قليلاً مع مصطفى؟

رن هاتف داليا فأسرعت تغلقه قبل أن توبخها إحدى المسؤولات في المكتبة،

ثم همست وهي تتدارى برف الكتب:

- هذه هبة، ألم نتفق على أن نسجل الكتب المطلوبة أقصد نستعيرها، لنخرج بها إلى الحديقة ونتساعد في عمل دراساتنا؟ هل سترافقينا؟
- لا أعتقد ذلك، قلت لك سأغادر باكراً اليوم، أريد استعارة إحدى الكتب لنفسي لأقرأه خلال غيبتي.
- إذن أنت جادة بالأمر؟ إلى أين تذهبين؟
- إلى مخيم جنين، خالتي شادية ستجري عملية جراحية.
- لم أفهم، على كل حال، سأخرج لأرى هبة وأعود.
- سأتغيب لأسبوع أو أكثر.
- هذا يكفي، سأخرج إلى هبة الان.

هزت سمر رأسها وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها، واستدارت داليا وهي تلوح بيدها تلويحة بسيطة، ونزلت الدرجات نحو الحديقة، حملت سمر أحد الكتب دون أن تقرأ عنوانه، واتجهت نحو طاولة مصطفى وقد رأت حقيبة داليا لا تزال هناك، جلست قبالتة بصمت وأزاحت الحقيبة لتضع الكتاب، ودون أن يرفع رأسه عن أوراقه سألها:

- أين داليا؟ هل أكلتها؟
- لا، أظن مذاقها سيء.

ضحك مصطفى ورفع رأسه وقد بدأ يعدل نظارته على عينيه ثم قال:

- إني بحاجة لمساعدتك.

بدأ صوت غريب يصرخ في رأس سمر:

- لقد قالها، قال إني بحاجة لمساعدتك، نهضت سمر عن المقعد لا تفهم من الأمر سوى أنه يسعدها، كم أحبه عندما يقول هذه الجملة، تبتسم لي عيناه وينسل منهما بريقاً يخترق فؤادي فأجيبه بتردد: ماذا هناك؟ بم تريد المساعدة، وأستمتع ذاك النهار بطوله في مراقبتة وهو يشرح لي

معضلته ويقلب الأوراق على مكتبه بحثاً عن ورقة هنا أو هناك تثبت لي أن الوقت قد داهمه، ولم يعد بيده حيلة سوى طلب المساعدة أدير ظهري وأقول وأنا مغادرة، سأفكر في الأمر، وأحرص على عدم الإلتفات، حتى لا يرى سعادتي تتدفق كالموج من عيوني، وابتساماتي تجرفني إلى حيث لا أدري من العوالم الوهمية التي بنيتها لي وله فقط، فأهيم فرحة وأنا ألملم أقلامي وأشيائي التافهة المبعثرة، على الطاولة وأعيدها إلى حقيبتي وآذاني صاغية باهتمام إلى صوت أقدامه، لعله يلحق بي الآن ليؤكد على طلبه، علي أن أتلهى بأي شيء قبل أن أنفجر ضاحكة كالمعتاد وأقول: طبعاً سأساعدك، وأبتلع رغم فمي الكبير هذا جملاً كثيرة تتدفق إلى شفتي بسرعة هائلة، كلها تريد التعبير عن سعادتي بتلك المساعدة.

هاهي خطواته تقترب، وها أنا أتوقف عن لملمة أشيائي مستسلمة لضحكتي التي تسيطر على وجهي، وها هو صوته يعيد:

- هل هذا يعني أنك ستساعديني؟

كان لا بد أن أرفع نظري عن حقيبتي لأنظر إليه وأنا أحدثه، فهو لا يزال يقترب وأنا لا أحتمل أن يقترب أكثر من ذلك، ستفضحني مفاصلي المتراقصة كأنها تحتفل به، حسناً لتكن ضحكة كبيرة كالمعتاد ولا قول تلك الجملة المعهودة:

- طبعاً سأساعدك.

لم يصمت بعد أن سمع ردي وضحكتي هذه المرة وإنما سأل:

- أتعرفين لم ألحق بك كل مرة وأسألك هذا السؤال؟
- لأجيبك هذه الإجابة؟ أليس كذلك؟
- لا، لأرى تلك الضحكة.
-

شيء ما أو أحد ما شد شعري للأعلى في تلك اللحظة،او هذا ما احسسته، لا أفهم لم أحسست حرارة شديدة اجتاحت جسدي المتأجج وتمنيت للحظة أن أدفن قبل أن يفضحني احمرار وجهي أمامه، قال وقد لاحظ كل ذلك:

- هل أزعجك ما قلت؟

أجبته وكأنني بدأت أغضب:

- لا أحب هذا النوع من الحديث، دعنا من ذلك ولنعد لموضوعنا.

حملت حقيبتي على كتفي وتوجهت نحو قسم الأبحاث، هناك أبحاث جاهزة لطلبة سابقين فيها كل ما يريد، وأخيراً سحبت البحث المطلوب، فأنا أنظر إليه منذ مدة، وأعرف أنني سأسحبه ذات يوم لأضعه بين يدي مصطفى، قلت له:

- حسناً، هنا ستجد كل ما تريد.
- وصلت باب المكتبة مغادرة فقال:
- شكراً.

بدأت أنزل تلك الدرجات نحو الطابق الأول فتبعني صوته المرتفع:

- سلامي لوالدتك.

لا أدري هل علي أن أرفع صوتي بإجابته أم أتابع، ولكني نظرت إلى المسؤلة عن المكتبة ورأيت انزعاجها وقد توجهت نحوه، فخفضت رأسي وتسللت للخارج، نظرت للجالسين تحت الأشجار أمامي، صديقتاي، وقررت أن أمضي صامتة. ربما الأفضل ان أتجنب داليا وهبة اليوم، وربما الأفضل لي عودة سريعة للمنزل بدل هذا العبث الغبي في مشاعر الآخرين.

حمقاء أنا، لم قلت له لا أحب هذا النوع من الحديث، لم أتارجح معه باستمرار بين الحب والصداقة، وأعود باستمرار وأدفع به للإعتقاد بأنه لا

يعني لي أكثر من زميل دراسة في هذه المكتبة، أنقل عيوني بين المقاعد الكبيرة المترامية بين أشجار الحديقة وقدماي يشداني للجلوس على أحدها مع صديقتاي، ولكن عقلي المتوازن التفكير يأبى الاَ الخروج إلى الطريق وبسرعة قبل أن أضعف وأبقى أحوم حول المنطقة المحظورة.

حسناً ما الذي يحدث معي ولم كل هذا الإنفعال بوجود مصطفى؟ لقد خرجت من مكتبة البلدية أخيراً، لنرى الآن أي الطريقين أسلك، هل أذهب يمينا وأصعد الأدراج الواسعة، أم أتوجه يساراً نحو السيارات وأستقل إحداها للمنزل، لا أدري. قفز قلبي فجأة إلى حلقي، ربما لأني ظننت أنه خلفي وقد لحق بي، يا إلهي لأبتعد بسرعة الآن نحو السيارات.

غادرت سمر المكتبة بسرعة، واتجهت يميناً نحو الدرجات الواسعة، وبدأت صعود درجات يلزمك السير بضع خطوات على أحدها قبل أن تصعد الأخرى، يقفن كأنهن الحل الوحيد الذي يسهل عليك صعود هذا الإرتفاع بين المكتبة والشارع من الجهة اليمنى، والبيوت على جانبه تحصر اتساعه وتحتضنه كأنه قطعة فنية فريدة تركت هناك سهواً.

وقفت سمر على آخر درجة ونظرت خلفها بدهشة وتساءلت:

- ما الذي دفعني لهذا، كانت السيارة حل أسهل، كم أكره هذا الإرتباك الذي لا أجد له تفسيراً.

مشت سمر بضع أمتار أخرجتها من الشارع الفرعي إلى الشارع الرئيسي وسط مدينة نابلس، شارع واسع مكتظ كانت تحبه رغم صخبه. ورغم أنه كان الطريق الأطول الا أن سمر وصلت المنزل في زمن ضمن المعقول، فتحت الباب ورمت سمر بنفسها على المقعد، وما هي الا ثوان حتى عادت لها ابتسامتها المتسعة، ثم بدأ صوت تضاحكها يعلو رويداً رويداً وهي تتذكر ما حدث بينها

وبين مصطفى في المكتبة.

استعادت سمر نشاطها ونهضت تحمل حقيبتها واتجهت لغرفتها وهي تهز رأسها بإعجاب وتكرر:

- انا بحاجة لمساعدتك. كم رجل يمكن أن يقول هذه الجملة ؟

حكت سمر رأسها الممتلئ بالحديث عن مصطفى ونظرت لنفسها في المرآة وتمتمت:

- فتاة في الجامعة، ولا تزال ظفيرتها تتطاول خلف ظهرها، تلبس القميص المستور على رأي أمي، والبنطال حمال المتاعب كما أسميه أنا، وتنتعل حذاء رياضه أبيض حقيبتها بكتفين تعلق إحداهما وتهمل الآخرى في معظم الأحيان، من سيقلقه جمالها العادي هذا.

أنزلت الحقيبة عن ظهرها، وعادت لتلتف يمنة ويسرة أمام المرآة تريد رؤية نفسها من شتى الزوايا، ثم شدت قميصها للأسفل وقالت:

- قال إنه يحب ضحكتي، أو لم يقل؟ لعلها تضحكه مني، أو ماذا؟ أكان جاداً أم ساخراً، أكاد أجن.

جاء صوت صرير باب المنزل وهو يفتح، يعلن قدوم والدتها، فهرعت إليها لترى إن كان هناك ما تحمله عنها وقالت:

- أهلاً بأمي الغالية.

فأجابتها وهي تدفع الباب خلفها بكعب قدمها.

- مزاجك صاف اليوم، خذي مني.

حملت سمر زجاجات العصير، وتبعتها خالتها تحمل كرتونة البيض إلى المطبخ وقد تابعت حديثها تقول:

- يستحسن أن تجهزي ملابسك، سنذهب إلى المخيم.

همت سمر بأن تقول شيئاً، ولكنها صمتت فجأة ولم تدر لم غمرها حزن عميق، وتلاشت ضحكاتها التي سرقتها من قسوة الأيام.

همست بحرقة و لم ترفع ناظريها إلى وجه نهله لتخفي عنها معالم حزنها و سألتها:

- أهو قرارك النهائي؟
- أكيد.

صمتت سمر فأكملت نهلة.

- لقد عدت للعمل، ولم يوافق أبو فادي على الإجازة لذلك علي أن أستغل يوم الغد «الجمعة».

لم تعلق سمر على شيء وإنما توجهت نحو غرفتها وأقفلت الباب خلفها وهي تفكر:

- ماهذا الظلم، كان علي مساعدة مصطفى في إنجاز أبحاثه النهائية، كنت سأذهب إليه مع أول النهار وسأضطر لتناول الإفطار المتأخر معه تحت أشجار حديقة المكتبة، كنا سنتحدث عن أشياء كثيرة ونضحك من أشياء أكثر، ماذا سيقول عني غداً.

رمت سمر بجسدها على سريرها وأطلقت زفيراً قوياً ثم قالت وهي تعدل جلستها:

- علي أن أهاتفه.
- ولكنها ما لبثت أن عادت لتلقي بنفسها على السرير بغضب.
- لا أملك رقم جواله، سأنتظر حتى الغد لأهاتفه على الهاتف الأرضي للمكتبة. ربما ترد غادة على الهاتف، إنها سيدة لطيفة أظنها ستخفي الموضوع عن المدير أبي بشار وتسمح لمصطفى بالرد على الهاتف.

قلبت سمر الهاتف بين أصابعها وعادت لتتذكر "لقد أهداني وليد أول هاتف نقال وقال ونحن نحاول التداري بين بسطات سوق البصل" .

- ألم أقل لك إنني وليد العنيد.
- من أين أتيت بالمال؟
- إنني أعمل ألا ترين ذلك؟
- ولكنك لا تزال في السادسة عشر، وهذا غالي الثمن.
- احتفظي به حين تغادرين مع خالتك إلى مخيم جنين، فتلك مسافة طويلة لا أستطيع اجتيازها بسهولة لرؤيتك، ولكني ساطلب من شقيقتي الاتصال بك من هاتفي بين الحين والآخر، للإطمئنان عليك، لا أريد التسبب لك بأي مشكلة.
- ولكن...
- إذا احتجتني سأكون عندك مهما تكلف الأمر، أنا وليد ماذا؟ وليد العنيد.
- أتدري، سافتقدك كثيراً.
- وأنا أيضاً.
- سأسميك وليد أبو العزايم فأنت لست عنيد، أنت صاحب عزيمة قوية باستمرار.

ضحك وليد بملئ فيه من كلامها وقال:

- إذا كان هذا يسعدك فلن يناديني أحد بعد الآن الا بهذا الإسم.

تقلبت سمر على فراشها ومسحت دمعتها وقالت:

- اين أنت الآن يا وليد؟ لقد وعدتني أن تجدني أينما كنت، وانا الآن أعجز عن إيجادك؟

كيف وجدتني في سوق البصل، وكأنك عرفت يومها كم كنت بأمس الحاجة إليك، يومها دفعت إلي زوجة عمي بصينية وقالت:

- خذيها إلى الفرن.

- أي فرن؟
- الفرن الذي في السوق.
- ولكني لا أعرفه.
- الطريق لا يضيع أحداً.

تركتني مع الصينية وكأن الأمر قد حسم، فرن في سوق البصل! ألم ينتهي زمن الأفران؟ ام أن حضن نابلس الدافئ لا يضيق على عناق الأزمنة معاً؟ ومشيت عبر الأزقة المعتمة حتى وصلت الباب الأخير حيث يقف بائع النعناع والبقدونس، اختنق صوتي في حنجرتي ولم أستطع سؤاله، ولكنه ما إن رآني حتى ابتعد ليفسح لي مجالا للمرور، مشيت بخطوات مثقله أتمنى لو أن الأرض تبتلعني، لم يعد وقوفي ممكناً، فالتدافع شئ عادي هناك وأنا الشيء الأبله الذي يسد الطريق وإذا بصوتك جاء من الخلف ليقول:

- وجدتك، هاتي هذه.

حملت الصينية ومشيت، ولم تلحظ الرعب الذي انتابني، فأنا لم أميزك من اللحظة الأولى، لقد أصبحت في تلك الغيبة إنسان آخر، لا أدري ما هذا الشعر المزعج الذي انتشر على وجهك، يشبه ذقن الرجال ولكنه ليس ذقنا، وتلك النبرة الجديدة في صوتك جعلتني أتساءل "هل اعرفك؟".

كانت ضحكتك التي ابتدأتها على جانب من فمك هي الوحيدة التي بقيت كما هي، نظرت إليّ خلفك وقلت:

- أسرعي، هل أذهب بها إلى الفرن؟
- نعم.
- لقد كان الفرن قريبا من المنزل لم تكن سوى بضع أمتار حتى أصبحنا داخله.
- فرن يعمل بالحطب!

- نعم في هذه السوق تجدين كل ما يخطر على بالك.

تناول الخباز الصينية من وليد وقال:

- عد بعد نصف ساعة.
- بل ننتظرها هنا.

تأمل الفران وجه وليد، وسرق بضع نظرات صوب سمر وكأنه يحاول معرفة عائلتهما. ولم ينقذ وليد من أسئلته سوى دخول رجلين يتعاونان على حمل شيء ثقيل بينهما وضعاه أمام الفران بروية، ثم رفعا عنه الغطاء.

كادت سمر تبدي دهشتها وإعجابها لولا الحياء، كيف تمكنا من حشو خروف وإبقاءه واقفاً على قدميه بهذا الشكل حتى ان رأسه لا يزال ضمن جسده، ومن أين أتيا بهذه القاعدة التي أوقفاه عليها مع تلك الدعامات المساندة في تثبيت العنق.

ابتلع وليد ريقه وهو يرى الخروف يدخل الفرن ثم مال على أذن سمر وقال:

- أعدك حين أكبر سأهديك واحداً مثله.
- انه خروف محشي بطريقة عجيبه، اتظنهم سيقدمونه للاكل بهذه الصورة ؟ واقفا هكذا؟
- اظن ذلك مؤكدا، والا لم تكبدوا عناء ذلك!

صمتت سمر وهي تراقب الخروف ثم تنبهت لول وسألت:

- كيف وجدتني؟
- ألا ترين أني أبيع المخللات، لقد أصبحت خبيراً بأمور البيع بفضلك، منذ قالت لي أم العبد انك هنا في السوق وأنا أرتادة للبيع والشراء والعتاله، حتى أصبحت الآن أبيع أنواع المخللات هنا باستمرار، أصبح لي مكاني

الخاص بجانب محسن بائع المشروبات، لقد أصبحنا صديقين. ألم ترينه؟

- اين ؟لا
- إنه الشاب الذي يعتمر قبعة الرياضة بالمقلوب.
- لا أعرفه.
- صمت وليد قليلاً ثم سألها؟
- هل هذه المرة الأولى التي تخرجين بها إلى السوق؟
- نعم.
- ايه، إذن أنت لا تعرفين أحداً بعد؟
- لا.

هز وليد رأسه وكأنه لا يريدها أن تعرف ما فيه من لوم لذاك العم الذي أوكلت إليه مهمة الإعتناء بها.

- إني أرى عمك كل يوم وأنتظر أن تخرجي أشهراً، كادت العطلة أن تنتهي دون أن أراك.
- لا مكان أخرج اليه.
- لم لا تذهبين إلى المكتبة؟ مكتبة البلدية إنها قريبة من هنا.

وقبل أن يضيف كلمة جاء صوت الفران:

- إليكم صينيتكم.

دفع وليد النقود للفران وقال لسمر:

- احتفظي بنقودك لك.

وحمل الصينية ومشى صامتاً، ففي زحام سوق البصل، لا يمكن التوقف والحديث، ظل وليد على صمته يقطع سوق البصل حتى أول المدخل، مد يده بالصينية وقال بعيون حازمة:

- أنا دائما هنا.

حملت سمر الصينية ومرت بها نحو الزقاق دون أن تلتفت، فهناك حيث لا مجال لحديث أو لسلام كانت ابنة العم في انتظارها.

أغمضت سمر عينيها لبعض الوقت وذكرى وليد تتارجح في أجفانها، تعاتب خياله الغائب ذكراك المتلاعبة على صفحات خدي المبلل بالدمع، لا تزال في عروقي نبضات يطرب لها قلبي وفي روحي رفض لكل ما يقولون، وعندي إيمان بأنك لا تزال حياً في مكان ما، واني من كل بد سأجدك يوماً.

أتصفح كل الوجوه التي تمر بي وأبحث فيها عن اي شبه لك، أنفض عنها أغبرة الأزمنة الجائرة، وأتخيل ما كانت عليه قبل مأساتنا في مخيم جنين، مقربة ومبعدة، لعلي أجدك، وألتفت نحو كل صوت يعلو بقربي، لعلك من يناديني في لحظة غفلة مني، وأبقى على الأمل.

جاء صوت الخالة نهلة يوقظها:

- سمر هيا، الطعام جاهز.

كانت الأفكار المتراكضة بصخب في رأس سمر، بين ذهاب و جيئة، قد ارتسمت أرقاً على صفحة وجهها، ظنت نهلة أن العودة للمخيم هي السبب، فهي لم تكن تدري شيئاً عن ذاك الصراع الذي تعيشه سمر بين الوفاء لوليد المفقود، والتفكير في مصطفى الذي تسعى صديقتها إليه بقوة، لذلك قالت تطمئنها:

- سنذهب سويا إلى المخيم غداً، وسابقى معك حتى آخر النهار، ألا يرضيك ذلك؟
- اكتفت سمر بنظرة سريعة وابتسامة، ومدت يديها تغسلهما استعداداً لتناول الطعام.
- لقد فكرت قليلاً في الساعات القليله الماضية، وأريد أن أعدك بشيء، بعد انتهاء عملية خالتك أم سالم سأسافر بك إلى الخارج.

- ماذا تعنين؟
- سنسافر إلى بغداد مثلاً،وأعرفك على أهل أمك، أو ربما نسافر إلى.... تركيا أو سوريا...أينما تشائين.
- وكأننا نملك المال الوفير !
- بلا نحن نملكه.

كانت نهلة تتضاحك وهي تضع بعض محشي الكوسى وورق العنب في صحن سمر، تنظر إليها بعيون واثقة مما تقول،لم تكترث سمر لجدية خالتها وإنما فاجأتها بقولها:

- هل كان والدي يضرب والدتي؟

هبطت نهلة على الكرسي مأخوذة، وتلعثمت وتنحنحت قبل أن تبتلع ريقها وتسأل بعصبية:

- من قال ذلك؟
- أهو حقيقة؟
- لا، بالتاكيد لا، هل سمعتيه في منزل عمك؟
- هل أنت متأكدة أنه كذب؟
- ألف بالمئة،

همت كلمات أخرى بالتتابع خلف تلك الجملة، فتظاهرت الخالة بالسعلة المفاجئة وابتلعت ألمها، لإنها تذكرت أن شقيقتها شادية هي من تعاني الضرب.

- إذن لم تركتني أمي وسافرت؟

هدأت نهلة فجاة وقالت:

- يبدو أن الأمور تتكشف في النهاية رغم كل شيء.
- إذن...

نفضت نهلة يديها من الطعام، وأبعدت صحنها زاهدة فيه وقالت:

- كل ذلك كان مؤامرة من عمك وزوجته، خوفاً من أن تذهب ثروة والدك لغيرهما.
- ماذا؟
- لقد دخل عمك المنزل على أمك ذات يوم دون استئذان ومعه زوجته، ورآها لا تزال في ثياب النوم، فصاحت وغضبت وطردتهما، ولكنهما بدل أن يغادرا المنزل هاتفا والدك وادعيا أنهما رأيا رجلا غريبا يخرج من المنزل وأن أمك ودعته بثيابها التي صفتها كذا وكذا.
- ماذا تقولين ؟ انه اتهماها بشرفها، وبتلك بسهولة،مستحيل
- وللأسف صدق والدك الحكاية وتشاجر معها، وكلما أخبرته الحقيقة قال لو أن لأخي نية سوء ما أتى بزوجته معه، وحين صرخت فيه "هل جننت"، "طلقني" لطمها على وجهها.

وضعت نهلة كفها على فيها، تريد منع الأنفاس الساخنة المتلاحقة حسرة على شقيقتها

اصفر وجه سمر، وبدى عليها التوتر والغضب، فنهضت وهي تضغط بكفيها على رأسها ودارت حول نفسها وهي تقول بلوم:

- امي المسكينة، ايصل الحسد والكراهية لتلك الدرجة؟ ثم..وبعد كل ذلك.. يوصي بأن أبقى عندهم بعد وفاته.
- لم يكن هناك غيرهم، ثم إن نصف المنزل قانونياً كان لك.
- ولكنه كان يعرف أنهم يكرهوننا.
- نعم وكان يعرف أنني سآتي لأجلك، فهو يعرف أن علاقتي بأمك ليست أي علاقة.
- ولكن، ماذا لو تعذر قدومك لسبب ما، أليس هناك احتمال كهذا.
- لا، لم يكن شيء ليمنعني من أخذك سوى الموت.

- قامت نهلة إلى سمر وضمتها إليها بشدة وقالت:
- ايتها الغبية، قد أعمل حربا على العالم وأكسر كل القوانين، لأجل ضمة كهذه، فهل تظنيني أفرط بك؟
- لقد خسرت أمي وابي لأجل ثروة وهمية.

أبعدت نهلة سمر عن حضنها قليلاً وقالت: كمن يحمل مفاجأة:

- الثروة ليست وهمية.
- ماذا؟ هل تعتبرين المنزل ثروة تستحق أن أخسرهما؟
- أي بيت؟ إنني أتحدث عن ثروة حقيقية.
- لا أفهمك.
- لم يبع والدك أياً من أملاكه لأحد لقد كان واثقاً أنني سآتي لذلك تنازل لي عن كل شيء.
- أنت تمازحيني أليس كذلك؟
- اقسم لك إني أقول الحقيقة، ألم تسألي نفسك من أين أتي لك بالأقساط الجامعية وإيجار المنزل مثلاً.
- من أين؟ من عملك؟
- إنها أموالك اشترط علي والدك في وصيته الا اعطيك منها شيئا قبل أن تنهي الجامعة وها أنت على بعد أشهر قليلة من إنهاء عامك الجامعي الأول، لا أظنه يمانع والظروف هذه، ثروته هديته لك يوم تخرجك على كل حال.
- خالتي لا تلعبي بأعصابي.
- حبيبتي ثروتك منزل ومنجرة ومحلان لبيع الأثاث و....
- وماذا؟
- ومحل بدل العرائس.
- ماذا تعنين؟
- لقد اشتريت لك محل أبي فادي كل الأوراق عند المحامي.

- إذن المحل لك الان؟
- بل لك، ولكن لا تخبري خولة خوفاً عليها من الجنون.
- ضحكت الخالة وقالت:
- سنحتفل بعد عودتك من جنين ونخبرها بذلك على مهل.
- إذن.
- إذن، لناكل، ولنفكر بمساعدة خالتك شادية فنحن عائلتها الوحيدة، ولولا أن ابنتها وفاء في انتظار مولودها بأي وقت لذهبت معها إلى المستشفى.

قالت سمر وكأنها لم تسمع الجملة الخيرة:

- أتدرين يا خالتي، لو خيرت لفضلت الفقر بوجود أمي وأبي على كل تلك الأموال، فقد عشت عمراً كما ترين دون أي منهما.

لم تنم نهلة تلك الليلة وقد ثارت عليها براكين ذاكرتها الخامدة، لو أن سمر تدري أني كنت أرفض القدوم، كنت سأتركها بالفعل مع عمها لولا أم العبد جزاها الله خيرا، لقد تكبدت مشاق السفر إلى العراق لشرح الأمر لي، سمر أيتها العزيزة، سامحيني.

بدأت نهلة تلوم نفسها على ترددها القديم في القدوم إلى سمر، وعلى تفكيرها بالإنتقام من والدها برفض طلبه، وتراءت لها شقيقتها أم سمر وهي تصف لها ضحكات، صغيرتها ولعبها حولها، بينما كانت هي تشتم اليوم الذي حصلت فيه شقيقتها على الرقم الوطني وأصبحت من "العائدين".

أختي التي كانت كالشعلة في نشاطها، كالنحلة في انتقاء مواقعها، أختي التي عرفها الجميع بنشاطاتها السياسية في العراق وفي الجامعة الأردنية، كم قلت لها هذا الرجل يكبرك كثيراً، إنه ليس الأنسب لك، ولكن لا يمنع حذر من قدر، لقد كان ماكان وانتهى الأمر. كان علي أن أتفهم عشقها للأرض، وقد اتفهم أن تبيع الدنيا من أجل العودة، ولكن لا شيء يستطيع أن يشرح لي، كيف لصبية

مثل أختي حملت الفرح من مقلنا لتزرعه في عيون أهل الإنتفاضة،كيف تغتال متشردة بين أرض الحلم والحقيقة، وتموت في انفجار طال سيارتها قبل أن تعود لرؤية ابنتها، انفجارات لا تدري لم هي وما الغاية منها، تحصد الأرواح كأنما لا قيمة لحياتهم، وتدمر الأرض وكأنها خلقت لأجل غرورهم وشرورهم.

صغيرة كانت، غبية كانت، ظنت أن الأحلام يمكن ان تتحقق، آمنت بالقضية، وكل أرض العرب قضايا، العراق كانت قضية، كان الاتفاق بين دول العالم الذي يدعي الحضارة أن فلان ينهبها والآخر يهدمها والثالث يبنيها، ووقفوا على الشاشات الكبيرة يدعون أنهم يهدونا الحريه، صفقوا لبعض وصفقنا لهم وتقتلنا وتقاتلنا ووصمنا بعضنا بكل العارات، وعدنا مع الحرية المهداة إلى زمن الثأر، قرابين العراق أصبحت أخبار عادية، فلم ظننت أن الآف القرابين التي قدمها الفلسطينيون على محراب الحرية، قد تمس قلب الجلاد أو ربما يمكنها لف عقارب زمن الكذب العالمي نحو بوصلة الحقيقة، الكل يعرف الحقيقة، لذلك يبرعون في تزييفها ويتقنون ادعاء "الخرس والطرش" عندما تصدح الحناجر الجبارة في الصراخ، كل العالم تحالف ضد أرض لا تتجاوز مساحتها على خارطة العالم راس القلم، كل العالم اتفق ضد صبية فتية، أدانها وشوه ماضيها واتهمها في شرفها ودينها، من استباح لنفسه الحق المطلق في مصالحها، شقيقتي والأرض كلتاهما سلب وكلتاهما تدنس دون وجه حق، أختي قربان آخر ولكن ليس للأرض والحرية.

أطل الصباح بوجهه المتكدر، حملت سمر حقيبتها وركبت السيارة، وهي تتساءل في نفسها، لم عدت لأحملك في بعض أشيائي؟ وأسافر بك إليك، لم تكون داخلي كالأكسجين وأبحث عنك؟، لم علي بعد عناء الهروب والبعاد أن أحمل حقيبتي والملمك في ثناياها؟، أيها الماضي الذي يأبى الا أن يبقى حاضراً، ها أنا أخطو إليك من جديد.

كان الجو حاراً، وتوقفت حركة الهواء تنبئ بارتفاع درجات الحرارة، والسيارة تجري نحو مخيم جنين دون توقف، و نسمة الهواء الخفيفة الناتجة عن سرعة السيارة، تداعب خصلات الشعر المترامية على جبين سمر.

كان السائق يحدث نهلة عن مرج ابن عامر المترامي الأطراف على طريق جنين، ويتحسر على البلاد المتروكة على الساحل تحت سطوة الإحتلال، لم تلتفت سمر لقوله، حتى بدأت تسمع جمل مألوفة، وأسماء مكررة وقصص قديمة، ما الجديد؟ لقد قالت جدتي أشياء أهم من كل ما يقول.

تأففت سمر دون قصد منها فالتفت نهلة بسرعة وقالت:

- ماذا هناك؟ إنه يقول الحقيقة. إن القرى التي هدمت واحتلت في الداخل أكثر من خمسمائة قرية.

قال السائق:

- خمسمائة وثلاثون. أمريكا اعترفت بالدولة اليهودية بعد عامين من الحرب، عامين، وبالطبع أنهى العرب حالة الحرب مع اسرائيل، أصبحت دولة وليس احتلال أمام العالم، ونحن أصبحنا الإرهاب العالمي.

لم تدر سمر ما تقول، فهي لم تر نهلة بهذه الحدة منذ زمن، ولكن السائق وكأنما يريد الإستزادة قال:

- حوالي أربعة ملايين ونصف لاجئ يا أختي عدد اللاجئين اليوم، إنني أتساءل كيف استطاعوا إخراج ما يقارب الثماني مائة الف فلسطيني بسهولة وسلامة، كأن شيئاً لم يحدث.
- طبعا نحن الآن نعلم، لأن الإعلام تغير وأصبح بين أيدينا وسائل لم تكن من قبل، ولم يعد بمقدور أحد إخفاء الحقيقة مهما زوروها.

ابتسمت نهلة ابتسامة لم تدر سمر ان كانت للسخرية أم للتفاخر، وقالت:

- ابنتي هذه تدرس في كلية الإعلام، حلم عمرها أن تكون صحافية، لنرى ما ستستطيع فعله. ستكتب يوماً عن كل ذلك، أوتدرين شيئا يا سمر؟ في المرة الأولى التي رأيت فيها هذه الأرض سحرت بها.
- لماذا ؟ إني أعرف أن العراق جنة الأرض.
- بلا، ولكن العراق او بغداد على وجه التحديد بلد مستوي ككف اليد لا جبال فيها ولا صخور، وكم كنا نتمنى حجراً من فلسطين نضمه ونقبله، بالطبع هناك جبال كردستان ومرتفعلت الشمال، ولكنها أبداً ليست كفلسطين.

عاد السائق لأسئلته، وانسجمت نهلة في حديث السياسة، في حين تضاحكت سمر وهي تلتفت إلى الطريق لتنظر إلى جمال الطبيعة الخضراء، ونقلت عيونها بين جمال السهول وشموخ الجبال، تحاول أن تراها بعيون خالتها حتى عرفت شارعاً بعينه، تسارعت دقات قلبها وعدلت جلستها وسألت:

- ألسنا على أبواب المخيم؟
- بلا.

وضعت سمر كفها على عيونها، وكأنها ترفض أن تراه من جديد،ولكنها عاودت كشفهما وحدقت قليلاً ثم سألت:

- ما هذا الذي يقف في منتصف الدوار؟
- إنه تمثال كبير كما ترين.

قال السائق وكأن دوره قد حان للتوضيح:

- إنه تمثال حصان ضخم، صنعه بعض السواح المتعاطفين مع المخيم، صنعوه من بقايا سيارة الإسعاف التي قصف فيها الدكتور خليل سالم. أو ربما اسمه خليل سلمان، رحمه الله، كان اسمه قريباً من ذلك.

لفّ السيارة ببطئ حول الحصان، وكأنه تعمد إعطاء سمر وخالتها فرصة لتأمل هذا العمل الفني، ولكن عيون سمر كانت قد تجاوزته نحو المستشفى الحكومي، وقد بدى لها لوهلة محترقاً ومهدماً على حاله ساعة الإجتياح، والجيش يقف على بابه ليمنع دخول الحالات الطارئة، فنفضت رأسها تهرباً من تلك الذكرى، حتى رأته مرمماً وفعالاً، وبدأت ترى مدخل المخيم، ترتعش لصورته المهدومة المخزنة في رأسها وتسترجع قواها برؤيته بعافية وخير من جديد.

من قال إن الزمن لا يتوقف، من قال إنه لا ينتظر أحدا فليأت إلى هنا، فليأت إلى مخيم جنين، رغم كل التغيرات التي حدثت، والإصلاحات التي لحقت به، الا أن الزمن قد توقف فيه منذ الإجتياح، ولايزال يسكن زواياه هنا وهناك، ويحدق بنا وربما يتساءل، متى ستدفعون عجلتي، بقايا بعض البيوت المهدومة لا تزال متروكة في وسط المخيم في حارة الحواشين، الهدوء العجيب رغم كثرة السكان في بعض زقاقه، يستنطق الأحياء من جديد، هل غادرتم المنازل القديمة التي سكنتموها أم أنها سكنتكم، وبتم المكان الوحيد الذي يمكن البحث عنها داخله، هنا كنت أجري وصديقاتي، هنا كنا نكتب على الجدران المقتلعة، والتي لا تزال تتراءى لي بوضوح. كانت نهلة تراقب ردات فعل سمر بحذر، ولما رأت أن لا خطر بالأمر قالت:

- ها قد وصلنا.

وقفت السيارة، نظرت سمر أمامها فلم تر سوى بيتاً أصفر الجدران كأنما به مرض أو ربما هي العدوى يتشارك بها مع العديد من البيوت الجديدة (بيوت الشيخ زايد)، كما يسمونها.

قال السائق:

- هذا هو البيت، لقد أصبحت الشوارع متسعة بعد الإجتياح، لم يسمح

الجيش ببناء الأزقة من جديد، فقد كانت تعيق حركة دباباته.

تنهدت نهلة وهي تفتح الباب وتنظر نحو المنزل ثم قالت لابنتها:

- هيا، انزلي واقرعي الجرس، ربما تكون خالتك بالخارج في مثل هذا الوقت.

نزلت سمر من السيارة وسحبت حقيبتها عن المقعد واتجهت نحو باب المنزل، في حين مدت نهلة يدها بالنقود للسائق وقالت:

- شكراً لك، مع السلامة.

فتحت أم سالم "شادية" الباب وأخذت سمر من فورها في حضن كبير قائلة:

- أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً بالحبايب.

ثم انهالت على شقيقتها نهلة بالقبل والدموع، وبدأت سمر تنظر إلى المخيم من حولها يمنة ويسرة، حتى وقع ناظرها على شاب يبدو في السادسة عشرة من عمره، يقف أمامها محدقا باهتمام، لوهلة ظنت أنها تعرفه، ولكنه حين قفز فوق دراجته وانطلق شكت في ذلك.

في الداخل كان المنزل حديث البناء الا أنه صغير الحجم، وكأنما هو شيء لسد الرمق، قالت أم سالم وهي تسحب سمر من يدها بلطف، لقد أعددت لك غرفة ستحبينها، كانت لوفاء قبل زواجها، فتحت أم سالم باب الغرفة وأكملت:

- أتذكرين النافذة، أعتقد أنها تماما كما نافذة المنزل القديم، ذاتها، بمحاذاة السرير وتطل على الشارع.

التفتت سمر كمن يستدرك أمراً وسألت بلهفة:

- الا يزال أبا إسحق على قيد الحياة؟

- أبو إسحق، ذاك العجوز الثرثار، بالطبع لا..أنت تعرفين ذلك، رحمه الله.

همهمت سمر: رحمه الله. كنت آمل أن تقولي نعم، لا أدري لم.

- حسناً، ضعي حقيبتك وتعالي لنجلس مع والدتك، إني بشوق كبير لكما.

تركت أم سالم سمر في الغرفة، وذهبت لتعيد الترحيب بشقيقتها، فانتاب سمر شعور غريب، انها بالمخيم، ذكريات كثيرة دفنت هنا، ايمكن ان اجد وليد هنا في المخيم، لا.. يا لغبائي، مسحت وجهها بكفيها كأنما تحاول مسح ملامح الغباء عنه ثم ذهبت إلى غرفة الإستقبال حيث خالتاها وجلست.

قبل أن تنهي شمس ذاك النهار مشوارها اليومي من المشرق إلى المغرب، كانت نهلة قد أنهت مشوارها إلى المخيم وغادرت إلى نابلس من جديد تاركة سمر في بيت شقيقتها.

اقتربت سمر من نافذة غرفتها ومدت يديها لفتحها، وقبل أن تدفعها أغمضت عينيها وبدأت تحاول الرؤية من خلال الذاكرة، دفعت النافذة فتدفقت أصوات رقيقة جميلة إلى أذنيها، أصوات صديقاتها في سن العاشرة التوأمان دعاء وأسماء ذواتا الشعر الجعدي ونظارات النظر، وعريب الفتاة الممشوقة، طويلة القامة، تسير بينهن بخيلاء، وتشير على إحداهن بكتابة كذا وعلى الأخرى بمسح كذا، بدأت رائحة الفحم الذي لوث أصابعهن يصل إلى أنف سمر، وأحست لوهلة أنها لو مدت يدها، ستلمس ذاك الجدار الذي ملأته بأخبار المخيم، بصفتها المحررة المستقبلية المقطوعة النظير، والتي أخذت على عاتقها تدريب صديقاتها على نقل الأخبار، الأسماء المعهودة تعود لترن في أذنها، ماذا عن طوالبة، ماذا عن أبو جندل، ماذا عن استعدادات الأشبال، لنجمع أخبار أخرى عن أبو الهيجا. هناك طفل صغير يركض نحونا إنه أخاك يا عريب، اقترب الطفل وبدأت صورته في ذهن سمر تتضح رويداً رويداً، حتى فتحت عيناها وقالت:

- إنه الشاب على الدراجة، إنه يزن، شقيق عريب، كان علي أن أعرفه من شعره الأشقر المميز بين أطفال جيله، يا إلهي كم يمر الزمن ويغير الأشياء بسرعة ولكنه أبداً لا يستطيع تغيير ما كان.

ابتسمت سمر ابتسامة لطيفة، وجلست على سريرها تفكر ماذا لو علقت هنا في المخيم من جديد، وماذا لو اجتاح الجيش المخيم مرة أخرى، فكل شيء هذه الأيام ممكن.

ماذا لو ظهر وليد؟ ليته يظهر، ليت ذاك الثقل الجاثم على صدري يتلاشى، ربما لو عرف أني عدت للمخيم لأتى لأجلي من مخيمه أو أي مكان آخر هو فيه، لقد جاء للمخيم خلال الإجتياح حتى لا أكون فيه وحدي، أفلا يظهر الآن؟ أتراه ما زال يذكرني، مازال يحبني؟ أم أن السنين قد بدلته، أتراني كنت أبكي ليالي الفراق وكان يقضيها متونسا بحب جديد، أم ما الذي حصل؟ الجميع في المخيم قالوا إن أمه كانت مريضةجداً، وأن ابنتها حين أتت لتزورها، أخذتها إلى المستشفى، وبعدها لم يظهر منهم أحد، وآخرون ادعوا أنها أخذت أبا العزائم للمستشفى، بعض الأصحاب قالوا إنهم رأوا الجيش يقوده أمامهم، والبعض الآخر قال رأيناه في المستشفى، وآخرون اقسموا أنهم رأوا جثته مضرجة بدمائها، وبعدها لا مستشفى ولا سجن ولا حتى جثة أكدت شيئا. ويسألون لم تصرين على أنه لا يزال يعيش في مكان ما.

أغمضت سمر عينيها، وشدت جفونها كأنما تتجرع ألماً حاداً تمرد عليها من قمقم النسيان، وخرج حتى بلغ حلقها، ابتلعت ريقها ومسحت دمعة ساخنة فرت من جفونها، تمتمت بحسرة، نقول كانت صفحة وطويناها، نكذب فقد حفظنا الصفحة عن ظهر قلب، نقول كان زمن وولى ونبقى نجتر ذات الزمن، نقول حمل وحطيناه ونحن نحمله في القلب حيثما رحلنا وحيثما حللنا.فيا ايتها الصفحة المعبأة بزمن الحمل الصعب هلا انطويت عنا قليلا ؟ لعلنا نرى

بعض بصيص نور لشمس الامل المتداري خلف ثقلك.

في اليوم التالي، أصوات خافته كانت تدب على أذني سمر وهي لا تزال نائمة في السرير، أحست وكأن أحدهم يفتح باب الغرفة بهدوء، فعرفت أن النهار قد حل وهي لا تزال نائمة. هدأت سمر في فراشها لتفهم ما يقال حولهان فميزت صوت خالتها وهي تهمس:

- دعيها نائمة يا وفاء، ستستيقظ بعد قليل.
- ولكني بحاجة للحذاء.
- بعد أن تستيقظ يا وفاء، هيا.
- لا.

دخلت وفاء بخطوات متلطفة حتى وصلت السرير، ومدت يدها لتسحب الحذاء من تحته بهدوء، ثم عادت نحو أمها وأغلقت الباب بعناية.

تبسمت سمر وكشفت وجهها، وقد تخيلت ما كان يمكن أن يحدث،، لو أنها مدت يدها من تحت الغطاء إلى رأس وفاء حيث انحنت لإخراج الحذاء وبدأت تضحك من الأمر ثم نزلت تريد أن تداعب ابنة خالتها بمباغتتها حيث تكون.

فتحت الباب برفق ومشت على أطراف أصابعها وأطرقت السمع لتعرف في أي غرفة هما، فجاءت كلمات وفاء كقذائف الإجتياح الحارة وهي تسأل والدتها:

- هل عرفت سمر أن الفتق في بطنك سببه ضرب والدي لك؟

شكت سمر بأذنيها في البداية ولم تصدق ما سمعت.

- على أبي أن يتوقف عن ذلك، وخاصة بعد العملية والا شكوته للشرطة هذه المرة.
- إصمتي يا فتاة، تهذبي إنك تتحدثين عن والدك.
- أتحدث عن رجل يضرب زوجته بوحشية دون سبب.

استدارت سمر بسرعة وعادت إلى غرفتها وأطبقت الباب بلطف، ولكن الباب أصدر صوتاً رغم ذلك فجرت إلى سريرها وغطت نفسها ووجهها بسرعة، وما هي الا ثوان حتى فتحت وفاء الباب وقالت بصوت مرتفع.

- انهضي أيتها الكسولة.

ثم توجهت نحو النافذة، وكشفت ستائرها.

تظاهرت سمر بالإستيقاظ، وأظهرت بعض الدهشة المصطنعة لرؤية وفاء وهي تقول:

- وفاء، عزيزتي، أنت هنا، إني أسأل عنك منذ البارحة.
- إذن هيا انهضي، والحقي بنا في المطبخ لنتناول الإفطار.

خرجت وفاء من الغرفة، فاستغربت سمر من ردة فعلها، وشكت بأن تكون قد رأتها تعود لغرفتها، بعد أن سمعت ما كان، ولم تجد بداً من النهوض من الفراش.

حملت سمر منشفتها على كتفها، وحملت فرشاة أسنانها ومعجونها من فوق الطاولة الصغيرة الجاثمة قرب السرير وتوجهت للحمام بصمت، ولكن وفاء رفعت صوتها لتقول:

- اليوم الأحد، التاريخ الرابع من نيسان لعام ألفين واثنين، تم افتتاح جريدة الحرية لهذا اليوم.

توقفت سمر عن السير، وتسمرت في مكانها بدهشة، ثم شدت كفيها بقوة على وجهها واستدارت نحو ابنة خالتها وقالت:

- انت لا زلت تذكرين؟!
- نعم. لقد كنت تضايقين الجميع بإعلانك اليومي هذا، والآن ليس منا أحد لا يذكره ويضحك.

- إني كثيراً ما أحدث بناتي عنك، وكيف كنت كل صباح تفتتحين جريدتك الوهمية تلك بتلك الطريقة الغريبة، خلال سيرك للحمام كل صباح، وكيف كانت صديقاتك يؤمن بك، ويساعدنك ويلملمن أخبار المخيم ويأتوك بها لتكتبيها على جدران المنازل، أعتقد أن شبراً من تلك الجدران لم يسلم من خربشاتكن. أليس كذلك؟
- يا إلهي إنك تذكريني بأشياء.....لم تكن خربشات تلك التي كتبناها كانت أخبار مهمة في تلك الأيام، وكان العم أبو إسحق رحمه الله يعلق عليها كلما مرَّ بنا.
- نعم ذاك العجوز، رحمه الله. اذهبي للحمام الآن، وسنكمل الحديث على الإفطار، هيا قبل أن يبرد الشاي بالنعناع كما تحبيه.
- إذن سأسرع.

مسحت دمعتان خفيفتانعن جفنيها بسرعة، ودخلت الحمام في حين تنهدت وفاء وقالت لأمها:

- ليكن الله بعونها كنت أريد ممازحتها وإذا بها تكاد تبكي.
- إذن لنبتعد عن ذكر تلك الأيام.

هزت وفاء رأسها بالموافقة، و ما إن رأت سمر تخرج من الحمام حتى هجمت عليها تقبلها وتعانقها بحرارة.

أبعدت سمر وفاء بلطف وهي ترفع يديها وتقول:

- حسناً انا أستسلم، ماذا هناك؟ ماالذي يجري؟ إنه أغرب صباح أعيشه منذ عشر سنوات.
- عادت وفاء لضمها.
- كم اشتقنا لك، كم افتقدناك، أنت كما كنت والحمد لله.

ضمت سمر ابنة خالتها ومشت معها نحو المطبخ وقد أربكها ذاك الترحيب.

حملت الأم الإفطار والشاي على صينية كبيرة، وتوجهت نحو طاولة غرفة الاستقبال التي تواجه باب المنزل وقالت وهي تضعها:

- الطقس جميل سأفتح الباب، لنأكل ونحن ننظر إلى المارة، كأننا في مطعم فاخر.

ضحكت الإثنتان وجلستا، في حين فتحت أم سالم الباب على مصراعيه مبتسمة:

- لا إله الا الله، ما أجمل هذا الصباح.

هبطت أم سالم على المقعد تسكب الشاي وتستمع إلى حديث الفتاتين، وعيون سمر تحاول التهرب من الالتقاء بعيون الخالة حتى لا ينطلق السؤال الذي يدوي في رأسها "هل حقيقة ان العم يضربك"؟

لاحظت وفاء شرود سمر بين الحين والآخر فسألتها:

- بم تفكرين؟

ابتلعت سمر لقمتها على استعجال وكأنها صدمت من السؤال ثم أجابت:

- لا شيء، أفكر في هذا الشاب الذي يقف أمامي هناك.

رفعت سمر كوب الشاي إلى فمها، ونظرت للخارج تريد الإستمتاع بنكهة النعناع، وتبسمت وهي تدقق النظر بذاك الشاب الممسك بدراجته قبالة المنزل.

نظرت وفاء ثم نظرت أم سالم وسألت:

- أتعرفينه؟
- أهو يزن؟

صاحت وفاء بحماس:

- بلا، انه شقيق عريب.
- نعم، وما اخر اخبارها

صمتت وفاء، لكن سمر حملت الكوب واتجهت نحو الباب، حتى اتكأت على أحد جوانبه وراحت ترشف الشاي تارة وتحدق بالشاب أخرى، فما كان منه الا أن لوح بيده وركب دراجته وانطلق. لوحت سمر بالمقابل وعادت لتسال:

- ما أخبار عريب؟ ما أخبار التوأمين؟
- ظننت أنكم على تواصل معاً، الا تعرفين أخبارهن؟
- لا.

نظرت وفاء إلى أمها وكأنها تسأل:

- أيعجبك هذا أيضاً؟

قالت سمر باهتمام:

- هل حدث لإحداهن مكروه؟

هزت الأم رأسها بالنفي وقالت:

- نحن لا نعرف الكثير عن أخبارهن، ولكن أعتقد أن التوأمان قد درستا التمريض، وانتقلتا للعيش برام الله حيث يعملن بالمستشفى هناك.

حملت أم سالم الصينية واتجهت نحو المطبخ، فيما بقيت وفاء تتشاغل بالترتيب معها وكأنهما يهربان من ذكر شيء ما، تنهدت سمر ودخلت خلفهن وسألت:

- أين عمي أبو سالم؟
- إنه يستكمل أوراق المستشفى، وسيذهب أيضاً لاستصدار تصريح لك كمرافقة لي.
- هل أستطيع أن أسألك؟ لم لا تتعالجين في مستشفى رام الله مثلاً أو أحد مستشفيات نابلس؟
- إن التحويلة من الوكالة للمطلع تعني تحمل الوكالة الكثير من التكاليف، أعتقد ثلثا المبلغ على الأقل إن لم يكن كله.

لم يعجب سمر ما سمعت ولكنها هزت رأسها، وبدأت تبحث عن موضوع آخر للحديث.

كانت أصوات النسوة مرتفعة في المنزل حين استيقظت سمر في اليوم التالي، لا تدري ما الذي يجري، فكشفت غطاءها وأسرعت لترى ما هناك، وإذا بصوت تلك المرأة المرتفع، لا يزال يقتحم الآذان رغم علو الضحكات وهي تقول:

- اضحكن كما تشأن، ولكن الإعتراف فضيلة، نعم لقد كنت حمقاء حينها، قالوا لي، لقد تقدم لخطبتك، فقلت، إن الدين يقول أن نوافق على من نرضى دينه وخلقه، كم كنت حمقاء، كان علي أن أفهم ديني جيداً، فقد سألت عن دينه ولم أسأل عن خلقه، قالوا لي إنه يصلي الخمس في المسجد، فقلت على بركة الله، لم أرى من الحديث كلمة "خلقه"، لم أسأل عن خلقه، أعتقد أنني كنت أخاف العنوسة في ذلك الوقت وربما أعتقدت أنه آخر فرصة لي.

نقرت وفاء على كتف سمر وقالت:

- إنهن معلمات، زميلات أمي في المدرسة، جئن لرؤيتها قبل العملية.
- معلمات؟ حتى هذه التي تتحدث؟
- نعم، إنها أعز صديقات أمي، لقد تزوجت رجلاً لم يكمل الابتدائية، وفي كل مرة لا تكتفي من تكرار قصتها، اسمعي قولها.

أنصتت الإثنتان وإذا بالمعلمة تقول:

- كان سائق تكسي، ما إن تزوجنا حتى ترك العمل وجلس في البيت، ورحت أنا أخرج للتدريس لأعود وأجده غاضب مني.
- لماذا؟
- لأنني تركته دون أن أجهز له إفطاره.

تضاحكت المعلمات من حولها فسألتها إحداهن:

- و تقولين عنه هذا بعد أن أصبح لك منه فتاة وشاباً؟
- بلا، حتى لا تقع غيري في خطأي.
- وهل بقي دون عمل حتى الآن كل تلك السنين؟
- لا، إنه يعمل أسبوع ويتقاعد أشهر، هذه مهنته هذه الأيام، لو أن معه شهادة لربما وجد عملاً آخر ولكن لا فائدة.
- أعتقد إذن أن عليك الصمت و التكتم على أخبار منزلك.
- لماذا؟ إنه لم يترك أحداً من أهلي أو أهله الا وشكى له مني، وحين أغضب عليه، يتركني وأولادي ويذهب إلى بيت أمه.

قالت أم سالم ممازحة:

- لقد عمل بالمثل القائل: "الزمن الله يهده الزلمة يحرد والمرة ترده."

علت أصوات الضحكات فقالت سمر لوفاء:

- هل ما تقوله صحيح؟
- ولم لا يكون صحيح، إنها دائماً تقول: "لا قوامة لغسان علي" غسان اسم زوجها، وتقول إن القوامة بتحمل مسؤولية المنزل المادية والأمنية، وهو لا يعمل ولا يهتم حين يتركها مع أولادها لوحدهم في المنزل لليال عديدة؟

نظرت سمر إلى المعلمات من زاوية الباب، وقالت بتحسر:

- إيه، هو قرار واحد أحياناً، وسائر الحياة تمشي تبعاً له.
- اتبعيني إلى المطبخ

سارت سمر خلف وفاء التي أكملت:

- حسناً، إن هذه المعلمة وأمي والصديقتان الأخريتان، صديقات منذ سنين، تربيت وأولادهم معاً وحضروا زفافي، وكانوا أول من وقف بجانبنا بعد الإجتياح، لذلك تجدينهن يفضفضن إلى بعضهن الحديث، فلا تكون

فكرتك سيئة عن تلك المرأة.

صمتت سمر ولكن أفكار رأسها ظلت تقول:

- لم سأظن بها ظناً سيئاً، فالمرأة صابرة على مصابها بزوجها وربما علي احترامها؟!

ثم سالت:

- ولم تبقي عليه في منزلها إذن؟ لم لا تطلقه بما أنه همها، لم تحتفظ به؟
- لا أدري، هل أسألها؟
- هل تجروئين؟
- سأحاول وأنا أقدم القهوة.
- حملت وفاء القهوة ودخلت بها إليهن وصوت المعلمة ذاتها تقول:
- لا أجد لهذا الرجل حلاً أبداً.
- فقالت وفاء وقد مزجت الضحك بكلامها:
- إذن لم لا تطلقيه؟

صمت الجميع وكأن وفاء ألقت قنبلة محظورة، فتنهدت المرأة وقالت:

- حسناً لنفرض أني طلقته، سأخرج من البيت وسيحرمني الأولاد، وربما أعيش عند أخي أو اختي، ولن يتغير شيء لصالحي، راتبي سأضطر لأشارك فيه من أسكن معه، أو سأستأجر منزلاً وأستدين المال من أجل الأثاث مثلاً، لقد فكرت بالأمر مئة مرة، ووجدت أن أهون الأمور وأفضل الحلول أن أصمت.

حملت وفاء الصينية الفارغة وخرجت نحو سمر، وبقي الصمت يحوم حول الضيوف لوهلة، حتى قالت أم سالم:

- إننا معشر النساء نبني ونعلم ونربي ولا نهدم، فهل أجد مع إحداكن إبرة وخيط لرتق فتقي بدل الذهاب إلى مستشفى المطلع؟

عادت الضحكات البسيطة تحوم بين الوجوه، في حين بقيت سمر تتساءل رغم صمتها:

- لم علينا معشر النساء أن نخاف من الهدم، إن كان البناء ليس متيناً؟، لم علينا التنازل عن أولادنا رغم أننا نعمل كالرجال؟ لم علينا اللجوء للأهل، ولا يمكن أن يكون لأحدانا منزلها الآمن دون أن تطالها الشبهات والتساؤلات؟ ربما يكون هذا التساؤل موضوعا مهما لكتاباتي المستقبلية.

ربتت وفاء على كتف سمر برفق وقالت:

- ماذا بك؟ لا تعطي الأمر أهمية كبيرة، غداً إذا تزوجت ستفهمين كل شيء.
- تحسست وفاء يطنها الكبير كأنها تلمح الى الحمل والاولاد ومش، لم تدر سمر ماذا قصدت ابنة خالتها بذلك الحديث، ولكنها فهمت أن عليها إغلاق الموضوع، فمضت إلى حال سبيلها تستكمل استقبال الصباح بالإغتسال وغسل ثياب نومها، وتتلهى بتسريح شعرها،حتى غادرت المعلمات المنزل.

اقتربت أم سالم من سمر وقالت:

- هل تناولت فطورك؟
- سأتناول الغداء معكم، فالإفطار لم يعد مناسباً بعد هذه الساعة.
- أعدي لنفسك شطيرة، لأننا سنؤخر الغداء كما بالأمس، لقد اتصل عمك، وقال إن الأوراق أصبحت مستكملة وان موعد العملية هو الخميس، وعلينا التواجد في المستشفى منذ الأربعاء لحجز سرير لي.
- إذن سأغادر معك؟
- بالطبع، تصريحك جاهز أيضاً، سنبقى هناك حسب التصريح أربعة أيام، فانظري ماذا ستأخذين معك، فإذا كان هناك ما ينقص اشتريناه قبل فوات الأوان.
- لا شيء ينقص يا خالتي، ستكون عملية ميسرة إن شاء الله، وستعودين لمنزلك بالسلامة.

- إن شاء الله، شكراً لك يا سمر، والآن أعدي لنفسك شيئاً تأكلينه.
- توجهت ام سالم نحو غرفتها، فتبعتها وقاء تستأذن بالعودة الى المنزل ثم اقتربت منها وهمست
- لقد شقينا بسببه،لا يمكنه ان يرفع يده عليك بعد اليوم
- لا تتدخلي بالامر
- بلا سأتدخل،سأمنعه انا ان لم تفعلي
- عودي لمنزلك، كفاك اليوم

جلست أم سالم في غرفتها وتسمرت عيونها بالأرض وراحت تتذكر وقد انعكرت تقاسيم وجهها، ايمكن ان تكون ابنتها على حق ؟ والا فالى متى السكوت ؟ الى متى اخاف الفضيحة والشماتة ؟ الى متى اقول بيتي وعائلتي اهم مني؟

حاولت ام سالم ان تهدئ نفسها الا ان الذكريات المؤلمة لا تغادر بسهولة، فهنا على هذا السرير كانت تحاول النوم حين طلب منها زوجها كوباً من الشاي، لم تقل شيئاً ولكنها تلكأت قليلاً، ظنت أنه سيعيد طلبه برفق ولكنه دفعها عن السرير قائلاً:

- لم أنت بطيئة.. أسرعي.

وقعت على هذه الأرض، وقررت أن عليها أن تكون امرأة تدافع عن نفسها ولو لمرة، ترفع صوتها وتتمرد ولو لمرة، فتحت فمها وأبت الكلمات الخروج، ظل فمها مفتوح كالبلهاء، وهي تنظر إليه صامته، كل الكلمات كانت هناك في رأسها ولكن حرفاً واحداً لم يخرج، فالقاعدة الذهبية لديها كانت الصمت أسلم.

نفض أبو سالم الغطاء عن نفسه بعصبية وقام إليها وبيد كأنها قبضة من حديد، أمسك بشعرها وظل يسحبها إلى المطبخ وصرخات ألمها لم توقفه ثم قال:

- ها هو المطبخ، أتجدينه بعيداً، أتريدين أن أسحبك؟

بكت أم سالم بحرقة، وأشعلت الغاز، ووضعت إبريق الشاي على النار، كانت تعرف أنها إن لم تفعل هذا سيكون الجواب مزيداً من الضرب، وأنها إن صمتت سيضربها أيضاً لأتفه الأسباب في المرة القادمة، ليس هناك طريقة للتفاهم ولا للحديث سوى تحمل المزيد من الضربات، تحسست أم سالم بطنها وتذكرت كم من حمل اضطرت إلى إجهاضه بسبب ركله لبطنها وكم من فتق مؤلم يحذرها الأطباء من تسببه في «غرغرينا» في حال أطبق الفتق على قسم من أمعائها، وكم مرة تظاهرت أمام الناس بالسعادة الزوجية، وهي تتمنى الموت على ذلك.

حملت كوب الشاي بعد أن مسحت دموعها ببقية ثيابها، واتجهت نحو الغرفة وقد كسى وجهها الحزن والغضب، نظر أبو سالم إليها فلم يعجبه ما رأى. تناول الكوب وقال بتهكم:

- لا أدري أي المدراس هذه التي قبلتك معلمة فيها، يظنوك تفهمين وأنت لا تفهمين شيئاً، عندما أرى المديرة سأخبرها بذلك.

كرهت أم سالم العودة للفراش، ولكن خوفها من أن يصبح خروجها من الغرفة سبباً آخر للشجار، جعلها تعود إليه، وتسمع بقية الشتائم مرغمة، فقد كان وراء صمتها ناراً من الإستنكار والتمرد على كل ما يجري، الا أن خوفها من شماتة الجيران والمعارف، وحتى نساء العائلة جعلتها تلتهم كل جمل الإعتراض والدفاع، وتتمسك بالصمت العاجز.

انتظر أبو سالم حتى استكملت أم سالم غطاء نفسها بالفراش من جديد، ثم قال:

- أريد المزيد من السكر.

كان على أم سالم أن تنهض من جديد وبسرعة هذه المرة، تبكي بمرارة على

حالها، في حين يبتسم هو ابتسامة المنتصر تمسح الدموع قبل أن تدخل عليه، فيقول وقد رآها تعود للسرير.

- أليس لدينا شيئ نأكله مع كوب الشاي، اصنعي لي شطيرة زعتر وحمصي الخبزة جيداً.

كان أبو سالم يتلذذ بإغاظة زوجته وإذلالها في كل مرة، حتى قالت:

- هل تريد شيئاً آخر لأجلبه مرة واحدة بدل كثرة الذهاب والإياب.

ألقى أبو سالم كل ما في يديه إلى الأرض ونهض من الفراش كالثور، يدفع بزوجته ويلطم وجهها من زاوية إلى أخرى حتى صرخت في وجهه.

- الا تخاف الله، حرام عليك.

هنا أمسك بها بكلتا يديه بقوة، وأخذ يركلها بركبته في بطنها حتى وقعت على الأرض. تركها وقال وهو يرتدي ثيابه يريد الخروج من المنزل:

- يحسدونني لأني تزوجت امرأة متعلمة، تعلم في المدرسة، ليأتو ا ويروا ما أعاني.

غادر أبو سالم المنزل، وترك أم سالم تبكي وتلطم وجهها على حظها العاثر في هذه الحياة، ولامت نفسها لوهلة على ترك قاعدة» الصمت أسلم».

كانت تعرف أنه في كل مرة يعد أن يزور شقيقته، سيفتعل سبباً للعراك، وربما ذهب إليها الآن ليخبرها عن إنجازاته في ضربها وإهانتها، لذلك عليها أن تنهض عن الأرض على الفور، وتغسل وجهها، أو ربما تأخذ حماماً ساخناً، وتلتف بأجمل الأرواب الدافئة وتنظف الغرفة من الشاي المسكوب وتضع صينية الشاي في غرفة الجلوس، مع منضدة أبو سالم الممتلئة بأعقاب السجائر، ولا بأس بحذائه وجواربه المتروكة قرب السرير، حتى إذا اجتاحت أخته المنزل، شكت في كلام أخيها مهما كان قد قال. هذه كانت حيلة أم سالم في

رد كيد ابنة الحماة على نحرها، وتلافي شماتتها.

كانت وفاء تريد العودة للمنزل حين رأت أمها تبكي بصمت فجثت عند ركبتيها وقالت وهي تنظر إلى عينيها:

- أماه، لم لا تتركيه؟

أشاحت الأم بوجهها عن الإبنة ولكن وفاء أكملت:

- لقد كنت تقولين ستتركيه حين أتزوج، لقد تزوجت، وسالم الذي كنت تعيشين لأجله سافر، وسلمان وصفاء..، صمتت وفاء وكأنها لم تقدر على تتمة الجملة، لكن أم سالم قالت:
- ليتني كنت مكانهما، لكنت ارتحت من هذه الحياة.
- أماه، إن الموت ليس حلاً، اتركيه.
- وأين أذهب بعد هذا العمر، أترك منزلي الذي بذلت عمري لأكونه، وأين أذهب.
- إلى أي مكان.
- هذا تماماً ما تريده عمتك، وكأني السبب في عنوستها، تنتقم مني وتملأ رأس أبيك بالحديث عن زوجة صغيرة بهذا البيت، الذي لا تزال تعتبره ليس بيتي وإنما بيت الشيخ زايد كما تردد امامي في كل مرة.

نهضت وفاء عن الأرض واستدارت نحو الباب وهي تقول:

- مشكلتك الحقيقية لا ترينها وترين كل تلك المشاكل الثانوية، إني ذاهبة الآن.

كانت كلمات وفاء بالنسبة لأمها مجرد كلام غير ناضج، لفتاة صغيرة غير مسؤولة، عليها إهماله والعودة للإسترخاء على السرير. أما سمرفقد كانت تستغرب زوج خالتها المتعلم والذي يعمل محاسباً في مصنع كبير يتبدل عند دخوله المنزل ويصبح رجلاً آخر متوحشاً غير متحضر.

عند المساء جلست سمر على الدرجات الصغيرات التي كانت تتقدم المنزل نحو الطريق وقد جلست الخالة وزوجها في غرفة الجلوس بالقرب منها، وبدأت تسأل:

- لم أعد أرى يزن، أريد أن أسأله عن عريب، الا تعرفون أخبارها؟

قالت أم سالم على استعجال:

- لا.

في حين قال أبو سالم:

- عريب، تلك الفتاة التي جاءت إلينا هاربة من أهلها؟
- نظرت أم سالم في عيون سمر وصمتت في حين بادرت سمر بالسؤال:
- هربت من أهلها ! لماذا؟
- قالت إنهم سيزوجونها رغماً عنها، بينما كانت تريد الإلتحاق بالجامعة.
- وماذا حصل؟
- هروبها ولجوءها إلينا جعل والدها يصر على تزويجها، وهذا ما كان.
- يا الهي، لم يفعل الآباء هذا ببناتهن؟
- يا ابنتي، لا يملك الأهل المال لتدريس أبنائهم.
- حسناً، ولكن كان بإمكانه إلحاقها بالكلية التابعة لوكالة الغوث مثلاً أو بأي معهد.

علا صوت أبي سالم هذه المرة وهو يقول:

- لم توجهين الكلام لنا، نحن لم نزوج عريب، ولم نشجع والدها على ذلك، أما الكلية التي تتحدثين عنها فأعتقد أيضاً أننا لا نعرف عنها شيئاً.

نظرت سمر نظرة سريعة نحو خالتها، وابتسمت لها ابتسامة خاصة، كأنما تشهدها على أسلوبه العصبي في النقاش.

رن هاتف سمر فرفعته تنظر إلى اسم الطالب لتجده بلا اسم، تساءلت في

نفسها لم علي الرد من المستحيل ان يكون مصطفى، ليته يكون مصطفى، فتحت سمر خط الهاتف وقالت:

- الو.
- مرحبا سمر كيف الحال؟
- تبدل وجه سمر وهي تسمع صوت مصطفى يأتيها صافيا حنونا فقالت:
- أهلاً مصطفى.
- أين أنت، لقد افتقدناك.

كان صوت أبو سالم مرتفع كفاية لتسمعه سمر رغم تظاهره بخفضه وهو يقول:

- لعنه الله من اختراع، أفسد البنات.

عادت سمر لمكالمته وكأنها لم تسمع منه شيء.

- انا بخير وانت.
- أنا مشتاق.

احست سمر أنها ربما فرصتها لتقول شيئا فقالت:

- أنا أيضاً.

صمت الاثنان لبرهة فعاد مصطفى ليقول:

- إذن ستذهبين للقدس.
- نعم.
- أتدرين أنا أيضاً لي زيارة مهمة للقدس خلال الأيام القادمة.
- صحيح؟
- نعم قد أزور خالتك واطمئن عليها، إذا لم يكن لديك مانع.
- بالطبع لا، ستسرني زيارتك.
- وأنا أحب ما يسرك.

لم تدر سمر ما تقول فأكمل مصطفى:

- إذن إلى اللقاء في القدس.
- إلى اللقاء.

اقفلت سمر السماعة فصاح زوج خالتها من فوره:

- هذه مهزلة، تتحدثين إلى شاب غريب أمامنا.
- وهل كان علي أن أحدثه سراً.
- كان عليك الا تحدثيه على الاطلاق، هذا لا يليق بالبنات المؤدبات.

ابتلعت سمر كلماته وصمتت، وقد بهتت فرحتها بمصطفى، وضاعت رغبتها بمساعدة خالتها شادية، ترددت سمر بين البقاء والمغادرة، ثم عادت تحملق بالمارة أمام المنزل وكل أملها في تلك اللحظة، لو أن خالتها نهلة تظهر من بينهم وتعيدها معها إلى نابلس. أحست بإنها تعبة من كل تلك الأعباء الإضافية التي تلقي بها الدنيا عليها، ليتها تستطيع الهروب من هذا الكابوس الذي لا ينتهي، ليتها تنفض من رأسها هذا المخيم، ليتها تنسى أحداثه الجاثمة على صدرها، ليتها تنسى وليد وتنسى البحث عنه، هي لا تريد سوى العودة لحضن الخالة نهلة، وأين نهلة؟

الفصل الثالث

حاجز قلنديا

كانت نهلة على وشك أن تسأل خولة عن سبب رغبتها بالمبيت في منزلها، ولكن خولة بعد أن اتخذت مقعدها في الشرفة الزجاجية وبدأت تنظر إلى الطريق في تلك الليلة، بدأت تتحدث من تلقاء نفسها:

- لم تسأليني عن سبب مبيتي هنا؟
- ولم أسألك؟ هذا بيتك الثاني.
- بلا ولكني سأخبرك الحكاية، إن أخواتي الأربع وشقيقي في اجتماع عائلي هذه اللحظة، يريدون اتخاذ قرار بشأن أمي والمنزل.
- لم أفهم.
- أمي المسكينة، يريدون إرسالها إلى دار المسنين.
- إلى دار المسنين، لماذا؟
- إنهم يتشاجرون من أجل المنزل، المنزل الذي بنته هي من تعبها وعرق جبينها، لم يكن والدي ليستطيع عمل شيء، فقد زوجها جدي ابنة سبعة عشر لرجل في الأربعين من العمر.

تبسمت بمرارة وزفرت نفساً عميقاً متقطع وأكملت:

- على فكرة أمي أيضاً هاجرت في الثمانية وأربعين، إنها من قرية سلمه شمال حيفا.
- سلمة، ماهذا الاسم، لم أسمع به من قبل.
- كيف لا، لقد سميت على اسم صحابي ما، لا أدري إن كان إبن أم سلمة عليها السلام زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، أم سلمة آخر ولكني

متأكدة أن بها مقام سيدنا سلمة.

رفعت خولة ناظريها نحو النافذة كأنها تتأمل وجه أمها:

- ياحسرتي على أمي، لقد خرجت من بلدها وهي ابنة عشر سنوات، وظلت طوال تلك المدة تعتقد أنها ستعود إلى بيتها ذات يوم، سكنت القدس لفترة من الزمن وتسجلت مع عائلتها في مكتب وكالة الغوث هناك، وكانت تعتاش لفترة مما يوزعونه عليهم من المواد التموينية، ولكن جدي ما إن تعرف على والدي وعرف أن له منزلاً في نابلس حتى أهداه أمي على الفور، رغم فارق السن الكبير بينهما، وهكذا انجبتنا خمس بنات وولد.
- ألم تقولي أنها بنت البيت بتعبها ومالها؟
- بلا، كان بيت والدي عبارة عن غرفة قديمة مع مرحاض خارجي ولكن حين بدأت تعمل، استغلت اسمها في بطاقة الغوث وذهبت إلى مكاتب الوكالة هنا وفي الأردن طلباً للمعونة وظلت تحاول حتى ساعدوها في بناء غرف إضافية وحمام داخلي، والآن، كما ترين، يقف أخي ليتشاجر مع أخواتي حوله، وأخواتي قد غضبن من والدتي لإنها نهرتهن وقالت:
- هذا المنزل لسعيد، لقد تزوجتن فاتركنه.
- وأنت؟
- لم أتدخل في شيء، لقد عملت طوال السنوات الفائتة وصرفت كل قرش عليها وعلى المنزل.
- إذن أين المشكلة؟
- المشكلة أن أمي أصيبت بالشلل، وأصبحت بحاجة لمن يحملها إلى الحمام بصراحة، وبحاجة إلى من يطعمها ويسقيها، لذلك طلب مني سعيد ترك العمل والتفرغ لها، ولكني عرفت أنني إن فعلت فسأموت جوعاً وسأقتلها معي، فسعيد شاب أناني جداً للأسف، وأظنه قد اتفق مع إحداهن على الزواج وأصبح يريد التخلص مني ومن أمي لذلك عاد ليطالب أخواتي بالقدوم وتقديم الخدمة لها ولكنهن رفضن.

- ماذا؟
- قلن له، لقد طردتنا ذات يوم وقالت إن هذا المنزل لك، فتحملها أنت واخدمها كما تشاء.
- يا للقسوة، وأنت ما موقفك؟
- أنا مع أن تبقى أمي في منزلها معززة مكرمة وأن يتعاونوا جميعاً في دفع راتب ممرضة أو مرافقة لها، ولكنهم رفضوا أيضاً، والآن جمعهن أخي للمرة الأخيرة ليهددهن بأنه سيرسلها إلى دار المسنين إن لم يتساعدن في خدمتها، فإن فعلها وأرسلها إلى هناك سأذهب معها لن أتركها أبداً، سأجد طريقة لأبيت معها حتى لو عملت هناك أكنس وأمسح لن أتركها يا نهلة أبداً.

تنهدت نهلة وصمتت لا تدري إن كان هناك ثمة ما يقال في هذا الموقف وبدأت تترنم بكلمات لحن حزين:

طليت على العربان اشتكي ظلايمي

لقيت العربان مثلي مثايلي

يا مين يعاوني ويا مين يعيني

واحد يرد الحمل لو كان مايلي

قالت خولة وقد طربت للحن:

- من أين لك هذ الكلمات، إن أمي كانت تغنيها أحياناً.
- إنها كلمات أمي المفضلة أيضاً، عندما كانت تندب حالها هي الأخرى، لقد كانت تجلس وتتحسر على بلدها وبيت والدها.
- ومن أي البلدان هي؟
- من قرية جبع على ساحل حيفا، كانت كثيراً ما تتباهى بقريتها وتقول إنها

بمثابة مدينة، لولا ما كان، وتعدد، كان بها مدررسة وسكة حديد ومولد كهرباء وكان أهلها يعملون بصيد الأسماك، قالت يوماً وهي تنظر إلى ما تعطينا وكالة الغوث من بقايا العدس والحمص: "لقد كانت أرضنا تنتج أحسن أنواع البقول وحتى الحمضيات، فلم يطردونا منها ثم يمنون علينا بفضلات أكلهم".

- نعم إنه أمر محير، أمي أيضاً كانت تقول عندما ترى النسوة يتسابقن على الحليب المجفف الذي وزعته الوكالة على المرضعات لفترة مضت "كان لدينا أبقار، تسقي كل المخيم حليباً طازجاً ويزيد وكانت تذكر معركة بدأت مع فتاة تعلف الأبقار".
- معركة في سلمة؟
- أجل. قالت إن المعركة سببها بعض المستوطنين من مستعمرة "هاتكفا"، وقالت إن الفتاة التي كانت تعلف الأبقار كان اسمها عائشة من عائلة الحوتري، أظنها كانت تجمع الأعشاب من بيارة قريبة من المستعمرة، فهاجمها المستعمرون وحاولوا الإعتداء عليها فبدأت تصرخ وتصرخ حتى قدم أهل سلمة لنجدتها وبعدها تطور القتال حتى أصبح معركة، الغريب في الأمر أننا نسمع باستمرار من أهلنا أنهم حاربوا المستعمرات، وأن الكثير من القرى قد تكاثفت مع بعضها وانتصرت على اليهود المستعمرين ولحقت بهم حتى ركبوا البواخر التي أتت بهم ولكن جيوش الإنجليز كانت تعود للتدخل لصالحهم.
- نعم، جبع أيضا كانت آخر قرية تم طرد أهلها جميعاً إلى العراق. الا جدتي التي عادت مع والدي إلى نابلس.
- نعم وأهل سلمة أيضاً هجروها في الثامن والعشرين من نيسان عام ثمانية وأربعين.
- تحفظين التاريخ.
- لقد حفظته لشدة ذكر أمي له، لقد صادف يوم ميلادها.

- حان وقت الشاي.

نهضت الصديقتان وعلا صوت خولة لتغني:

- سنرجع يوما إلى أ رضنا.
- نعم نعم، كان حلم فيروز منذ أربعين عاماً.
- سنرجع مهما يطول الزمان.

أكملت نهلة معها بصوت واحد:

- وتناَ ى المسافات ما يبننا.

ضحكت الصديقتان وهما تشعران كمن يطلق العنان لمواهبه المدفونة.

توقفت نهلة عن الغناء ولم تعرف خولة تتمة الأغنية فقالت نهلة:

- لو أن سمر هنا، أنت محظوظة لأنك حظيت بها يا نهلة، لا تعانين الوحدة بوجودها. لقد كان لي حلم ذات يوم.
- وما هو؟
- لا تسخري مني، فقد كنت أحلم أني سأحب يوماً.
- هل أفهم أنك لم تحبي أحداً بكل هذا العمر!
- تقصدين بكل هذا الطول، نعم أحببت ولكن احداً لم يلتفت إلي، لو تعرفين كم يكون الحب مؤلماً بهذه الصورة، لا تقولي شيئاً فمن المؤكد أنك اختبرته.
- هل تزوجت كل شقيقاتك؟
- نعم، وليتهن ما تزوجن.
- لماذا؟
- لقد سمعت من مشاكلهن مع أزواجهن ما كرهني بالموضوع.
- إذن لتحكي لي ونحن نحتسي كوبينا.
- سأحكي لك حكاية تحيرني، حكاية حماة شقيقتي عايدة، وهي بالطبع

تنتهي بقصة عايدة فما يحيرني بالأمر، اني حين أفكر بهما لا أدري الظالم من المظلوم، تزوجت أم أحمد وهذه كنية الحماة من رجل وحيد لوالديه، سافر بعد الزواج مباشرة إلى أمريكا ووعد بإنجاز معاملاتها للحاق به، وبدأت بالطبع تعتني بوالديه أثناء غيابه، وبقيت بين عجين وخبيز وغسيل وووو، سنة وأخرى والاوراق لا تنتهي، أنجبت منه ولداً وحيداً وبدأت تربيه بعد أن علمت أن زوجها تزوج من أجنبية هناك وقد أنجب منها، تحملت أمه القاسية وأبوه المتسلط لأجل ابنها، وذات يوموبعد سنوات عدة، حضر الزوج وعلمت منه أنه أرسل لها الأوراق أكثر من مرة ولكن والديه كانا يمزقانها في كل مرة لأنهما يريدان ابقائها لخدمتهما، كان ولدها قد أصبح في الثامنة من العمر حين رأى والده يتزوج للمرة الثانية، وقد نزلت به أمه للمخزن حتى تخلي البيت للعروسين، وضعت رأسه في حجرها وبكت حتى بللته وقد رفعت صوت المذياع بأغنيات الحب تتلاحق في تلك الليلة، كأنما تصب الملح في جرحها. أختي تزوجت من ذاك الشاب وحيد أمه، طبعا لا يعرف والده لأنه لم يعد أبداً بعد زواجه الثاني، كانت أمي تظن أن هذا الزواج سيكون مثالياً، شاب له منزل كبير بحديقة غناء تعلم الترجمة في جامعة ما، ويعمل في شركة خاصة مشهورة، عنده سيارة وحاله مستقر.

- أظنه الزواج المثالي أيضاً. ماذا حصل؟
- في البداية كان العريس مثالياً فعلاً ولكن بعد الزواج اتضح أن أمه دللته حتى أفسدته. لم تطلب منه ولو مرة أن يشتري شيئاً من السوق، أو أن يأكل مما تأكل أو حتى أن ينام حيث تنام.
- لم أفهم.
- كانت تخاف عليه كثيراً، تنضج له اللحم وتخبئه حتى يعود وتأكل هي أي شيء، تلبسه أحسن ما يكون وتذهب للسوق لجلب أفضل الخضار والفواكه لأجله، فإذا حصل ومدت يدها وأكلت منها ندمت.

- إذن...
- إذن، توجب على شقيقتي التسوق له وهو جالس في البيت يمر بها بسيارته وهي تحمل بعض البقالة، يتوقف، تظنه سيحملها معه ولكنه يقول لها: أسرعي إني ذاهب للبيت، لا يحمل حتى البقالة عنها.
- هذا شيء لا يصدق.
- لم يعتد التوقف لأمه فقد كانت تقول له إن فعلها "امض انت، لتبقى سيارتك نظيفة وأنا سأصل فوراً".

عند الطعام اعتاد أن يأكل الدجاج واللحوم بحرية لذلك كانت ترمي لشقيقتي جناح دجاجة وتعطيه الباقي فإذا حاول اطعامها زجرته ووبخته، ملت شقيقتي كل ذلك، وهذا أحد أسباب شجارها مع أخي بخصوص أمي والمنزل، تفكر بترك زوجها في أي لحظة.

- الا تظنين انك تبالغين قليلا؟
- ابدا والله يا نهلة، ان اختي تعاني الامرين من حماتها، فهي ممنوعة من ان تطبخ لنفسها، او ان تأكل وحدها، ومع ذلك عليها اطعام صغارها ايضا مما تمن به عليها تلك الحماة
- وزوجها ؟ ما موقفه
- زوجها وبصراحة لا يرى اي خطأ في تصرفات امه
- وتقولين انك لا تعرفين الظالم من المظلوم ! ان الصورة واضحة
- لا ادري احيانا اتعاطف مع الحماة لما وقع عليها من ظلم
- منذ متى يحق للمظلوم ظلم الناس، كان الاولى بها ان تتقي الله باختك بعد تلك التجربة التي مرت بها، اذن هل جميع اخواتك لهن قصص مماثلة؟
- هل تريدين معرفة ذلك حقاً؟
- لا أدري.
- إذن سأخبرك في كل ليلة بقصة واحدة منهن مثل ألف ليلة وليلة، ما رأيك؟
- وهل ستبقين هنا طوال الأسبوع؟

- هل لديك مانع؟
- لا، ولكن، والدتك؟
- ألم أقل لك، لقد تشاجر أخي مع أخواتي وطردهن من البيت، وادعى أن البيت له وحده، وقال إن إحداهن لن تدخله ولا حتى خولة التي هي أنا، ولكن أخواتي يعتزمن تهديده بالشرطة، سيعدن بعد يومين لتكملة المعركة معه.
- لو كانت أمك تعرف أنّ لمتكم في بيت محترم سيحدث هذه المشكلة، ما سعت لذلك، ولابقيتم في غرفة تعافونها.
- نعم يا نهلة، كلامك صحيح، لذا..

شدت خولة على شفتيها وكأنما لم تجد ما تقوله، ولكن نهلة هزت رأسها وكأنما فهمت كل شيء دون حديث، وتنهدت وهي تحمد الله على نعمة المنزل الذي بقي للصغيرة سمر، والذي سيغنيها عن سؤال أعمامها مكاناً تبيت فيه.

لم يغمض لسمر جفن تلك الليلة في مخيم جنين، ولكنها رغم ذلك استيقظت باكراً، وقررت أن تعد الإفطار هذه المرة للخالة، ولكن ما إن سحبت الوعاء من الخزانة حتى انتابها إحساس غامر من الحزن، التفتت نحو باب الحمام بسرعة وقد تراءت لها صورة ابنة خالتها صفاء تطل منه قبل أن تقفله وتقول:

- حركي الشعيرية جيداً، ثم اسكبي عليها الماء الذي في الإبريق أمامك، سأعود بسرعة.

دخلت صفاء الحمام، فمدت سمر يدها نحو الشعيرية تريد زيادة الكمية لنفسها،ولكن صفاء أعادت فتح الباب على عجل وقالت:

- إياك أن تزيدي الكمية، لقد زدتها لأجلك.

كانت رائحة الشعيرية تملأ أنف سمر، وهي تتذكر صحنها المكسو بالسكر والقرفة، والبخار يتصاعد منه، والجدة تأكل بشهية قبالتها في غرفة متواضعة

ضيقة، تبتسم وتقول:

- سلمت يداك يا صفاء، هلا تركت بعضاً منها لصالح.
- بلا.

سألت سمر ببساطة الأطفال:

- من صالح هذا؟

وكزت صفاء إبنه الخالة الصغيرة وكأنها تأمرها باحترام الكبار حتى لو كان حديثهم هلوسة.

أشاحت سمر برأسها تنفض منه الذكريات المؤلمة، وعادت للبحث عن الشعيرية في خزائن مطبخ الخالة الضيق، الا أن صوت صفاء عاد إلى رأسها قائلاً:

- إن الخالة قد ذهبت لتؤمن أولادها عند أهل العم أبو سالم خارج المخيم، وقالت إنها ستعود لأجلنا ولأجل الجدة.

ولوهلة تراءت لسمر صورة صفاء بوضوح كامل، وهي تضع كفيها على كتفيها وتحدق في عيونها وتكرر:

- ستعود، هل تسمعين، لا أريد أن تخافي أبداً وأنا معك.

جاء صوت الخالة فجأة ليقطع على سمر عالم ذكرياتها:

- صباح الخير يا عزيزتي، لم استيقظت باكراً؟
- صباح الخير يا خالتي.

أحست سمر بحنين وشوق كبير لخالتها نهلة التي اعتادت مشاركتها حياتها الا أنها تبسمت في وجه خالتها أم سالم وسالتها:

- خالتي، ألم تحضري من العراق؟
- بلا.

- إذن ما الذي أسكنك المخيم؟
- نصيبي يا حبيبتي فنحن ولكبر حظنا ما إن وصلنا جسر الاحتلال، حتى وصلت أخبار الانتفاضة الثانية انتفاضة الأقصى، نحن آخر القادمين من الخارج، لم يدخل البلاد بعدنا أحد، قامت الإنتفاضة وعلى الفور أغلق الجنود الجسر ولم يتمموا معاملاتنا، علقت أوراق بعض الأشخاص في أيديهم، وقد أغلقوا النوافذ التي نراجعهم من خلالها وتركونا عالقين لا نعرف ما نفعل، كانت جدتك معنا وقد ارهقها السفر، وبدأت تهذي بالعودة إلى حيفا.تعقدت الأمور، ومضى الوقت ثقيلاً بين مراجعة على النوافذ المقفلة وجلوس في انتظار حل ما، بتنا ليلتنا على الجسر، أنا وزوجي وأولادي وجدتك، لم نكن نعرف أين الحمامات أو أين ننام، لولا أن عائلة من هذا المخيم كانوا معنا، جلسنا مع نساءهم وبتنا معهن على جهة من الجسر في حين بات الرجال في الناحية الأخرى ساهرين، وفي اليوم التالي عاد الجنود يفرغون الجسر ممن فيه وعاد الجسر ليمرر الباصات العالقة، ونحن لاندري ما العمل حتى قال أحدهم: أوراقنا جاهزة لم لا نغادر مع المغادرين في الباصات.
- تركنا الجسر كالمتسللين ولم يكن أحد ليدر بأن منع التجوال قد فرض في كل المناطق حتى أريحا، فبعد أن حملنا أمتعتنا وخرجنا من الجسر لم نجد اي سيارة لتأخذنا إلى نابلس للبحث عنك، الا أن عمران ابن هذا المخيم تسلل وعاد بسيارة كبيرة وغادرنا عبر طرق سماها بطرق التهريب، قطعنا مسافات طويلة عبر طرق التفافية حتى وصلنا إلى هنا، لم نجد بداً من المبيت لدى عائلة عمران، وبعدها استمرت الانتفاضة، وأنت تعرفين البقية فقد كنت معنا حين اشترينا بيت أحدهم وعلقنا هنا، وكان نصيب صفاء الاستشهاد على هذه الأرض.

تنهدت سمر وكأن ذكر ما كان يوقظ فيها بركاناً هامداً، فقالت الخالة:

- ستخبريني يوما كيف استشهدت صفاء. أليس كذلك؟

لم تجبها سمر واكتفت بالحملقة.

- لقد كنت معها، أنت آخر من رآها.

ظلت سمر على حملقتها، صور غريبة تراءت أمامها دون سابق إنذار، الخالة تتحدث عن الاجتياح دون ان تحس بما اجتاح سمر من ذكريات، كرسي متحرك التف بسرعة، يجلس عليهابن اربعة عشر عام وقد استعمله عوضا عن قدميه العاجزتين، يرفع الراية البيضاء ينظر مذعوراً إلى الدبابة المتقدمة نحوه بسرعة محمومة. انتفضت سمر مرتعبة وصاحت

لقد داسته، عجنته مع تراب الارض هو وكرسيه

عرفت الخالة أن عليها تغيير الموضوع، فتظاهرت بأنها لم تنتبه لما قالته سمر وقالت:

- حسنا ماذا سناكل على الافطار؟

ترددت سمر بالاجابة قليلاً فقد كانت تتساءل إن كان ما رأته حقيقة أم محض خيال؟ أعادت الخالة السؤال، ولسمر تحدق بها ببلاهة كأنها قي عالم اخر.

قالت ام سالم تريد استدراجها لحديث جديد

- آه يا عزيزتي، لا وقت لدي اليوم للراحة، فغداً سننطلق إلى المستشفى مع أول النهار وعلي أن أترك كل شيء في المنزل مرتب ونظيف، وأن أطبخ بعض الأصناف وأتركها في البراد لعمك.

ردت سمر بفتور:

-نعم وانا سأساعدك.

أنهت أم سالم تحضير الطعام كما رغبت ووضعته في الثلاجة ثم أتمت تنظيف المطبخ في حين أتمت سمر تطبيق الغسيل وكي قمصان العم "زوج

الخالة" وبناطيله حتى إذا ما أصبح كل شيء جاهز قالت أم سالم:

- الآن أستطيع ترك البيت بقلب مطمئن، لن يضطر أحد لعمل شيء لأجلي أو لأجله.

هزت سمر رأسها موافقة في حين كان صوت رأسها يعترض قائلاً:

- لازلت تفكرين في الآخرين.

تابعت ام سالم:

- سنخرج غداً في الساعة السادسة صباحاً.
- أليس باكراً؟
- نعم، فالطريق حتى حاجز قلنديا يطول ونحتاج إلى ساعتين تقريباً حتى نصله، وبعد ذلك سينتظرنا في الجانب الآخر صديق عمك في سيارته وسينقلنا إلى المستشفى مباشرة.
- هل سيصاحبنا عمي أبو سالم؟
- طبعاً، عليه توقيع بعض الأوراق هناك، ودفع بعض المال أيضاً، ولكنه لن يبقى معنا الأيام الأربعة، فقد استنفذ أيام إجازته في العمل.
- إذن، علينا الذهاب للنوم باكراً هذه الليلة.
- أنا شخصياً سانتظر ابنتي وفاء، فلا بد أن شاغلاً مهما قد منعها من زيارتي اليوم، ولا أعتقد أنني سأغادر دون أن أراها.

صمتت أم سالم قليلاً، ولكنها عادت ونظرت إلى سمر وقالت:

- ثم لا بد وأنها تريد رؤيتك أيضاً، فمن يدري ربما نوصلك إلى منزلك في طريق العودة ولا تعود نراك.

حكت سمر رأسها، وكأن كلام أم سالم أنار فيه تساؤلات كثيرة، هل أنهيت زيارتي للمخيم، هل سأغادره صباحاً ولن أعود، هل انتهت تلك الأصوات القادمة من الزوايا الصامتة في المخيم، وتلك الذكريات المتدفقة من همسات

سكون ليله. ربما علي ترك المخيم هذه المرة نهائيا، سألقي بكل الأثقال التي رماها زمن الاجتياح على أكتافي منذ سنين، سأودع هنا كل ذكرياتي، وسأتركه معهم...، ربما علي تركه بعد كل سنين البحث، أودعه رغم استحالة الامر، علي المحاولة، علي ترك ما للمخيم في المخيم، ربما كلمة وداعا اصبحت الانسب الان يا وليد

مع أول ساعات النهار من اليوم التالي، كانت سمر تودع المخيم من جديد، وتغادر إلى القدس مع الخالة وقد تبدد أملها في رؤية وليد.

كانت ساعتان مرهقتان،جرت بهما السيارة من مخيم جنين حتى وصلت نقطة الحاجز بين رام الله والقدس. فتحت سمر باب السيارة وخرجت نحو الطريق تتلفت حولها وتتساءل:

- اهذا هو «المحسوم» الحاجز الامني الذي اخترعوه بحجة امنهم؟

تضاحكت أم سالم وقالت:

- لنتبع عمك، فأنا أيضاً أعبره لأول مرة.
- تلفت العم خلفه بعد ان ابتعد بضع خطوات ثم تساءل:
- أين أزمة المرور؟ أين ازدحام الناس؟ ما هو اليوم؟
- الأربعاء، الثامن من حزيران يا خال.
- زم أبو سالم شفتيه وعقد جبينه وقال:
- لعله أحد أعياد اليهود، فأنا لا أرى أناس كثر هنا، هيا اتبعاني.

مشى أبو سالم في ساحة صغيرة، تنتهي بعده ممرات حديدية تحت سقف واحد، ممرات ضيقة من القضبان، كلها أعدت لتنظيم صفوف المتزاحمين على دخول القدس، توجه أبو سالم نحو أحد تلك المداخل، وكان ينتهي بباب ليس سوى بضع قضبان حديدية على عرض مدخله تتسع لشخص واحد تدور به وتعزله عمن يليه، وبالتالي يدخل شخص واحد في كل مرة الا أن منظر الباب

بعث الضحك في نفس أم سالم وهي تقول:

- إنه فعلاً كما وصفوه يشبه «معاطة الدجاج» كنا فيما مضى حين نشتري الدجاج يذبحونه لنا ثم ينتفوه من الريش بآلة تشبه تماماً هذا الباب، تدور بسرعة وتضرب الريش فتطير عن الدجاجة بسهولة.

تبسمت سمر وهي تنظر وتتساءل:

- ماذا بعد، ماذا ننتظر هنا أمام المعاطة؟

دقائق قليلة ثم انتبهت إلى صوت غريب، كأنه صوت آلة حديدة كبيرة بدأت بالتحرك، وبالفعل بدأت المعاطة بالدوران وبدأ الناس يأخذون مواقعهم منها واحداً تلو الآخر، ولكن ما إن دخل ثلاث أشخاص للمرحلة التالية من الحاجز حتى توقفت، وعاد الناس للإنتظار مرة أخرى، دقائق لم تعرف سمر عددها ولكنها كانت ثقيلة وكئيبة، قبل أن تدور المعاطة مرة أخرى وتمرر ثلاث أشخاص آخرين. قال أبو سالم وهو يمرر شاب قبله:

- حسب هذا النظام علي تمريره لنبقى نحن الثلاثة معاً، فأوراقنا معك يا أم سالم أليس كذلك؟

انحنت أم سالم تخرج البطاقات الشخصية وتصاريح المرور من جيب الحقيبة، في حين بدأ شاب في آخر الصف يصيح عليها:

- أنت، امشي، إنك تعيقين المرور، ماهذا..

هم أبو سالم أن يرد عليه، لولا أن أم سالم مدت يدها إليه بالأوراق وقالت:

- إن وقوفه على الحاجز يجعله عصبياً، فلا تكن مثله.

عادت المعاطة لتدور وتمرر ثلاث آخرين، فوصل أبو سالم إلى تلك البوابة المستفزة واتكأ عليها، حاول دفعها ليمر بعد الثلاثة الذين سبقوه، ولكنه وجدها قد أوقفت بشكل آلي لا يمكن معه دفعها للأمام على الإطلاق، فقال لزوجته:

- عندما تسمعين صوت الآلة سأكون قد مشيت مع هذه القضبان، اتبعيني، وسمر أيضاً ستكون خلفنا وهكذا سنكون ثلاثتنا معاً.

نظرت أم سالم نحو سمر، فوجدتها تهز رأسها إشارة منها أنها سمعت وفهمت. أتي صوت الآلة كأنه يعلن بدء الدوران، ومر أبو سالم، وكذلك فعلت زوجته وسمر، ليجدوا أنفسهم أمام معاطة أخرى عليهم أيضاً انتظار أوامر الجنود حتر يمرون منها، بدأت أم سالم تتأفف وأخذت سمر تتأمل تلك الممرات الحديدية التي تشبه السجون، وتلك الكاميرات الموزعة هنا وهناك، والأضواء الخضراء والحمراء التي لا تعرف لها معنى، كل هذه الإحتياطات لأجل سلامة الجندي الإسرائيلي، أما نحن فلا سلامة لنا ولا أمن. ماذا نفعل نحن هنا؟ تصاريح وبطاقات، لم لا يطلبون جوازات السفر ويختمونها فلم يتبق سوى هذا حتى نصبح زوار وسواح في القدس، إنهم يرغمونا على معاملتهم كدولة شرعية، وعلينا احترام قوانينها التي فرضتها لتفصل بين الحق وأصحابه، من كان ليتصور أنه سيأتي عليه يوم يلزمه استخراج تصريح خاص لزيارة القدس.

ابتلعت سمر ريقها وهي تقول تلك الكلمات في نفسها، وكأنها تخاف أن تظهر حقيقة امتعاضها من الموقف، فيحلو لأحد الجنود رفض إدخالها.

انطلق الصوت مرة أخرى ودارت المعاطة، ودخل أبو سالم وتبعته زوجته وتبعتها سمر إلى حيز ضيق فيه ماكينة كبيرة، أمرهم الجنود من خلف الزجاج بوضع حقائبهم فيها، حمل أبو سالم الحقائب ورفعها إلى الماكينة ثم اتجه نحو الغرفة الزجاجية التي يجلس فيها الجنود، ماكينة تفتيش الحقائب همست سمر مستنكرة:

- وغرفة زجاجية مغلقة للجنود أيضاً.

فتح الخال بطاقته الشخصية وتصريح مروره، وألصقهما بكلتا يديه على

الزجاج،لينظر فيها الجندي الجالس في المقابل، ويتأكد بدوره من المعلومات عبر الكمبيوتر. كانت سمر لا تدري إن كان يليق أن تبتسم أو أن تعقد جبينها حينها، فالمشاعر التي اجتاحتها كانت متضاربة، فهي لم تستشعر المهانة بقدر ما استشعرت سخافة الموقف، الخائف هو الذي يحكم، ياللمهزلة. فتحت سمر هويتها وتصريح مرورها بدورها وألصقتهما بالزجاج ونظرت إلى الجنود الذين يتبادلون الحديث والإبتسامات، ولا ينتبهون إلى وقوفها. لوهلة همت سمر بنقر الزجاج أو رفع صوتها، ولكنها عدلت عن ذلك.

قررت سمر الوقوف صامتة، ولأول مرة عرفت أن للصمت ألم، ولإبتلاع الكلمات مرارة، ومع ذلك أطبقت على صمتها لدقائق بدت لها كالساعات، حتى التفت الجندي في النهاية نحو أوراقها ونقر المعلومات على الكمبيوتر ثم قال:

- «صاع».

عرفت سمر انه يريد منها الذهاب عبر معاطة اوتومتيكية أخرى، فحملت أوراقها ومضت خلف عمها وزوجته المنتظران هناك، ممر قصير وانتهى الأمر، خرج ثلاثتهم إلى الطريق، ولكن من خلال معاطة أخيرة لا تقفل أوتوماتيكياً وإنما تدور باستمرار كلما دفعها أحدهم. قال أبو سالم:

- الآن أتصل بصديقي وأرى أين وصل.

لم تدر سمر ولا خالتها في أي اتجاه تمشي، فقد وجدتا نفسيهما أمام طرق متفرعة، وجزر في منتصف الطريق وغرفة زجاجية أخرى بحجم غرفة الهاتف العمومي فيها جنديان لا تعرف طبيعة عملهما ولكنهما مدججان بالسلاح، قال العم وهو يشير لهما:

- تعالا، لقد طلبا مني الابتعاد والإنتظار عند تلك الجزيرة.

سارت كلتاهما خلف أبي سالم بعجلة، وما إن وصلتا الجزيرة، حتى أقبلت

سيارة ووقفت قربهم بهدوء، ثم أطل من نافذتها رأس أبي مروان صديق أبي سالم وقال:

- صباح الخير، اركبوا، تفضلوا.

فتح أبو سالم باب السيارة وجلس قرب السائق، في حين جلست سمر وخالتها في الخلف، وبدأ الحديث في السيارة عن الأحوال والصحة وعن سلامة أم سالم، ثم عم الصمت لفترة، فقال أبو سالم:

- ماذا هناك، الحاجز ليس كعادته اليوم، حتى الطرقات تكاد تكون فارغة.
- أجل، اليوم يصادف أحد أعيادهم، لا أدري ايهم تماماً.
- إذن هي عطلة.
- نعم.
- هذه صدفة جيدة، والا لكنا علقنا على الحاجز في الزحام لمدة طويلة، هل هذه طريق القدس ذاتها، أشعر وكاني أراها لأول مرة.
- لقد قسم السور الطرقات يا أبا سالم، وفتحت الحكومة الإسرائيلية طرق كثيرة جديدة، منها طرق لليهود فقط ومنها طرق للعرب.
- إذن هناك طرق يمنع فيها اليهود من المرور للعرب فقط.
- بالطبع لا، ولكن هناك طرق لليهود فقط يمنع العرب من دخولها.

ضحك الرجلان وكأن فكاهة قد ألقت، في حين ظلت عيون سمر تلاحق ذاك السور الضخم المرتفع بغطرسة وسط الطريق.

- بدأ السور يبتعد وبدأت الطرقات تتسع وعيون سمر تتساءل بصمت:
- هل هذه هي القدس؟ هل أنا الآن في قلب المدينة التي يتنازع على سيادتها العالم منذ... لنر... ربما منذ بدئ الخليقة حتى الآن؟

رفع أبو مروان صوت المذياع وقال لصديقه:

- استمع، استمع إلى هذه الأخبار، الرئيس الأمريكي يؤكد على التزام أمريكا بأمن إسرائيل ويؤكد على حقها بالوجود.

- نعم، إنهم يقولون ذلك بمناسبة ودون مناسبة.

مد أبو سالم يده نحو المذياع وأدار المحطة وقال:

- الأفضل أن نبحث عن محطة أخرى، فأنا أكره الأخبار إنها تثير جنوني.

قالت أم سالم وقد أرادت تغيير الموضوع:

- أليست هذه هي الطريق المؤدية إلى الجامعة العبرية؟

قال أبو مروان:

- الجامعة العبرية قريبة من هذا التقاطع، ولكننا سنمر من طريق آخر، إننا هنا في وادي الجوز، أترون تلك البناية هناك، لقد كانت في الأصل مبناً للمدرسة المأمونية بنوها من التبرعات والدعم المقدم للمدرسة ولكن السلطات الإسرائيلية منعتهم من إتمام البناء، وصادرتها منهم، والآن هي مبناً لوزارة الداخلية الإسرائيلية وأمامنا مبناً كان زمن الحرب معتقل لاستجواب السجناء، ولما تركته السلطة الإسرائيلية طالب به صاحبه الأصلي،وأراد تحويله إلى متحف للتراث الفلسطيني ولكن السلطات رفضت الأمر، والمبنى الآن بين قرارين إما الهدم أو الإغلاق.

نظرت سمر هنا وهناك حيث أشار السائق، ولكنها لم تميز شيئاً فالمنازل جميعها شاهقة وجميلة في تلك المنطقة والأشجار الخضراء مترامية على مد الأنظار، تنهدت وقالت:

- كم هي جميلة بلادنا. كيف يتأمل العالم منا نسيان هذه البلاد، وكلما اجتمع اثنان فيها كانت موضوعهم المفضل.

سارت السيارة مسافة أخرى بصمت، حتى قال السائق وهو يدخل أحد المفارق:

- هذا شارع الزيتون، فتحوه خصيصاً لنا نحن العرب لنمر إلى مستشفى المطلع.

ثم نظر إلى أبي سالم وقال:

- طبعاً ليس لنا وحدنا.

تضاحك أبو سالم في حين ظلت سمر تتغنى بصمت بجمال تلك الجبال وذاك الخضار الذي يلون الأفق. حتى أشار أبو مروان إلى نافذة أبو سالم وقال:

- بإمكانكم رؤية قبة الصخرة بوضوح من هنا الآن، إن المسجد على بعد مسافة قليلة من هنا.

التفت الجميع حيث أشار أبو مروان، فتسربت البهجة إلى صدورهم وهم يرون قبة الصخرة المشرفة تطل عليهم بوضوح، وبحجم لم يتوقعوه.

- إننا فعلاً بالقرب من المسجد الأقصى.

قالت أم سالم باستغراب، فقال أبو مروان:

- هل أتوقف؟

أجابه أبو سالم:

- لا، علينا الوصول إلى مستشفى المطلع، وإنهاء معاملة دخول أم سالم قبل كل شيء.

غابت قبة الصخرة عن العيون، وقبل أن تلتفت سمر للأمام وهي تحاول رؤيتها من جديد، كان أبومروان يخفف السرعة ويقول:

- لقد وصلنا هذه الأمتار الأخيرة، وهذا هو مستشفى المطلع.

تلفتت سمر لترى بوابة كبيرة ضخمة على جانبها بناء كأنه برج مراقبة للجنود، مرت السيارة من البوابة في شارع خاص للمستشفى، على يمينه بستان بأشجار شامخة تعلن قدم عمرها بفخر، وزهور في أحواض هنا وهناك تظهر حداثه عمرها على استحياء، وعلى يساره موقف متواضع للسيارات، في حين تربع أمامه بكبرياء بناء كبير على مساحة واسعة، بدا واضحاً للناظر أنه بناء قديم أثري، تعجبت سمر وهي ترى ذاك البناء الذي يشبه بتلك الأكواخ

على قمته كنيسة رومانية قديمة.

- هل هذا مستشفى؟

قال أبو مروان وقد تدارك استغرابها:

- أجل، لقد كان بالأصل قصر للملكة فكتوريا، ألم تعرفي ذلك؟
- لا.
- سترين في داخله أشياء جميلة كثيرة.

توقفت السيارة أمام درجات كثيرة وكبيرة متسعة، تبسمت سمر وقالت:

- نعم، إنها أدراج قصر.

قال أبو سالم.

- أدخلا من هذا المدخل، وأنا سألحق بكما بالحقائب.

خرجت سمر وأم سالم من السيارة، وتوجهتا إلى باب خشبي ضخم لم تر سمر مثله الا في الأفلام القديمة، كان الهواء يدفع دفته ويغلقها بوجههم، الا أن رجلاً أتي بمنفضدة سجائر كبيرة بارتفاع نصف متر تقريبا خاصة بالمستشفى ووضعها أمام الردفة لإبقاء الباب مفتوحاً أمام الناس في تلك الساعات الصباحية المكتظة بالزوار.

نظرت سمر إلى ذاك الزجاج المرتفع فوق المكاتب كما لو أنها تقفامام موظفي الايداع في أحد البنوك، قالت لخالتها:

- لنجلس هناك، على تلك المقاعد مقابل هذا المكتب حتى يصل العم.

جلست الإثنتان و كل منها كانت تحمل هماً مختلفاً، فأم سالم كانت تفكر بالأوراق والفحوصات السابقة وكيف أنها من المؤكد لم تنس أحدها هنا أو هناك، والآن بعد أن تستلم الحقيبة من زوجها،عليها أن تظهر أمامه بمظهر الزوجة المسؤولة، التي نظمت أوراقها جيداً ولم تضيع شيئاً ولن تحرجه أبداً

مع الموظفين، او ربما لن تحرج نفسها بما قد يصدر منه من شجارات

أما سمر، فقد كانت تفكر بتلك البلاطات السوداء والبيضاء التي تكسو الأرض تحت أقدامها، وذاك اللمعان الذي يكسو كل شيء في المستشفى وكأن يداً سحرية مرت عليه فجعلته بتلك النظافة الفائقة، الزجاج والجدران والأرض والمقاعد والمداخل، كل شيء ينبئ بأنها لن تندم على قدومها إلى هذا المستشفى مع خالتها. ليت مصطفى هنا ليرى كل ذلك.

مرت قرابة النصف ساعة قبل أن يتم أبو سالم إنهاء المعاملة لزوجته بين توقيع على الأوراق ودفع للنقود حتى قال له أحد الشبان خلف الزجاج:

- الآن كل معاملاتك اكتملت، اذهب إلى الأمام حيث عيادة الطبيب الذي سيجري الفحص الأولي لزوجتك.

حملت سمر حقيبتها ودخلت خلف خالتها في ممر بدى بوضوح أنهم اضطروا لتغيير بلاطه القديم ببلاط جديد وعادت لتهبط على أحد المقاعد وتتامل بتلك الممرات الطويلة الممتدة في كل اتجاه.

كان العم يتنقل بين أبواب العيادات وشبابيك التسجيل بين الحين والآخر، وسمر تتجول خلفه بعيونها وتتساءل:

- كيف سأعرف بأي اتجاه أذهب إذا تركني العم مع زوجته؟

تبسمت أم سالم وقالت:

- جاء دوري، تعالي معي إلى العيادة.

قامت سمر خلف خالتها ودخلت غرفة صغيرة جدا، مكتب الطبيب فيها خلف الباب مباشرة، وكرسي المريض يطل من الباب على الممر، بقيت سمر واقفة، في حين بدأ الطبيب ينظر في أوراق الخالة ويسألها بعض الأسئلة ويملأ أوراق أخرى، أوشكت سمر أن تسأله:

- ما هذه غرفة كاملة؟ هل أنتم اقتطعتموها بهذا الشكل أم أنه حجمها الطبيعي؟ إنها ليست غرف قصر كما تخيلتها.

نهض الطبيب وفتح باب آخر بجانبه، وأدخل أم سالم إلى غرفة فيها سريران لفحص المرضى مع أجهزة خاصة، الهواء يومها في مستشفى المطلع كان قوياً بارداً عذباً، يلاطم الستائر الفاصلة بين الأسرة ويداعب وجوههم بلطف.

تمددت الخالة على السرير بعد أن طلب منها الطبيب كشف بطنها، استدارت سمر تريد الخروج ولكن الطبيب ناداها، وطلب منها الإمساك بطرف الستارة حتى لا يكشف الهواء أم سالم، وقفت سمر تنظر وكشفت أم سالم بطنها و لأول مرة وقعت عيون سمر على منظر ذاك الفتق البشع في سرتها، وخيل لها وكان كرة صغيرة قد استقرت تحت جلد خالهتا، كرة زرقاء وبوادر كرة أخرى على الجانب الأيمن من أسفل بطنها، وقد تراءت لها صورة أبو سالم يركل خالتها بقسوة قال الطبيب مستغرباً:

- ماهذا؟ الا تعرفين أن الأمعاء إذا حشرت في الفتق سببت لك الغرغرينا، وقد تضطرين بعدها لعملية صعبة لاستئصال ذاك الجزء من أمعاءك.

بقيت أم سالم على صمتها في حين أكمل الطبيب:

- حسناً، لم انتظرت كل تلك المدة لتأتي إلينا؟
- الحقيقة، لم أكن أشعر بأي ألم حتى الآن.
- إن الله يحبك، إن فتقك كبير وخطر على أي حال لقد جهزت أوراقك، ولم يتبق سوى أن تنتظري في الخارج ساعة او ساعتان حتى يفرغ أحد الأسرة ونحجزه لك.

نظرت أم سالم إلى سمر ولكن سمر أدارت نظرات الحزن والأسف على حال خالتها بسرعة وتبسمت وقالت:

- سنخرج إلى البستان.

قال الطبيب مستحسناً الرأي:

- هذا أفضل، وبين الحين والآخر، يمكنكما سؤالي عن السرير، وأنا سأعلمكم برقم الغرفة حين تتوفر.

ولأول مرة أحست سمر بأنها تريد مد يدها وإمساك يد خالتها وهما تخرجان من العيادة، وأحست أن عليها أن تقول لها شيئاً، فوقفت أمامها وأخذت شهيقاً قوياً ثم قالت:

- حسناً أيتها الغالية، سيكون كل شيء على ما يرام، فأنا هنا لأجلك.

شدت أم سالم يدها على يد سمر، ثم دفعت بالحقيبة الى سمر متضاحكة وقالت:

- شكراً لك، إن عمك ليس هنا، لنجده ولنجلس معه في البستان.

كان العم قد خرج ليشعل سيجارة في انتظار خروج زوجته من عيادة الطبيب، ثم جلس على كرسي أمام المدخل ينظر حوله، لعله يجد مكاناً يبتاع منه شطيرة أو حتى زجاجة ماء.

خرجت سمر وأم سالم كل تحمل حقيبتها، لتجداه لا يزال ينظر هنا وهناك، فقالت أم سالم:

- إن عمك ينظر للنساء الأجنبيات الوافدات إلى المستشفى.

رفعت سمر عينيها ونظرت، إنه وفد كبير من السواح يدخل إلى شارع المطلع.

- ماذا هناك؟ لم يتوافد كل هؤلاء إلى هنا؟

لم تجبها أم سالم ولكن عيونها وعقلها كانا يطاردان نظرات أبي سالم حتى نزلت الدرجات وقطعت عرض الشارع نحوه وسألته:

- لم أنت هنا؟ ماذا تفعل؟

نظر إليها أبو سالم وكأنما لم يعجبه ما قالت ثم اجاب ببرود:

- جدا لنفسيكما مكاناً تجلسان به، حتى أرى ما سأحضره للإفطار.
- شدت سمر حقيبتها عن الأرض وقالت وهي تسحب خالتها برفق:
- هناك طاولة فارغة، هيا بنا.
- لحقت أم سالم بسمر على مضض، حتى وصلتا الطاولة ثم قالت:
- إن الشمس شديدة الحر هنا، الا يوجد طاولة تحت الأشجار؟ لنبقى مع عمك.
- كل الطاولات مشغولة كما ترين، فلنجلس قبل أن يسبقنا إليها أحد. أيعقل أن تكوني في غيرة عليه من هؤلاء السائحات؟
- لا، لكن..
- تلفتت أم سالم حولها كأن الأمر لم يعجبها وأكملت:
- ولكن الطاولة قريبة جداً من الشارع، أنظري كيف ينظر إلينا هذا الرجل.
- من..؟ هذا؟ أعتقد أنه أحد حراس المستشفى، إنه يعمل هنا.
- لا، إنه يتحدث العبرية، إنه اسرائيلي.

هبطت سمر على الكرسي الخشبي المضروب بالحديد والمثبت في الأرض بقوة وقالت:

- ربما.. إنه يتحدث إلى السواح القادمين، ويرشدهم للمدخل.
- أجل، لقد تذكرت.
- هبطت أم سالم على المقعد المقابل لسمر وقالت:
- إنه أحد أعيادهم، ولا بد أن يكون هنا شيء ما يخص عيدهم

تتابعت الوفود الأجنبية إلى المبنى، وكلهم توجهوا إلى مدخل آخر يتلو مدخل المستشفى، ورجل الأمن لا يجد فرصة لمسح صلعته من العرق المنصب حتى عيونه بسبب الحر الشديد، الهواء هناك أصبح ساخناً، وهو لا يزال يشير على سائقي السيارات التوجه من هنا أو هناك وعلى المشاة في ذلك

المدخل حتى صاح فجاة برجل يمشي خلفه مشية بطيئة وبلهجة أهل القرى:

- هيا يا رجل، شربة ماء، قلت لك أن تجلبها باردة، هل فعلت؟

مد الرجل الزجاجة نحوه بصمت وغادر كأنما لم يعد يقوى على الحديث، شرب الحارس شربة سريعة وعاد ليتحدث إلى السائقين من النوافذ باللغة العبرية ويشير ألى هناوهناك. تضاحكت سمر وقالت:

- إنه عربي.. من قرانا.. وكدت أجزم بأنه اسرائيلي.

لم تبتسم أم سالم ولم تعر كلامها أهمية وهي تجول بعيونها هنا وهناك بحثاً عن أبي سالم

ظلت أم سالم في قلقها حتى ظهر أبو سالم وفي يده كيس عرفت أن فيه بعض الشطائر،

مد أبو سالم الكيس وقال:

- واخيرا وجدت بقالة

وقبل أن تقضم أم سالم أول قضمة وقفت إحدى الزائرات أمام أبو سالم وسألته بالعبرية إن كان يستطيع التحدث إليها بتلك اللغة، فأجابها بالإيجاب، وفجأة بدأت تسأله وبدأ يجيبها وأم سالم تنظر إليهما بغيظ حتى تقدم الحارس منها وبكلمتين منه وإشارة نحو المدخل المخصص، انتهت تلك المحادثة الغريبة، فأسرعت أم سالم تسأل:

- ماذا كانت تريد؟ ماذا قالت؟
- تسأل عن مدخل الكنيسة، هناك قداس ما، لا أدري ما يسمونه هنا، إنه أحد أعيادهم.

حمل ابو سالم شطيرته ونهض عن الكرسي وقال:

- أفكر بأن أستغل التصريح وأذهب للصلاة في الأقصى، و إذا لم تكوني بحاجتي، سأعود للمخيم وأحضر في الغد لأكون معك عند موعد العملية، ما رأيك؟
- اعتقد اني لن احتاج شيئا بعد صعودي الى غرفتي

حمل أبو سالم هاتفه النقال عن الطاولة ومسح فيه على استعجال وقال:

- انا ذاهب اذن

وانصرف إلى حال سبيله تاركاً زوجته مع سمر تنظر إحداهما إلى الأخرى بين قضمة شطيرة ورشفة عصير

الفصل الرابع

تمر ببالي، فكأنما كنت بعالم الناس غريبة، لا أنتمي إليه، والتقيتك، فتستكين نفسي، وتنشغل عيوني في تأمل تفاصيلك، فأنا لم أقل لك يوما كم أحب مراقبتك وأنت تتشاغل عني بأي شيء سواي، ولم أخبرك أبداً عن عشقي لابتسامتك الغريبة تلك، الابتسامة التي تبدؤها على طرف واحد من وجهك ثم تنشرها كضوء النهار على صفحته.

تمر ببالي، فتعود رائحة اللوز والصنوبر لتتسلل من مخادعها السرية المتوارية في أحضان أشجار مدينتنا، أحضان جبال نابلس، هذه المدينة التي لطالما عشقناها، ولطالما أنحنينا إكباراً للماردين القديمين القائمين على أحتضانها دون ملل أو كلل، جرزيم وعيبال حارسي الحب على أبوابها.

تتغير تفاصيل الكرة الأرضية حين أذكرك، وأحس بها تستدير حول شمس أخرى تلفني بدفء حنون وتتركني طفلة صغيرة تركض خلفك متشوقة لرؤية أعشاش العصافير.

أعجز عن فهم تلك المعادلة، ولكن حياتي دونك تفتقر للحياة.

لا أنفك أذكرك..حتى خيل لي أنني أصبحت عجوزاً ربما بلغت المئة عام، ولم أعد أعرف من الدنيا حقيقة من وهم، يحملني أحفادي على كرسي إلى منطقة مشمسة، خوفاً من تعفني، ابتسم فجأة فيتساءلون، "لم تبتسم هذه الخرفة؟ ما

الذي يبهجها؟" ولن يعرفوا أبداً أنك مررت ببالي.

لملمت سمر الورق والزجاجات المتبقية من أكلهما وألقت بها في سلة المهملات، لم تسمع شيئاً مما كانت تقوله خالتها، ولم تأبه لأي دعابة كانت تلقيها، وإنما حملت حقيبتها، ولحقت بالخالة العائدة للمستشفى وعلامات الإستفهام لا تزال ترتسم على وجهها، مع ابتسامة بلهاء تحاول مداراتها عن الأنظار، دخلت أم سالم إلى الطبيب وعرفت منه رقم الغرفة وخرجت وسمر لا تزال تلحق بها فقالت:

- الطابق الثاني، غرفة رقم سته.
- حسناً.
- لنصعد بالمصعد الكهربائي.
- حسناً.

توجهت كلتاهما إلى المصعد، وحين ضغطت أم سالم الزر أغلق الباب ليفتح بعد دقائق على لافتة كبيرة كتب عليها «قسم العمليات الجراحية»، تسمرت عيون أم سالم باللافتة، في حين نظرت سمر في الممرات المتسعة يمنة ويسرة وقالت:

- ها هي الغرفة رقم ستة.

نظرت أم سالم في الممر، لتجد أبواب الغرف مفتحة وكل باب عليه رقم بلون كحلي كبير واضح،وكأن كل شيء يقول لها «لا مجال للتراجع» وبدا رقم ستة واضحاً جليا لعينيها، فتوجهت نحوه ودخلت.

كان في الغرفة سريران فارغان، بينهما ستارة ملونة بألوان باردة تميل إلى الخضرة. نظرت سمر في السرير الأول وقالت:

- يبدو أن المريض غادر قبل دقائق، فهو لا يزال غير مرتب.

ثم دخلت نحو السرير الآخر وقالت:

- حسناً هنا أفضل.

تفحصت أم سالم الغرفة، وهمهمت كأنما تعزي نفسها وهي تجلس على طرف السرير:

- حسناً، يبدو أننا سنقضي أربعة أيام في هذا الفندق الفاخر، ليتني أعرف من ينظف كل هذا الزجاج على جانبي الممرات الطويلة لأشكره على جهده.

لم تعلق سمر وإنما بحثت حولها عن كرسي لتجلس عليه، وكم كانت سعيدة حين وجدت فرشة زمبركية مسندة إلى الحائط، أنزلتها ورمت بنفسها عليها وقالت:

- أعتقد أني سأكتب بحثي حول هذا المستشفى أريد أن أعرف وأصور كل شيء عنه.
- ماذا لو ننام، إننا مستيقظتان منذ الفجر.
- حسناً، إنها الثانية عشر ظهراً، لم لا ننتظر نصف ساعة آخر ثم نصلي الظهر وبعدها ننام.
- ليكن.

ما إن قالت الخالة كلمتها حتى قرعت أجراس مرتفعة الصوت في كل أرجاء المستشفى.

- ماهذا.
- أجراس الكنيسة يا عزيزتي، لقد بدأ الاحتفال على ما أعتقد.

ظلت الأجراس تقرع لمدة ليست بقليلة قبل أن تتوقف في حين تسلل صوت القرآن من المسجد بسلاسة إلى الآذان ينبه القلوب للصلاة.

كانت محاولات النوم في ذاك اليوم فاشلة، فهناك امرأة أخرى قد أتت إلى السرير الآخر بعد أن مرت ممرضة وغيرت أغطيته، وهناك مرافقة أخرى

تبحث عن كرسي هنا وهناك، وممرضات أتين ليتأكدن من وجود أم سالم وأخذ قياسات الضغط والحرارة والنبض وما إلى ذلك، حتى قالت إحداهن:

- سيقدم العشاء بين الخامسة والسادسة، بإمكانك أن تأكلي حتى الساعة الثانية عشرة، ثم عليك بالصيام لأجل العملية.

نظرت أم سالم لسمر وقالت:

- إذا كان الأمر كذلك فلم لا نخرج لشراء كوب من القهوة، إني لم أتذوقها اليوم، ثم إني لا أحب أكل المستشفى.
- حسناً، ليكن.

نزلت أم سالم عن السرير ووضبت شعرها من جديد في منديلها وارتدت «جاكيت» متوسط الطول فوق بنطالها وهمت بالخروج، ولكن أحدهم دخل الغرفة وأجراس الكنيسة عادت لتدق من جديد قبل أذان العصر. نظرت أم سالم إلى الرجل، شيء ما جعلها تتردد في الخروج في حين نظر الرجل إليها بتأمل وصمت.

كان ممرض طويل القامة، أبيض البشرة، سمح المعالم، على عيونه نظارة رقيقة، وفي شعره الكستنائي بعض شيبات متفرقات. أشاح الرجل بنظره نحو المرأة الأخرى، ثم حمل اللائحة المعلقة على سريرها وسأل:

- أنت إلهام؟
- نعم.
- ستكون عملية لاستئصال الزائدة الدودية، أنت تعرفين ذلك؟
- نعم.
- حسناً.

تقدم الممرض بضع خطوات نحو سرير أم سالم وقد هبط على طرفه ثم قال:

- كيف حالك يا شادية؟

- الحمد لله، كيف حالك أنت؟

صمت المرض ولم يجب وهو يتأمل الأوراق ثم قال:

- فتق في البطن وآخر في الصرة، إنها عملية بسيطة إن شاء الله، كم ستمكثين معنا:
- أربعة أيام.

وقفت أم سالم وكأنها استكفت بذلك الحديث، وأرادت المغادرة فسألها:

- إلى أين؟
- سأبحث عن مكان لشراء القهوة.
- حسناً، انتظري هنا دقائق قليلة، سأعود بعدها وأدلكما على المكان.
- لا داعي لذلك، أقصد لا أريد إتعابك.

حملق المرض في أم سالم كالمعاتب، ثم غادر وهو يكرر:

- دقائق، إبقي هنا.

أدارت أم سالم وجهها بسرعة عن عيون المرأة المجاورة ومرافقتها، لتجد نفسها بمواجهة عيون سمر فقالت هامسة:

- إنه جارنا هشام، كان جارنا قبل أن يتزوج ويغادر المخيم، يريد المساعدة هل تذكريه؟
- وقبل أن تجيب جاء صوت المرض يقول:
- أنت لا تعرفين المنطقة هنا، دعيني اريك.
- خرجت أم سالم وسمر ومشتا معه فقال:
- حسناً، ماالذي فتق بطنك كل ذلك؟

لوهلة ظنت أم سالم أنه عرف بأمر ضرب زوجها أو شيء من هذا القبيل فسألته:

- وهل هناك سبب معين للفتق؟

- لا أدري، هناك أطفال يصابون به وهم حديثوا الولادة، أليس كذلك؟
- هذا ما أعنيه، إن السبب غير معروف على الأغلب.

كانت سمر تتمنى لو أنها تستطيع البوح بالسبب لأي شخص، حتى لو كان ممرض تعرفت إليه من قريب، ولكنها صمتت وهي تسمعه يسأل:

- هذه ابنتك وفاء؟
- لا، إنها سمر، ابنة أختي.
- أهلاً وسهلاً.

لم تكمل أم سالم حلقة التعارف فقال الممرض:

- أنا هشام كنت وأهلي جيران خالتك لأعوام.

خرج الثلاثة من المستشفى إلى الحديقة، و بدأت أم سالم تسأله عن أحواله وأحوال أمه وأخواته، وهو يجيب حتى قال:

- لم لا تجلسين وقريبتك على تلك المقاعد، وأنا سأجلب لكما القهوة بسرعة، إن الإستراحة المخصصة لبيع القهوة العربية خلف هذه الإستراحة الأجنبية. وأشار بيده نحو مبنىً صغيراً على بعد أمتار قليلة ثم أكمل:
- والسير مضر لك الآن.
- حسناً.

تغيب هشام خلف الأشجار، وبعد دقائق هبطت على الطاولة شطائر وعصائر وكوبين قهوة ساخنين، بدأ هشام يخرج المشتريات من الكيس مبتسماً يقدم بعضها لأم سالم والبعض الآخر لسمر، لكن سمر نهضت عن المقعد وقالت وهي تشير إلى طائر صغير تحت الطاولة المقابلة:

- إنه غراب عاجز عن الطيران سأمسك به.

وقبل أن تقوم إليه رن جرس النقال، إحساس دافئ قفز إلى صدرها، وقد

توقعت مصطفى على الطرف الآخر، لم تدر بم تفسر ارتباكها، ولكنها استأذنت وابتعدت قبل أن تقول:

- الو.
- مرحبا سمر.
- جاء صوت داليا ممتلأ بالمرارة.
- أهلاً داليا، كيف حالك؟
- صديقتي سمر،.....
- ماذا هناك؟ لقد اقلقتني.

ابتلعت داليا ريقها، وتنحنحت بطريقة أوضحت تراجعها عما كان، ثم قالت بصوت أكثر قوة:

- لا شيء مهم، فقط أردت أن تختاري لي موضوعاً للنقاش في الجامعة.
- ألم نتفق على آثار نابلس؟
- بلا ولكني أريد الحديث عن آثار غريبة في نابلس، شيء جديد.
- حسنا، لم لا تكتبن موضوعك عن تل بلاطة.

صمتت داليا، فظنت سمر أنها لم تفهم الأمر فقالت:

- «تل بلاطه «اسمها الاخر مدينة شكيم الكنعانية، بنيت قبل الميلاد بحوالي ثلاث الأف سنة.
- لا، لا أريد الحديث عنها، إنها موضوع معقد، أريد شيئاً آخر أرجوك.
- حسناً، هل أنت متأكدة أنك بخير؟

عادت داليا لصمتها، فأخذت سمر تعدد ببطء، وكأنها تنتظر بين الكلمة والأخرى أن تقاطعها داليا وتفصح عما يضايقها.

- ماذا عن المقبرة الرومانية الشرقية، أو ميدان سباق الخيل، المسرح في أعلى حارة العقبة في منطقة حي شكيكة في رأس العين، بئر يعقوب، سبسطية، داليا أربعين موقعاً أثريا وأنت تدعين الغباء.

صمتت داليا ولم تعرف بم تجيب، فقالت سمر بهدوء:

- لدي فكرة، أقترح عليك أن تتحدثي عن مكتبة بلدية نابلس، لن تحتاجي الا إلى التحدث مع إحدى المسؤولات هناك، عبير مثلاً ستروي لك تاريخ المكتبة بالكامل أو غادة ستأخذك بجولة مطولة في جميع الأقسام وبذلك، ستجدين لديك مادة كاملة، إنهن مطلعات جداً على تاريخها وأهميتها، كمبنى وحديقة ومكتبة وكل شيء.

ظلت داليا على صمتها، فأيقنت سمر أن هناك ما يزعجها، وعادت لتسأل:

- صديقتي داليا هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم، لا،أقصد هناك سؤال يجب أن اسأله لك.
- حسناً.
- علي أن أساله دون مقدمات، وعليك ان تجيبيني.
- حسناً.
- هل تحبين مصطفى؟

صمتت سمر ولم تدر ما عليها قوله، فقالت داليا بعد أن طال صمت سمر:

- كنت أعرف ذلك، ولكنك أنت التي رفضت الاعتراف طوال الوقت.

أغلقت داليا الهاتف تاركة سمر تفكر في كلماتها، أيعقل أن تكون كما قالت داليا، تحبه ولا تعترف كيف ذلك.

لقد عرفته بعد أن انتقلت بها خالتها من المخيم إلى نابلس، كان وليد كل همها، لم يكن مصطفى ليمر ببالها، أما وليد فقد كان سبب تعلقها بالقراءة، ولا زالت تذكر قولة حين أحس مللها من المكوث في منزل عمها كالسجينة طوال العطلة.

- لم تبقين في منزل عمك؟ عليك الخروج أحيانا الى مكتبة نابلس، تستطيعين استعارة أحد الكتب والجلوس تحت أشجارها في ذاك البستان الخلاب

وتقرأي حتى تتعبي ولن تملي.

- هل تفعل أنت ذلك؟
- بلا وربما أراك هناك ونتبادل الكتب.

ورغم ان الخالة نهلة وصلت وأخذتها إلى المخيم قبل أن تفعل ذلك، إلا أن كلمات وليد هي ما دفع بسمر إلى المكتبة، لم تكن تدري ما ستصنعه تماماً هناك، ولكنها كانت متأكدة بأنها لن تندم، وهناك تعرفت على مصطفى.

ظلت سمر تتردد على المكتبة، وكان أول كتاب طلبته يتحدث يتحدث عن القرى المحتلة حول القدس، وعن قرية المالحة بالتحديد قرية وليد.

كان مصطفى هناك كعادته، يقرأ وينظر إليها، إنها لا تمل الكتب، ولا تمل القراءة، تأتي باكراً وتغادر قبل الإغلاق بقليل فما حكايتها؟

وحين تجرأ وسالها أخبرته ان أمها في العمل، وأنها تفضل انتظارها بين الكتب، أعجب ذلك مصطفى وبدأ يفعل مثلها ويناقشها في كل ما تقرأ أو يقرأ.

حدثته عن صديقها وليد وعن فقدانه، فاستهجن ذلك، وتحداها أن يجده لها، وبدأت عملية البحث والسؤال في كل مكان، عامان من التحري الشاق على شاب في عامه الجامعي الأول وفتاة في صفها الحادي عشر، كيف تنسى؟ إنه كان صديقها المؤتمن، كاتم أسرارها وحافظ أخبارها، يوصلها حتى محل بدل العرائس قبل أن يمضي، يشتري لها الشطائر حين تفكر بالإفطار في بستان المكتبة، كبرت أمام عينيه، وكبر حبه واحترامه لها ولخالتها، التي كانت تريحه بنظرات القبول والثقة.

مرت على ذاكرة سمر تضاحكهما معا على بعض أبيات من شعر أبي نواس، وتباحثهما في شعر فدوى طوقان ابنة نابلس، والمرور في الأحياء القديمة

حيث لا يزال الناس يتفاخرون بأن آل طوقان سكنوها ذات مرة، وبأن كبار المسؤولين كانوا يجتمعون في مساكنها ذات زمن، تمر بالساكنين لتسألهم، فيتدفق الحديث على شفاههم عذباً نديا، يصورون الأيام الخوالي كما أمسيات الشام ويرسمون أشهر الاسلام "رمضان وشعبان و..." أعياداً كانت تزدهر في ثنايا أسواق كانت مليئة بالحياة، يتنهدون وهم يشيرون إلى مصابن نابلسية وكنعانية قد هدمها الإحتلال على أبواب الحارة الجنوبية، ويمرون بك من منازل قديمة لا زالوا يقومون على إصلاحها إن أمعنت في هندستها الأثرية الفريدة، تحس كما لو أنها تغمز لك بعينها وهي تكشف لك لومضة، عن خيال فرسان مروا، وأجداد عمروا، وظل دمشق يفرض وجوده على ذاك الوجود. تذكرت سمر بحثها المضني ومصطفى عن قبر الشاعر ابراهيم طوقان، الذي وللاسف لم يعرف مكانه أحد،سوى حارس المقبرة العجوز الذي قال وهو ينهض بتثاقل وإعياء:

- لو لم يكن قبر شاعر نابلس، ما قمت أدلكم.

نابلس، القديمة المتجددة، نابلس الأثرية المتحضرة، نابلس غادة فلسطينية، على رأسها برنس العراق، وفي ساقها خلاخيل مصر، تتحدث بدلال أهل لبنان وتتبختر في ثوب دمشقي، أما عطرها فمن مكة.

- كان اسمها دمشق الصغرى "قال مصطفى وهو يغلق الكتاب".
- من؟
- مدينتنا، نابلس.

حسنا، لقد كان مصطفى طوال الوقت موجوداً لأجلي، وكنت لا أستطيع التواجد دونه، لقد بت أرى ذلك الآن.

التفتت سمر إلى خالتها فجاة تريد سؤالها أمراً، ولكنها لمحت شخصا يغيب بسرعة خلف المبنى، قفز قلب سمر إلى حلقها، وقد كادت تقسم أنها رأت

وليد، يلتف حول المبنى ويختفي خلفه.

لاحظت أم سالم ارتباك سمر وسالتها:

- اهناك شيء
- لا.....ولكن.....
- أعتقد أني أرهقتك يا عزيزتي، لنعد للغرفة.

ثم التفتت إلى هشام، وشكرته على ضيافته وغادرت تحضن سمر التي اقتنعت أن إرهاقها تسبب بكل ذلك.

أحبت سمر حضن خالتها، وارتاحت إلى ذاك الحب الذي غمرتها به، ولم تشأ الإبتعاد،حتى دخلتا باب الغرفة فبادرتهما المرأة على السرير الأول سائلة:

- هل أنت شادية؟
- نعم.
- إن الأطباء قد بحثوا عنك وسألوا كثيراً، يريدونك في غرفتهم في آخر هذا الممر.
- حسناً.

أسرعت أم سالم إلى غرفة الأطباء وتبعتها سمر لتستطلعا الخبر، فقال لها الطبيب:

- أريد أن توقعي بعض الأوراق.
- لماذا؟
- أوراق تقول إنك موافقة على إجراء العملية وتعرفين أبعادها ومضاعفاتها، وبذلك تكونين مسؤولة عنها.
- وما المضاعفات؟

تضاحك أحد المرضين الجالسين في الغرفة وقال:

- إذا لم تستيقظي من التخدير، وإذا وجدنا أشياء أخرى في بطنك.

- ماذا؟
- إنه يمازحك، ليس لعمليتك أي مضاعفات خطرة، إنه إجراء روتيني.
- والتخدير؟
- التخدير له طبيبه الخاص وأوراقه الخاصة، سيمر عليك غداً قبل العملية.

وقعت أم سالم الأوراق وعادت إلى سريرها تفكر بما سمعت:

- أيعقل أن تكون هناك مضاعفات لا تعرفها، ماذا سيكون ضرب أبي سالم قد مزق أيضاً.

هبطت أم سالم على سريرها وبدأت تفك منديلها عن رأسها وهي سارحة الفكر، وسمر تنظر إليها ثم قالت:

- سأبدل ثيابي وأعود لأنام.
- وهذه الصينية ماذا أفعل بها؟

نظرت أم سالم بجانبها لتجد صينية طعام العشاء قد وضعت على السرير بغيابها مغلفة بالنايلون الشفاف وقد حملت اسمها فقالت:

- ضعيها على الطاولة بجانب الباب وسيأخذها المسؤول عن الطعام.

كان كل شيء يشجع على الإسترخاء والاستراحة، استعادت سمر بعض نشاطها وهي تحت المياه الساخنة، تغسل عنها إرهاق ذاك النهار بوضوء جديد.

وقبل ان تتخذ مقعدها من الفرشة الزمبركية، لمحت وجها يختبئ منها خلف باب الغرفة، انتبهت له سمر وانتظرت حتى اطل مرة اخرى، وما ان تلاقت عيناها بعيونه حتى اختفى كلمح البصر، ارادت سمر ان تناديه بصون مرتفع « عد يا وليد »ولكن في تلك اللحظة دخل ثلاثة من العاملين في المستشفى الغرفة، وسال أحدهم:

- من المرافق معك يا شادية؟
- أنا.
- ما اسمك؟
- اسمي سمر.
- حسناً، إليك هذه البطاقة الصفراء باسمك، احتفظي بها.
- بطاقة مرافقة مريض، لم كل هذا؟

لم يجبها أحد ولكن صوت المرأة القادم من خلف الستائر جاء يقول باستهزاء:

- إنها اجراءات من أجل إسرائيل يا ابنتي، حتى تثبتي أنك مرافقة مريض ولست دخيله على المستشفى، ولست إرهابية مختبئة هنا.
- وما دخل هذا بأمنهم؟
- كل شيء يصب في ضمان أمن دولة إسرائيل العظمى.

أحست سمر أن المرأة على وشك ان تتلفظ بشتيمة ما وهي تهول كلمة عظمى بغيظ وتهكم، ولكن. صوت أذان العشاء جاء لينهي الحديث بقوله: الله أكبر الله أكبر. ردد كل من في الغرفة، لا إله الا الله، وعاد الصمت ليسود من جديد. فاستغفرت سمر ربها وقامت إلى صلاتها.

ساعات من النوم الهادئ ثم فتحت سمر عيونها، لتجد نفسها على فرشة على الأرض في المستشفى فرفعت نفسها وتأملت المكان، أصوات خفيفة خافتة هنا وهناك، المستشفى لا ينام وأصوات أرجل الممرضات والممرضين خفيفة الدبيب بدت واضحة في ذاك الهدوء المريح، والأضواء الخافتة في الممرات بدت مناسبة مع أول خيوط الصباح الفضية القادمة من النوافذ. صلت سمر صلاتها بقلب منشرح رغم كل الظروف، ومشت نحو الممر تستطلع الحال العدد من الناس وقد فرشوا مصلياتهم وأخذوا يؤدون فريضة الفجر، شيء ما هبط

على فؤادها، شيء بارد مطمئن أخبرها بقوة أن كل شيء سيكون على ما يرام

ترددت عبارة صباح الخير في أرجاء المستشفى، الممرضات بدأن جولتهن لأخذ مقاييس الضغط والحرارة من جديد وعمال النظافة قد بدؤا يرشقون المياه في الممرات، وحتى الطباخون كانوا قد جهزوا الإفطار للمرضى.

ولما أتم الصباح نشر نوره، أتم الجميع عمله دون أن تتعارض الأعمال، لم يتبق سوى عربة أبي أحمد الذي يدور من غرفة إلى أخرى ينظفها، قالت سمر متسائلة:

- لم يجلب أحد إفطارنا، لماذا؟

فقالت المرافقة المجاورة:

- إننا صائمتان لأجل العملية.
- ونحن؟
- لا طعام للمرافقين، هكذا القانون في هذا المستشفى.
- إذن، من أين سأحصل على كوب شاي بالنعناع هذا الصباح؟

قالت المرافقة الأخرى:

- هناك آلة يمكنك وضع مبلغ ما فيها وطلب مشروبك.
- سأذهب إذن، إن كوب شاي ساخن يساوي كل شيء في صباح كهذا.

خرجت سمر من الغرفة بنشاط إلى الممر وبدأت تتأمل الطريق إلى آلة المشروبات، النوافذ على طول الممر تطل على حديقة مربعة، لقد بدأت صورة هذا البناء الغريب تتضح في رأسها، إنه حديقة المربعة، بني حولها على اضلاع مربعها ممرات هذا المبنى والحقت فيها غرف عديدة، لا يمكن ان يكون هذا قصرا ابدا، أشجار قديمة مرتفعة الطولفي قلب الحديقة المربعة، تعلن أن الهواء اليوم متوقف عن الحركه.

- ماهذا هناك؟

توقفت سمر عن السير وهي ترى بين الأشجار تمثالاً يطل ويختفي مع حركة الاشجار، قد علق على الحائط، إنه تمثال قديم، نحاسي وقد حوله تداول الزمن والأمطار إلى تمثال أزرق أو ربما أخضر ضارب إلى السواد. تسمرت سمر وهي تنظر إلى التمثال:

- لو كان بالحجم الطبيعي، فمن المؤكد أن هؤلاء الناس كانوا طوال القامة، إنه تمثال لامرأة، من المؤكد أنها الملكة فكتوريا التي أخبرنا عنها أبو مروان، إن تمثالها يصورها شابة ممشوقة القوام تلف شعرها خلف عنقها بطريقة قديمة جميلة.

أكملت سمر سيرها في الممرات الطويلة، حتى قابلتها آلة صنع المشروبات، وأعجبتها المقاعد المنسقة بالقرب من الآلة عبر طول الممر وذاك التلفاز المعلق على الحائط بالمقابل فقالت في نفسها:

- حسناً ربما أجلس هنا خلال إجراء عملية الخالة، وأطلب لنفسي كوباً آخر من الشاي.

حملت سمر كوب الشاي و قررت في تلك اللحظة أن تكمل سيرها في الممرات المتبقية وتتأمل المنحوتات التي تملأ المبنى وكم كانت مندهشه حين بد تمثال آخر بالظهور أمامها، تمثال آخر مشابه بالحجم واللون لا يحجبه عن التمثال الأول في الحديقة المربعة سوى إستدارة بارزة لأحد الجدران، وقد علق كل منهما على جانب من تلك الاستدارة حملقت سمر بالتمثال:

- حسناً، لا بد أنه الملك. يجب أن أتأكد إذا كانا ملكين.

بدأت سمر تدير عيونها هنا وهناك بتأمل:

- إن رؤوساً كثيرة منحوتة على الحجارة بجانب رأس الملك، إن كل رأس له معالمه الخاصة وكأنه لأناس حقيقيون، إن كان الملك فربما هي رؤوس

الوزراء مثلاً، لا أدري، هذا شيء آخر علي التأمل فيه خلال إجراء العملية.

نظرت سمر أمامها نحو صوت السرير الذي يجري، فرأت ممرضاً يسحبه إلى غرفة رقم ستة، أسرعت سمر الخطى ولم تعد تلتفت إلى المنحوتات الأثرية، وحين وصلت كان الممرض يقول وهو يضع بعض الأشياء على السرير:

- تجهزي للعملية، إغسلي جسدك والبسي هذا المريول فقط وغطي نفسك بهذا الغطاء، سأعود لآخذك. لا تنسي المريول، المريول فقط، إخلعي كل شيء آخر.

نظرت أم سالم إلى سمر، فقالت سمر:

- هيا، دعينا ننهي هذا الأمر، عملية بسيطة إن شاء الله.

ساعدت سمر أم سالم حتى تجهزت للعملية كما طلب منها الممرض. غطت سمر أم سالم وسرعان ما كان الممرض يجر السرير بها نحو غرفة العمليات، لحقت سمر بالخالة، ولكن الممرض كان سريع جداً، كما لو كان يتزلج على البلاط تزلجاً، ركضت سمر خلفه، كانت عيون سمر تتابع الخالة بشفقة، لقد أدخلوها غرفة العمليات، إن عمليتها هي الأولى لهذا اليوم، تلفتت سمر يمنه ويسرة فلم تر أحد سواها في الممر، لم يحضر ابو سالم كما وعد، ربما يكون بالطريق وأين ذلك الهشام، الا يوجد أحد هنا...

نظرت سمر صوب باب قسم العمليات وهي تسمع صوته يفتح للمرة الثانية فرأت هشام وقد خرج من هناك بزي أخضر، أزاح الكمامة عن فيه وقال:

- يبدو أنني سأنتظر معك. الأفضل الا أكون في الداخل.

صمتت سمر فسأل:

- ألم يحضر أبو سالم؟

- أظنه في الطريق.

لم تدر سمر ما تقول، فقد زاد رنين الهاتف النقال من ارتباكها لقد كانت الخالة نهلة تريد معرفة ما يحدث. جلس هشام على أحد المقاعد وظل صامتاً محدقاً بالأرض، في حين ابتعدت سمر تتنقل هنا وهناك وهي تحاول إخفاء تدافع الدموع في عيونها، فقد أحست فجأة برغبة قوية في الهروب من هذا الموقف والهرع إلى حضن الخالة نهلة، التي قالت على الطرف الاخر:

- حبيبتي سمر هل أنت بخير طمئنيني عن شادية.

بدأت سمر تجيب بصوتها المتحشرج:

- لقد أدخلوها غرفة العمليات، وأنا هنا وحدي لا أدري ما أفعل.

كانت سمر تتمنى أن تطول المكالمة قدر المستطاع، فقد جاء صوت نهلة بكل الحب والحنان ليطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

لم تعرف سمر طعما للراحة لمدة زادت عن الساعة، وفي كل مرة يرن بها الهاتف، النقال كانت تعتقد أنه ربما العم ابو سالم سيؤكد حضوره دون جدوى، ونهلة تتابع ما يجري كلما سمحت لها الفرصة، حتى فتح باب غرفة العميات، فهرع هشام إليه وسأل:

- ما الأخبار؟
- انتهت العملية، إنها في الغرفة الأخرى، أنت تعرف سندخل إمرأة أخرى.

اقتربت سمر من هشام وسألته:

- ما الغرفة الأخرى؟
- يبقونها قريبة منهم لفترة من الزمن حتى يطمئنوا أنها ستستيقظ من المخدر. لم يحضر أبو سالم إذن؟
- نعم، لا أدري ما أخره.
- كنت أريد ان أتحدث معه بخصوص ذاك الفتق في بطنها.
- هل هناك شيء؟

- لا أدري، ولكن رضوض كثيرة وألون قاتمة في جلدها حول الفتق، هل وقعت عن شيء مثلا؟ أو هل... لا أدري، يقول الأطباء إنها.... حسناً لا شيء مهم.

حرك هشام يديه بالهواء وكأنه يتهرب بكلامه من قول شيء ما، في حين كادت سمر تقول:

- نعم إنه يضربها.

ولكنها كانت متأكدة أنه ليس الرجل المناسب لسماع تلك الحقيقة. بدأت سمر تتمشى ذهاباً وإياباً أمام الغرفة تتفقد الحال بين الحين والآخر في حين أدخل الممرض إلهام إلى غرفة العمليات وترك ابنتها لتشارك سمر وقفتها أمام الباب. قالت سمر وهي ترى الارتباك والقلق يسيطران على تصرفات الابنة:

- لم لا نذهب سوياً لاحضار بعض الشطائر؟

تبسمت الفتاة بالمقابل فأردفت سمر.

- سأجلب النقود، وأسرعت إلى الغرفة، كان أبو أحمد قد حضر لتنظيف الغرفة ورفع فراشها وحقيبتها على السرير، نظرت سمر إلى الرجل، لقد رشق الأرض بالماء ثم سحبه بالقشاطة وجفف الأرض، أفرغ سلات المهملات ثم خرج، هزت سمر رأسها باستغراب وهي تتوجه عائدة نحو غرفة العمليات فسألها هشام:

- هل هناك شيء؟

- لا يمكن أن يكون هذا التنظيف البسيط هو سبب كل هذه النظافة في المستشفى.

- أكيد، هناك رجل آخر، أظنه سيمر غداً ليبدأ مناوبة تنظيفه، سترين كيف يعمل.

- ما اسمه؟

- اسمه.. اتعنين اسمه الحقيقي؟

- وهل له اسم آخر؟
- نعم، يحب أن يناديه الجميع بأبي العزايم وأعتقد أن أحداً في هذا المستشفى لا يعرف اسمه الحقيقي.

جلست سمر على المقعد وتمتمت:

- أبو العزايم.
- هل تعرفينه؟
- لا.
- إذن.. ما بك؟
- أعرف أبو عزائم آخر، لقد استشهد في اجتياح مخيم جنين.

أدارت سمر عيونها وهي تقول جملتها حتى لا يتضح كذبها فهي لم تقتنع بذلك بعد.

- فهمت، رحمه الله.

صمت الإثنان قليلاً ثم التفتت سمر إلى الفتاة وقالت:

- هيا بنا أظن اسمك إسراء.

بقي هشام على جلسته وانطلقت الفتاتين، نظرت سمر إلى الساعة في هاتفها، فوجدتها تقارب العاشرة صباحاً، فقالت بتعجب:

- يا الهي، لقد كنت في الأيام العادية أنام حتى الحادية عشر أحياناً، أاهدر كل هذا الوقت في النوم دون ان أدري، إنه نهار آخر، عمر آخر يبدأ في هذا المستشفى، لا أصدق.
- نعم هذا صحيح، أليس لها أحد يزورها؟
- تقصدين خالتي؟
- نعم.
- بلا، ولكن ليس معهم تصاريح ليمروا إلى هنا.

- نعم لقد نسيت.

لم تشأ سمر أن تذكر تصريح العم ابي سالم ظناً منها أن من الأفضل عدم الخوض بهذا الكلام. فسألت:

- هل أنت طالبة بالجامعة؟
- لا إني أعمل مع أخي في الأمن الوقائي ضمن تخصصي، الخدمة الاجتماعية.

حكت سمر رأسها وكأنها وجدت ما كانت تبحث عنه فاكملت:

- إذن تطلعين على الكثير من القضايا، وهل تتدخلين بفك الشجارات بين المتخاصمين؟ هل شهدت خصاماً بين الأزواج مثلا؟

تضاحكت إسراء وهي تبتلع لقمتها وقالت:

- لن تتخيلي كم هي كثيرة تلك الشجارات، إنها حالات متكررة بشكل يومي تقريباً، ولكن ليس ضمن عملي وإنما ضمن عمل أخي والشباب الذين معه، كل ليلة تقريباً تتصل امرأة لتقول إن زوجها يضربها، وهم عادة ما يأتون به ويضربونه.

قالت إسراء جملتها وانفجرت ضاحكة، كأنما تذكرت شيئاً ثم جاءت كلماتها من خلال الضحك تقول:

- وذات مرة جاءهم اتصال من أحد الأزواج يشتكي أن زوجته ضربته. فماذا فعلوا؟

لقد أتوا به وأوسعوه ضرباً ايضا، لأنه سمح لامرأة بضربه.

ضحكت الابنتين بملئ فيهما، ثم عادت سمر لتسأل وحب الاستطلاع باد بوضوح في عيونها

- إذن ما أغرب قضية مرت عليك؟
- بما أنك تسألين، فأنا لا زلت أفكر بذاك الصبي، إنه صغير لا يتجاوز

العاشرة من العمر، أبواه مطلقان، والولد يعيش مع أبيه الذي يمنعه من رؤية أمه، وذات مرة وبينما الأم في السوق صباحاً رأت ابنها يبيع العلكة في الطرقات، فهرعت إليه تريد سؤاله لم ترك المدرسة في هذا الوقت المبكر، ولم يبيع العلكة، ولكنه هرب منها وانكر أنها أمه، فتوجهت من فورها إلى الشرطة وأبلغتهم بالأمر وطالبت بالوصاية على ولدها، بالطبع الشرطة قبضت عليه وأتت به، ولكنه بدأ ينكر كل ما تقوله أمه، كنت أحضر التحقيق من خلف زجاج، وكان دوري إعطاء رأيي بكذبه أو صدقه، وللحقيقة فقد كان كاذباً فظيعاً، لقد عرفتا أنه خائف ولكننا لم نعرف مم، أصر على العودة لوالده، فدققنا التحقيق على علاقته بوالده وسألناه:

- هل يضربك؟
- لا.
- هل يرغمك على العمل؟
- لا.
- لا أثر لأي ضرب أو تعذيب على وجهه او ذراعيه كما العادة في هذه الحالات، حتى قال له أحد المحققين:
- اخلع قميصك، أريد رؤية ظهرك.
- جن جنون الصبي وبدأ يصيح.
- سيقتلني إن أنا أخبرتكم.
- وفي آخر الأمر اتضح أن والده عاطل عن العمل، وقد تعرف إلى امرأة ما، ودفع بابنه للبيع في الطرقات قائلاً:
- لا يهمني ما تفعل، وإنما يهمني أن تحضر لي اخر كل نهار مئتي شيقل.

كان الصبي ينهك نفسه وهو يستجدي عطف الناس عليه ليشتروا منه، فاذا ما جاء المساء وعاد بأقل من المطلوب غلا والده الماء وسكبه على ظهره، لقد كان منظر ظهره مشوهاً محزناً.

صمتت سمرهذه المرة ولم تعلق وصمتت اسراء ظنا منها ان سمر تعاطفت مع الطفل، ولم تدر ما تراءى لها من صور زوجة والدها وما كان منها، فمشت عائدة إلى غرفة العمليلت بصمت والم.

نصف ساعة أخرى مضت، قبل أن يفتح الباب ويظهر الممرض ذاته يجر سرير أم سالم عائداً بها إلى غرفتها، لحقت سمر به بسرعة، وهي تحمد الله على سلامة خالتها وانتهاء المرحلة الاسوأ على خير.

مرت ساعات متتالية على سمر بعد ذلك متعبة ومملة، لم تستيقظ الخالة من المخدر بسهولة، ومع ذلك رن هاتف سمر، إنه العم أبو سالم. قالت مستهترة ثم فتحت الخط:

- أهلاً يا عم.
- كيف الحال؟
- حال من تقصد؟
- سمر، لقد عدت للمخيم بالأمس وفكرت، لو أنني جئت إلى المستشفى صباحاً ما وصلته قبل الظهر.
- وهل هذا ما منعك؟
- نعم، ثم إنه ليس هناك شيء أفعله، سأجلس فقط.
- نعم أكيد، سنجلس فقط، حسناً يا عم هي بأحسن حال بعد إذنك سأغلق خط الهاتف.

اغلقت سمر الهاتف، ونظرت إلى خالتها فوجدتها تنظر إليها بصمت وقد سمعت ما كان وقالت بصوت ضعيف:

- ليس من حقك
- ماذا؟
- اغلاق الهاتف

صمتت قلبلا ثم سألت:

- لن يأتي؟
- أين سيأتي.. لقد علق بالحاجز.
- لا تكذبي، لقد كان صوته واضحاً، لم يخرج من المخيم.

صمتت سمر ولم تعلق، ولكنها كانت تأمل أن تكون خالتها فهمت الأمر كما فهمته هي.

كل شيء كان على ما يرام مع إطلالة صبح جديد، ساعدت سمر خالتها بالنهوض للتوضؤ والصلاة في سريرها وانحنت على الفرشة، ولم تدر أنها نامت من جديد الا حين تسربت إلى أذنيها أصوات خافتة، منها صوت رجل غريب يقول:

- دعيها نائمة.

وصوت الخالة تقول:

- شكراً لك.

ظنت سمر لوهلة أنه الطبيب، فلبثت في مكانها حتى غادر، ثم فتحت عينيها وسألت:

- من كان هذا؟
- إنه عامل التنظيف الجديد.
- أبو العزايم.
- هل تعرفينه.
- لا، ولكن هشام، جارك، حدثني عنه.
- عجيب.
- ما العجيب؟
- لقد أطال النظر إليك وأنت نائمة حتى انتبهت إليه وسألته؟

- هل أوقظها؟
- فرفض وتركك نائمة وقال إنه سيعود لتنظيف الغرفة عندما تستيقظين.
- صباح الخير، عمن تتحدثان؟

كان صوت هشام وهو يسأل بصوت مليء بالتفاؤل والابتهاج.

- إنه أبو العزايم.
- أبو العزايم، هل تحدث معكم؟ إنه لا يحدث أحداً على الإطلاق، وإن حدث أحدهم في معظم الأوقات لا يلتفت اليه.
- حسناً إذن، يبدو أن سمر أعجبته، فقد أطال النظر إليها قبل أن يقرر تركها نائمة.
- هو رجل لطيف على كل الاحول، لا خوف منه. حسناً كيف أنت الآن؟
- الحمد لله.
- عليك اليوم أن تغادري السرير وتتمشي في الممرات، علينا التأكد من أنك بخير.
- إن شاء الله.
- ستصبحين بحالة جيدة اليوم، وسأتركك وأعود لمنزلي، لا أحب ترك زوجتي وأولادي ليلة إضافية وقد وعدتها بالمساعدة اليوم، ولا أريد إرهاقها.

كانت سمر تلحق بأبي العزائم وتطل بخفية من الباب حين تضاحكت فجأة، فقال هشام:

- ماذا هناك؟

تظاهرت سمر بأنها لا تفهم ما يقصد فأصر عليها:

- بالله عليك ماذا هناك؟
- بصراحة.. لأول مرة أسمع رجل يقول إنه أرهق زوجته، عادة ما يقول الأزواج أنا المرهق و هذه وظيفتها، ماذا ينقصها، أنا حر في تحركاتي.

ضحك هشام وقال:

- إنهن يتحملن كل الفوضى التي نحدثها في حياتهن، ويعملن على تنظيم وترتيب حياتنا، والتنظيف والحمل والولادة..و.. و.. ثم لا نشعر بهن!، الدنيا ظالمة ومعكوسة يا سمر، على المرأة التي يدخل زوجها المنزل متكدراً ويقول لقد تعبت أن تقول له هذا عملك وليس العكس.

هزت سمر رأسها وقالت:

- أعجبني هذا، هل هناك مثلك؟
- ضحك هشام وقال:
- سأسرد عليك هذه القصة التي حصلت مع زميل لي، اتصل بزوجته ذات مرة وطلب منها أن تجهز له حساءاً لذيذاً لأنه لا يريد طعاماً يزيده سمنة على سمنته، وبالفعل اجتهدت زوجته بعمل ذاك الحساء، فرمت له صدر الدجاجة مربعات صغيرة، وقطعت الخضار بشكل مرتب، ولم تترك شيئاً الا وضعته في الحساء، وفي النهاية طلبت من ابنها أن يناولها البقدونس المفروم من البراد فقد كانت تحفظه مفروماً ومجمداً لتضع بعضه على وجه الحساء، فذهب الولد وجلب لها ملوخية مجمدة ودون أن تنتبه وضعت الملوخية في الحساء فأصبح الحساء بحالة ل يعلمها الا الله، ماذا ستفعل تلك المرأة؟ دخل زوجها المنزل، وأسرع إليها نحو المطبخ فوجدها مرتبكة لا تدري ما تقول، شم الطعام وقال: إنه لذيذ اسكبي لي صحناً كبيراً، ثم أكل حتى امتلأت معدته وهي تنظر إليه صامتة، ولما سألته كيف وجدت الحساء قال: لذيذ جدًا، لولا أنك أكثرت عليه البقدونس.

ضحكت سمر ملىء فيها، وأمسكت أم سالم بطنها حتى لا يؤلمها وهي تضحك، في حين أكمل هشام:

- كان بالطبع يعرف أن تلك ملوخية، ولكنه لم يحب أن يجرحها أو يحزنها، لذلك تظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

- نعم، ربما لو رجل آخر لصاح فيها، أنا رجل تعب، أتي من العمل مرهقاً و لا أجد صحن طبيخ جاهز..، أو هل أنت حولاء كل ما طلبته صحن حساء.

تزايد الضحك، فضحكت إلهام زميلتهن بالغرفة وقالت وقد كشفت الستار بينهما:

- إن الرجل يا ابنتي من حقه ان يجد طعاماً جاهزاً، وان يجد زوجة مرتبة وبيته نظيف، إنه يتعب بالخارج.

نظرت سمر إلى إلهام لتجد امرأة تجاوزت الستين من العمر، وقد لفت رأسها بشاشة بيضاء وأسندته الى الوسادة وبدت وكأنما تريد إسداء النصائح الزوجية لهما، فمعالم وجهها جادة. نظرت سمر إليها بشيء من حب الإستطلاع وسألتها:

- إذن أين زوجك؟ لم ليس بجانبك؟
- إن ولدي قادم، إنه في الطريق إلى هنا، ولدي مسؤول كبير في الأمن الوقائي.
- وزوجك، أين هو؟
- إنه رجل كبير مشغول.

نهضت إسراء كأنما كانت تنتظر هذا السؤال وقالت وهي ترتب السرير:

- حسناً يا أمي، إنه مع زوجته الأخرى.

رفعت سمر صوتها كأنها تسجل نقطة لصالحها وقالت:

- تزوج عليك إذن، لماذا؟ أرى أنك امرأة على قدر من الجمال و الثقة بالنفس، فما الذي جرى؟

تنحنحت أم سالم تريد إسكات سمر، ولكن ضحكات هشام المستترة خلف كفيه اللذان غطيا وجهه، جعلتها تتغاضى عن الأمر فقالت المرأة:

- ليس هناك سبب، أراد تقليد الرجال الآخرين فقط، رأى أن معظمهم في البلد قد تزوج الثانية فقرر أن يفعل مثلهم.
- لماذا؟ ألم ير الذين لم يتزوجوا على نسائهم، إنه يرى ما يحب إذن.
- لا، ربما غار منهم.

قاطعت الفتاة حديث أمها وقالت:

- لقد جلبتها إلى بيتنا، بعد أن كان والدي قد أسكنها في بيت وحدها، طلبت منه أن يسكنها معنا تصوروا.

هنا قالت إلهام وكأنها تتفاخر بما أنجزت:

- المرأة الحكيمة لا تترك زوجها للنسوة يبعدوه عن بيته وأطفاله، إنها الآن تحت عيني، وأنا الآمرة الناهية في المنزل، كل شيء تحت أمري حتى هي، وزوجي يقول لي باستمرار إن كل شيء يمكن أن يضيع بدوني.

ابتلعت سمر تعليقاتها الجارحة التي كانت تكاد تقذفها على المرأة، وعادت لتثرثر وحدها في صمتها:

- يا للنسوة، يجدن الأعذار لأزواجهن في كل مرة، ما الذي يحدث لهن بعد الزواج؟ لم يصبح الرجل الكنز الذي عليهن الحفاظ عليه، في حين تصبح هي امرأة تخدمه وتخدم بيته ويمكنه استبدالها في أي لحظة؟ ما الذي يجري؟ انها لا تزال تبرر ما جرى وتتفاخر بمكانتها لدى زوجها، أتحاول إقناعنا أنها سعيدة أم تحاول إقناع نفسها؟ ولوهلة كادت سمر أن تعلق، ولكنها صمتت حين دخل ولدها وقال:
- صباح الخير.
- هذا ولدي، مسؤول في الأمن الوقائي في نابلس.
- أهلاً وسهلاً.
- مرحباً جميعاً.
- هذا ابني أبو الحسن، وهذا الممرض هشام.

انحنى أبو الحسن على يدي أمه يقبلها ويوضيء وجهه برضاها وأدعيتها، قبل أن يتوجه نحو هشام مصافحاً ومتسائلاً عن صحة والدته، ثم جلس بقربها يمازحها ويلاطفها، كأنما هو الأب وهي الابنة.

تبسمت سمر واعترفت أمام هذا المشهد، أن بعض نسائنا يجدن الكثير من التعويض من ابن مثل أبي الحسن.

كان حديث أبي الحسن مع هشام يسير نحو منحنى غريب، الجميع حبس أنفاسه وأبو الحسن يقول بحرارة:

- والله لقد شككت بالأمر منذ رأيتك، أحسست أني أعرفك.
- وأنا أيضا، لو قالوا اسمك جلال لعرفتك أما أبو الحسن، شتتني الأمر.
- أهلاً أهلاً بزميل السجن، اهلا بزميل الكفاح
- نعم نعم، هل تذكر تلك الايام
- وهل تنسى، تعال لنترك سيداتنا يأخذن قسطاً من الراحة ولنجلس في الخارج ونتحدث.
- ولم لا؟

فكرت سمر وقد انتابها حب الاستطلاع، ربما يكون هذا اللقاء بين زملاء السجون موضوعاً آخر، اختيار آخر لبحثي، فلأستمع إلى ما يكون من حديثهما.

كان الهدوء في المستشفى يوصل الحديث دون عناء إلى أذنيها الحريصتين.

قال أبو الحسن:

- أنت ممرض إذن! بعد كل ذاك الجهاد ظننتك في منصب ما، أم ان الأحداث.....
- هل تقصد ما جرى بين فتح وحماس ذاك أمر مختلف، سأخبرك الحكاية ذات يوم.

- إن كان هناك حكاية فهذا انسب وقت لسماعها.

تضاحك هشام وهو يختار مقعدا ويجلس عليه وقال:

- ليس هناك ما يقال، انها قصة شخصية جدا، ولكن.. حسنا..سأخبرك.. بعد أن وضحت الأمور واستلمت فتح زمام السلطة بقيت هنا أعمل، كل ما كان يشغل بالي هو اخبار اصدقائي، وذات يوم قررت أن أعود لتفقدهم طالما لم يفتقدني احد، انت تعرف محمد «السر» كنا نسميه السر هل تذكرته، كان يعمل في تمديدات المياه وصيانتها وما شابه، كنا في أغلب الأحيان نتجمع في ورشته، نخبيء عنده الأقمشة التي نخيط منها الأعلام، ونكتب في ورشته بياناتنا الصادرة،
- نعم اذكره
- نعم، قصدته وقد تخيلت أنني سأجده وقد أصبح برتبة عالية تليق به، تليق بمواقفه ونضاله، ولكني دهشت حين رأيته لايزال في ملابس الورشة، يحمل عدته ويقصد البيوت والورشات، ولما سألته عن حال الاصدقاء، بدأ يحدثني عن رتبهم العالية ورواتبهم الكبيرة وبيوتهم وسياراتهم، قال إنهم تغيروا، لم يعودوا اليد الواحدة، ولا حتى أصدقاء أوفياء، قال أموراً كثيرة أزعجتني ولم أصدقها منه، فالمال لا يمكنه تغييرنا، ولم أفهم ما يغضبه منهم، لكنه نظر الي بهدوء وقال:
- لقد تغيروا، أنت تبحث عن رجال لا وجود لهم، ولما أحس أني لا أصدقه قال:
- أمكث عندي بعض الوقت وسترى ما أعنيه.

كان الطقس بارداً جداً، وقد طاب للدنيا ليلتها أن تمطر بغزارة لم تمطر بمثلها من قبل، سهرنا تلك الليلة سوياً في منزله حتى وقت متأخر، وفي اللحظة التي فكرنا بها بالنوم رن هاتفه، قال وهو ينظر إلى الرقم إنه فلان، وقصد أحد أصدقائنا الواصلين. قلت له:

- حسناً، أجبه.

ولكنه رفض وقال:

- لا، لقد كنت في «فيلته « اليوم وأصلحت له خطوط المياه كافة، فماذا يريد في هذه الساعة.

قلت له:

- أرجوك إني مشتاق له دعنا نكلمه.

لم يعجب صديقي ما قلت، ولكنه فتح الهاتف وقال:

- نعم يا أبا فلان.

وضعت أذني قرب الهاتف أريد سماع صوته فسمعته يقول بغضب:

- إن المياه الساخنة مقطوعة، ما الذي فعلته؟
- لقد أصلحت كل شيء، لم أترك عطلاً، ولكن ربما نسيت فتح المحبس عليك فقط أن تفتحه إنه فوق السطح.
- ماذا؟ تعال أنت وافتحه.
- ولكن يا صديقي لقد استحممت قبل قليل، والشتاء غزير في الخارج، بإمكانك فتحه بسهولة، إنها خطوات قليلة إلى السطح وينتهي الأمر، لم قد أحضر أنا من آخر الدنيا لسبب بسيط.

بدأ الجدل بينهما يكبر، فقلت لصديقي هامسا والححت عليه:

- وافق، سأذهب أنا إلى هناك وأفاجئه.

عندها جاء صوت الاخر عبر الهاتف يقول:

- تعال وسأعطيك مئة دينار.

صمت صديقي ولم يعرف ما يقول بين الحاحي وبين رغبته في الشجار مع الآخر، وخاصة بعد جملته الأخيرة، غمزت له بعيني أن وافق وأنا سأوبخه

لأجلك. اضطر صديقي للموافقة وألقى إلي بمفاتيح سيارته وقال:

- اذهب إليه لعلك تفهم.

وصف لي صديقي الطريق، وبالفعل وصلت الفيلا ونزلت، ظننت أنه سيكون بانتظاري، اشتعلت الأضواء في المدخل وعلى الأدراج فقط، صعدت فلم أر سوى أبواب مغلقة حتى وصلت السطح، اعادة فَتح المحبس كان بغاية السهولة رغم شدة المطر، ولم يكن يشغلني سوى رؤية صديقي أبو فلان، نزلت الأدراج بسرعة، ووقفت تحت نوافذه وناديته، كنت متأكداً أنه سيميز صوتي، فقد كان توأمي في الإنتفاضة، وبالفعل سمع النداء، ولكنه فتح النافذة فتحة صغيرة، ورمى إلي بالمئة دينار ثم أقفل، وقفت تحت المطر لا أدري ماذا أفعل، لقد كان هذا الرجل ذات يوم يتلقف الكلمة من فمي ليتعلم الحديث والقيادة، لقد كنت ذات يوم...

صمت هشام لدقائق قليله بدى وكأن كل العالم قد صمت معه، فرك وجهه بكفيه وقال:

- تركت له الدنانير وانصرفت، لم أكن أريد سوى دقائق أراه فيها، ولكن للأسف لم يعد هذا احتمال وارد بين الأصدقاء وهكذا فضلت العودة وأكملت علمي، وبقيت كما ترى في التمريض.وبالطبع اعود لاقول لك ليس كل الناس، تلك كانت قصة شخصية
- لا عليك، للاسف تغير بعض الناس

تنهدت سمر بحرقة وهي تسمع ما آل إليه حال بعض من رفعتهم الإنتفاضة، لمَ تغير المناصب الناس؟ لم يكون لكل شيء ثمن حتى للحب والوطنية!

أين أفرُّ إن كانت الدنيا بتلك المقاييس، وأين أطلب الأمن والاستقرار؟ أين أنت يا أمي نهلة؟ ومتى أعود لدفء حضنك؟ اريدك خالتي، اريد العودة للمنزل

وكأن قلب نهلة أحس كلمات سمر، تحسست نهلة الهاتف في جيبها، وعيونها تتابع أبا فادي المنهمك في محاسبة الزبونة، وضعته أمامها على كرسي صغير، وكأنما تنتظر رنينه، أو تجهزه لاغتنامه عند أول فرصة سانحة، ولكن توافد العرائس على المتجر كان في تزايد، قلبها كان يلح عليها ويخبرها أن فتاتها بحاجة لها، ونظرات أبي فادي كانت تهددها بالزجر والفصل، كم همت خولة بمواجهة أبي فادي بالقول:

- نحن من اشترى منك المحل وأعطيناك مهلة حتى آخر الشهر، فلا تضيق علي.

ولكنها كانت تعرف أن كلاماً مثل هذا ربما يعقد الصفقة، وفجأة قررت نهلة أنها بحاجة لمساعدة خارجة

قالت خولة وقد لاحظت ما يجري:

- ليس لدي أي عروس في الطابق العلوي، فكيف أساعدك؟

ألقت نهلة بالهاتف إليها وقالت:

- أرجوك اتصلي بسمر واسأليها عن الأخبار.

أخذت خولة الهاتف النقال وعيونها متسمرة بالثوب غريب اللون، كثير اللاليء المنتشرة على صدره وقالت:

- إنه ثوب رائع، سأرتديه يوماً، حتى وإن لم أخطب.

التفتت نهلة عنها وهي تهز رأسها وكأنما توافقها الرأي وهمهمت:

- سألبسك بيدي يا عزيزتي.

بدأ العمل يصبح أكثر راحة من ذي قبل، فقد حملت خولة بعض الأثواب المختارة من قبل العرائس واصطحبتهن لتجربتها في الطابق العلوي، بعد أن أخبرت نهله أن هاتف سمر في موقع لا تصله الخدمة.

أما سمر، فقد سألت هشام عن أبي العزايم وهو تتجول معه في المستشفى

- إننا نعرفه في المستشفى منذ حوالي خمس سنوات، كانت أمه مصابة بالزهايمر وتتعالج هنا، في الطابق الثالث في القسم الخاص بهذه الحالات، كان الناس يزورون أهليهم المصأبون بهذه الحالة كل يومين أو ثلاث، ولكنه كان لا يفارق أمه، كان يساعدها ويساعد كل من احتاج المساعدة في ذاك القسم، أو كل من تغيب عنه أهله، حتى توفيت أمه بعد أكثر من عامين فقدم طلب للبقاء في المستشفى بصفته عامل تنظيف، وهكذا تجدينه هنا باستمرار.

همهمت سمر بارتياح:

- ليس هو.

ثم نظرت إلى تلك الأعمدة المرفوعة بين النوافذ،حدقت فجاة بالمنحوتات المختلفة على الأعمدة، وبدأت تلتقط الصور بواسطة هاتفها بانبهار وسعادة:

- هل تريدين رؤية المزيد؟

التفتت سمر نحوه وسألته:

- أين؟ إنها جميلة جداً.
- نعم، هل تعرفين تاريخ هذا المستشفى؟
- ليس تماماً.
- إذن تعالي أريك بعض أسراره وأحدثك عنه، ولنبدأ بهذه الأعمدة كل عمود بنقش مختلف، فهذا مثلاً نقش أسد وهذا نقش عصفور وهناك نقوش لأشخاص ولزواحف مثل السلحفاة والحرباء، وحتى إنك سترين نقوشاً لبعض قطوف العنب وأشياء أخرى. الا تعرفين أن هذا البناء قد احتفل بعامه المئة؟
- لا، علمت أنه كان قصر الملكة.
- لا أعتقد ذلك، مع أنه حمل اسم زوجة القيصر "اوغستا فكتوريا" الا أنه

كان نزلا للحجاج المسيحين القادمين للأرض المقدسة. ولم يكن قصراً.

حدقت سمر في هشام وقد بدأت ترى فيه شخصاً مثقفاً محباً للقراءة مثلها وسالته وقد شدها ما قال:

- أنت قارئ جيد، أليس كذلك؟
- بلا، لدي وقت فراغ كثير.
- أنا أقضي معظم يومي بمكتبة بلدية نابلس، هل تعرفها؟
- بالطبع، إنها أكبر مكتبة في الضفة الغربية، وكانت لتكون أول مكتبة يفتتحها الملك حسين، لو لا أنه افتتح قبلها بيوم واحد مكتبة أخرى في الأردن.
- هذا صحيح.
- لنعد لمستشفى المطلع.
- لم سمي المطلع؟
- إن هذه الدونمات التي بني عليها كان اسمها أم الطلعات، فكما رأيت أرضة على أعلى ارتفاع في جبل الزيتون.
- إذن هل بناه الإحتلال الانجليزي.
- لا، لقد بناه الأتراك حين كانت فلسطين تحت الحكم العثماني، لتوطيد العلاقات مع الحلفاء الألمان.
- نظر هشام إلى سمر وقد رآها قد رأى اهتمامها بالموضوع فقال:
- حسناً، لم لا أريك شيئاً آخر؟

سار هشام بسرعة، ولحقت به سمر، حتى وصل إلى باب مفتوح نحو الحديقة المربعة التي تتوسط المستشفى، نزل الدرجات ومشى قليلاً فيها ثم قال وهو يشير نحو نوافذ لغرف لم تدر سمر ما هي.

- هنا، في هذه الغرفة، اجتمع وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل، مع الأمير عبد الله بن الحسين كي يسلمه الحكم في شرقي

الأردن، هذه كانت مكاتب الإنتداب.

- ألم تقل إنه نزل للحجيج؟
- نعم، كان كذلك لأربع سنوات فقط، ثم تحول إلى مقر للجيش التركي إبان الحرب العالمية الأولى، هنا ولدت المملكة الأردنية الهاشمية.

تضاحك هشام وكأنما ألقى فكاهة، ولكن سمر ظلت واجمة وهي تنظر بأم عينيها إلى وليد، نعم إنه وليد، وهو يحملق بها من خلف زجاج الطابق الأول.

ركضت سمر تصعد الأدراج تريد الامساك به، ولكنها لم تجده.

- هل أتخيله؟ هل أصبت بالجنون لأنني قررت نسيانه؟ هل هو حقيقي؟ إذن لم يهرب مني؟
- ناداها هشام:
- أين تذهبين.
- أظن أن خالتي تفتقدني، أعذرني.
- استغرب هشام تصرفها المفاجيء ولكنه لم يعلق.

جلست سمر بجانب خالتها ترتجف، ولكن خالتها المستغرقة بالنوم لم تلحظ شيئاً، وبدأت تغسل وجهها بالماء الساخن وتحاول لملمة ما تبقى من اعصابها، فهل وجدت وليد أبو العزايم؟ أم أنها أضاعت مصطفى؟ أو ربما أضاعت عقلها.

بقيت سمر تحت المياه الساخنة حتى تحسن حالها، وهدأ روعها، وتأكدت بأنها تستطيع مواجهة وليد مرة أخرى، فهو من المؤكد هنا في هذا المستشفى، وهي التي بحثت عنه طوال السنين السابقة.

نظرت سمر نحو باب الغرفة، لتجد هشام يتجاذب أطراف الحديث مع العامل على توزيع الوجبات الغذائية ثم نظر نحو سمر وسألها:

- هل سمح الأطباء لخالتك بتناول الطعام؟
- بلا، ولكن الفاكهه فقط.
- حسناً، سآتي لها ببعض الفاكهة إذن.

انطلق مبتعداً و سحب عامل توزيع الطعام عربته الكبيرة وابتعد بدوره، فهبطت سمر على طرف فراش الخالة وقالت:

- لقد وجدته، ألم أخبرك وجدت وليد. لا يمكن أن يكون شخص آخر، صحيح اني لم أره منذ سنوات، ولكنني أميزه ولو كان بين مئة من شبهه.
- إذن....

قالت الخالة وهي تنزل عن سريرها:

- لنتمشى في المستشفى ونبحث عنه.

أمسكت الخالة بيد سمر وأخذت تسير ببطء، وهي مصممة على مجاراة سمر بمزاعمها، آملة أن تحدث معجزة بلقاء وليد، تدفع سمر للتحدث عما جرى معها في الاجتياح، فتعرف أخيراً كيف استشهدت ابنتها صفاء.

كانت سمر تنقل عيونها في كل أرجاء المستشفى، وقد عقدت عزمها على اللحاق به وإيقافه في حال ظهر مرة أخرى، ولم تكن تدري كيف انتهى بهما الامر جالستان خارج المستشفى. لم يظهر وليد ولم تهدأ نفسها، وقد بدأت ذاكرتها تتدافع كبركان ثائر، كل الأمور اختلطت في رأسها، ولم تعد تدر ما تقول، أحرف دون معنى، ومقاطع دون أن تكتمل خرجت من فيها، حتى بدت كالحمقاء، مسحت دموعها وصمتت كصمت الرعد بعد البرق، لا بد من صيحته وإن تأخر وصوله.

الفصل الخامس

جرت خولة نحو نهلة وهمست:

- لقد أعطانا بقية النهار إجازة.
- من؟
- ومن سيكون.. أبو فادي.
- ولكن، الزبونات؟
- أنهي ما بيدك وسنعتذر من الأخريات.
- لكن لماذا ؟
- يقول إنه باع المحل.
- ولم تقولين ذلك ضاحكة؟
- لقد طلب مني البقاء معه في عمله الجديد، أعتقد أنه.....

اقتربت خولة من أذن نهله وهمست:

- أعتقد أنه يحبني.

نظرت نهلة إلى وجه خولة لتتحقق من جديتها، فرأتها قد توردت خجلاً، وقد دبلت عيونها وارتعشت مفاصلها، فقالت:

- أنت جادة إذن.

سحبت خولة الثوب من يد نهلة وقالت:

- قلت لك إنه أعطانا اليوم إجازة، فلنخرج ولنتحدث، إنه يعرف أني لن أستوعب الأمر دونك.

سحبت خولة نهلة إلى الخارج، وتناولت حقيبتاهما بطريقة عصبية وخرجت بها إلى الشارع، كانت بعض خطوات ثم استندت إلى الحائط لا تقوى على السير، قالت نهلة مستغربة:

- هل قال لك إنه يحبك؟
- بل قال إنه يريد الزواج مني.
- لا...! الأمر هكذا أصبح كبيراً، لنوقف سيارة ونذهب إلى متنزه العائلة، وهناك نتحدث.

ظلت خولة على وقفتها كفتاة صغيرة ألقت بعبء الأحداث على أمها، ولم تنطق بشيء

في المتنزه سحبت خولة الكرسي البلاستيكي وهبطت عليه.

- اقرصيني، لأتاكد أني لا أحلم.
- أمر غريب ألم تكوني تكرهين أبا فادي منذ أيام؟ ماذا قال لك بالضبط حتى فعل بك هذا؟
- بالضبط؟
- أجل.
- قال النساء غبيات، تتحدث إلى المرأة منهن عاماً، ولا تفهم أنك تحبها الا إذا قلت لها ذلك مباشرة، وأنت أكثرهن حمقاً، ولكني يا ابنة الناس أريد الزواج منك.

ضحكت نهلة حتى كادت تسقط عن الكرسي، ثم قالت:

- وبم أجبته؟
- لم أجبه. بقيت فاتحة ثغري وأفكر، هل شتمني أم مدحني، ثم وجدته طرق دفتر الحسابات وقال: اليوم إجازة، تستطيعين أخذ نهلة والتفكير بالأمر، أريد جواباً سريعاً.
- لم تقولي شيئا إذن.

- لا، ولكني بدأت أفكر.
- بم؟
- أريد عرساً تقليدياً، أريد أن تغني لي النساء تلك الاغنيات القديمه، لطالما حسدت العروس عليها.

ثم أخذت تدندن:

يا مقصوفة ما أحلاك

محمدباشا قدامك حامل بقجة حمامك

والبقجة حريرية والطاسات محلية

يا عبد لا تتعوق جيب السيف المزوق

حطه باب البوااااااااااااا

قاطعتها نهلة بعد أن يئست من انتظار سكوتها:

- حبيبتي خولة إذن أنت موافقة.
- يا نهلة، إنه أرمل، في أول خمسيناته، أبناؤه يدرسون في الخارج، بيته واسع، وسأشترط عليه أخذ أمي لتعيش معي.
- أمك!
- نعم، أعتقد أنه سيوافق، فقد سمعني كثيراً أذكرها وأذكر أنني سأبقى معها مهما حصل.
- وإن لم يوافق؟
- ليكن، ولكني سأبقى سعيدة بهذا الإحساس، أحدهم فكر بي، وأحب أن يقضي بقية عمره بصحبتي.

- هل أنت واثقة أن هذا ما تريدينه؟
- أكيد. وهل كنت تتوقعين أن أترك امي لأجل ابي فادي.
- ليكن الله في عون الرجل، لنهاتفه وننهي هذه الحكاية.
- بل اتركيه على ناره قليلاً واطلبي لنا شرابا، لقد جف ريقي، ثم أعطني لأهاتف سمر وأخبرها بالأمر.
- نعم سمر، لا أدري لم أحس أنها بضيق.

عادت خولة لتترنم رغم ضيق نهلة:

روحوا سوق الترويحة	يا حبابة
أبو فادي أخذ المليحة	يا حبابة
روحوا سوق الكوسامحشي	يا حبابة
أبو فادي أخذ النغشة	يا حبابة

ان سمر لا تجيب على الهاتف، ترى ما الذي يحري معها

انتابها شعور بأن سمر ليست على طبيعتها، وأن أمر وليد هذا قد يدفعها إلى عمل جنوني فقالت تريد تلطيف الجو:

- لم لا نهاتف خالتك نهلة، لقد اعتدنا أن تكون معنا في كل الأمور المهمة.

تنهدت سمر وقالت:

- نعم.

ثم تلفتت فجأة ونظرت في وجه خالتها وقالت:

- الا في أهم يوم، أين كنتما يوم الاجتياح؟

- ماذا؟ أنت تعرفين، لقد حاولنا إخراجكم من المخيم، استأجرنا غرفة واحدة في جنين المدينة وكنا ننقل بعض الفراش والطعام إليها، تركناك وصفاء رحمها الله "حبيبتي" تركناكما عند أمي لنعود ونصحبكم جميعاً، لم يكن أحد ليتوقع ما حدث.
- نعم.
- اجتاحوا المدينة، واعتقلوا عمك أبا سالم حين حاول التسلل إلى المخيم ليبقى معكم.
- نعم، ثم اجتاحوا المخيم وليس في البيت سوانا، أنا، وصفاء، وجدتي التي ظلت تهذي بالعودة إلى حيفا، إلى قريتها هناك، جبع.
- أخذت سمر نفساً عميقاً وأكملت وهي تهبط على المقعد:
- كل شيء كان هادئ تلك الليلة، رغم بعض الأمطار الخفيفة التي تنقر الزجاج على استحياء، حتى الأحلام تمر على عيوننا مر الكرام ولا تعلق بالذاكرة، إنني أرى كل تفاصيل منزل الخالة القديم والفراش المتواضع الذي تدبره لنا كلما زرناها، رائحة الحائط الذي رسمت عليه بعض الرطوبة بيدها السوداء بقع كخارطة العالم.

بدأت سمر تزداد تحديقاً بالفضاء تارة وبالارض تارة أخرى، حتى أصبحت كأنما تعيش الماضي من جديد، في مخيم جنين في الليلة الباردة، تتحسس غطاءها الدافئ وتعيد لف جسدها لتنام وكلها انتباه لقلة نوم صفاء طوال ساعات ، تتقلب في فراشها وتتساءل ذاك الشاب الذي لا يعرف عنه احد

- – ماذا يمكن ان يفعل في هذه الساعة مع الشباب المترصد لاي اجتياح مفاجيء، لم اعاد الاجتياح المتوقع مشاعر الحب والاشتياق بيننا، وكأن الخوف من الموت ليس سوى الخوف من فراق الاحبة

تململت في سريرها وحاولت جاهدة العودة للنوم، فتحت عينيها فتحة ضيقة، وكأنما تريد الإحتفاظ ببقايا النعاس فيها ونظرت نحو الحائط

المحاذي لسريرها لتتأكد من بعض الأرقام المكتوبة عليه وقالت:

- نعم، أيام قليلة ونتم العام.
- كنت أعرف أنها تقصد خصامها مع أحدهم، لقد كانت تحبه، ولم أسألها حتى عن اسمه، كنت صغيرة على تلك الأمور في نظرها.

بدأ النعاس يفر من جفون صفاء وهي تفكر:

- ما الذي يمكن أن يحصل؟ إن الإحتلال قد توحش هذه المرة، وجميع الأخبار تقول إنهم سيقضون على مخيم جنين، وأنا وسمر قد علقنا هنا في منزل جدتي.

سحبت صفاء الغطاء فوق رأسها وسكنت حركتها قليلاً، في محاولة أخرى لالتماس النوم، ولكن الأصوات المقتربة من نافذة غرفتها جعلتها تكشف وجهها وتقول:

- لا ليس ثانية، العم أبو إسحق، ماذا سيقول اليوم؟

تعالت بعض الأصوات بكلام غير مفهوم ولكن، صوت أقدام العم تنتعل نصف الحذاء وتجر نصفه الآخر على أرض مخيم جنين المرقعة كما الأثواب البالية، كانت تعلن عودته من صلاة الفجر وعزمه على وقفته المعهودة تحت نافذة الغرفة مع أحد أصحابه.

توقفت الأقدام وعلا صوت أبو إسحق الأجش ليقول:

- صباح الخير أيها المخيم الشقي، لقد كتب الله لك عمراً جديداً اليوم.
- تضاحك أبو إبراهيم وهو يسمع تلك العبارة وقال:
- الحمد لله، ليبعد الله شر الإجتياح عنا للأبد.
- الإجتياح آت يا صديقي، الإجتياح لا مناص منه.

كانت صفاء تستمع إلى أبي إسحق، وهي تتخيله بجسده الشديد النحافة

وعنقه الممدود نحو صديقه تكاد تفاحة آدم المتراقصة فيه أن تقفز منه لشدة بروزها، وهو يشدد على عباراته ويدافع عن آرائه السياسية ويكمل:

- – ما الذي سيمنعهم، إذا كان الرئيس عرفات ذات نفسه محاصرا في المقاطعة، يقصفونه بالدبابات على مرأى من العالم ومسمع.إذا كانت كنسية المهد التي يحج إليها بوش وزمرته قد اجتاحوها، وقتلوا فيها الكثير من الشبان، فما الذي سيمنعهم عن هذا المخيم.
- حسناً يا أبا إسحق.. أراك نهاراً.

أمسك أبو إسحق بذراع أبي إبراهيم وأكمل، كأنه يرفض أن يتركه رفيقة قبل أن يتم كلامه:

- لقد ذبحوا صبرا وشتيلا أمام عيون العالم فماذا حصل؟ إن مخيم جنين الآن مهدور الدم.
- أعوذ بالله يا أخي من هذا الكلام، إن الدنيا لا تزال فجراً، فلم هذا الفأل؟
- – الجيش يا حبيبي لا يجتاح الا مع الفجر أيضاً، فأي فجر هذا الذي تتحدث عنه؟

تفلت أبو إبراهيم من يد أبي إسحق وقال:

- السلام عليكم، سنكمل حديثنا في النهار.
- وعليكم السلام.

حمدت صفاء الله وهي تسمع وقع أقدام أبي إبراهيم تبتعد عن منزلها، ولم تدر لم بقي أبو إسحق في مكانه، وبعد برهة عاد صوته الأجش ليقول:

- انهضي وصلي الفجر يا سمر قبل أن نموت جميعاً غداً.

اقشعر جسد صفاء مما سمعت وقالت:

- يا لفألك أيها العجوز، لا أدري من أين تأتي بكل تلك القوة رغم كبر سنك، ولا أدري ما الذي تحبه تلك الشقية سمر في كلامك، إنها لا تزال في

الثالثة عشر من العمر فما الذي جعلك تتوهم أنها بالفعل ستصبح مراسلة صحافية هامة ذات يوم، سيكون لي معها غداً كلام آخر.

لملمت صفاء الغطاء حول جسدها من جديد وتصارعت مع النعاس حتى غلبها واستسلمت للنوم من جديد.

نام المخيم يوماً آخر، بعد أن سهر الشبان على حراسته مستعدين لمواجهة أي اجتياح طارئ، وبدأت المساجد تعج بالأشبال والفتيان والرجال بشكل لم يعهده المخيم من قبل، خاصة عند صلاة الفجر، بعد أن تنتهي مهمة الحراسة، وقبل العودة للمنازل لالتماس بعض الراحة والنوم.

تنهدت سمر بحرقة ونظرت في عيون خالتها، كأنما تريد التأكيد على المعلومة القادمة وأكملت:

- كان مع صفاء ابنة خالة شقية صغيرة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، كانت فتاة حمقاء تعيش في عالم من صنع خيالها، ترى أن النصر قادم وأن الحق سينتصر في ذاك الزمن الظالم وأن كل ما يجري ليس سوى نتائج بعض التقصير في الإعلام، وأن العالم ليس سوى مظلوم لأنه لايرى سوى ما ينشره إعلام الاحتلال.

عرفت أم سالم أن سمر تقصد نفسها بذلك الحديث فظلت منصته في حين تابعت سمر:

- ولذلك كان حلم عمرها أن تصبح صحافية قوية لا تخشى قول الحقيقة.

فتحت صفاء عينيها في ذاك الصباح على صوت سمر، تلك الحمقاء المتبجحة، والتي أعتادت رفع صوتها كل صباح وهي متوجهة إلى الحمام:

- اليوم: الثلاثاء، التاريخ: الثاني من نيسان لعام الفين واثنين، الساعة: التاسعة، تم افتتاح جريدة الحرية لهذا اليوم.

صاحت صفاء من غرفتها:

- هيا أسرعي، لقد تأخرت على الجدة. وعلى اخي الصغير

لم تجب سمر بشيء وإنما صفعت باب الحمام وراءها بصمت.

جلست صفاء في سريرها، ولملمت شعرها البني المنثور على أكتافها، ورفعته على رأسها بملقط، ثم دلت قدميها في بأبوجها البلاستيكي ونهضت تتوجه نحو المطبخ.

وضعت صفاء إبريق الشاي على الغاز، وتوجهت نحو غرفة الجدة وهي تتمتم:

- إنه اليوم الأول لنا وحدنا وقد تأخرنا على الجدة بالإفطار. ماذا لو أنهم حُبسوا عنا لمدة أطول؟

أطلت صفاء برأسها نحو الجدة فوجدتها تجلس في سريرها بهدوء، حمدت الله وقالت:

- صباح الخير يا جدتي.
- صباح الخير يا صفاء، أين امك؟
- لقد اصطحبها عمي للمنزل ألجديد بالأمس، الا تذكرين؟

هزت الجدة رأسها وقالت:

- يخاف عليها من الحرب.ولم تركك واخيك سلمان؟
- اخي سلمان هو الذي رفض الذهاب معهم

استدارت صفاء تريد العودة للمطبخ ولكن الجدة سألتها:

- وأنت، لم لم تذهبين معهم؟
- إن المدينة لا تزال تحت منع التجوال.وانا لا احب المخاطرة

عادت الجدة لهز رأسها وصمتت، في حين عادت صفاء إلى المطبخ لتجهيز الإفطار، وعندما مرت بباب الحمام طرقته طرقة قوية وصاحت بسمر:

- هيا، أسرعي، إن أم علي تنتظرني، هل نسيت؟
- فتحت سمر باب الحمام وهي تفرك وجهها بمنشفة صغيرة وقالت:
- صباح الخير، ما بالك اليوم؟
- ماذا، لقد تأخرت بالنوم، كان علي أن انهض باكراً.
- حسنا هل اكمل تحميص الشعيرية
- اجل وبسرعة،

بعد الافطار تجهزت لمساعدة الجارة،انحنت تنتعل حذاءها عند مدخل المنزل وهي تكرر وصاياها لسمر:

- لن أتأخر، فلا تغادري المنزل ولا تتركي الجدة لوحدها، فهي ليست على طبيعتها منذ أيام.
- حسناً.
- بيت أم علي ملاصق لمنزلنا، لذلك سأراك إن خرجت لصديقاتك وتركتها، وانتبهي الى سلمان ايضا أما إذا حصل شيء مهم فبإمكانك أن تناديني وسأسمعك.
- حسناً. ولكن سلمان ليس هنا
- ستجدينه يلهو مع احد اصدقائه، الهاتف النقال معي، إذا اتصل والدي أو حضر لأخذنا من هنا، سأترك كل شيء وآتيك على الفور.
- وهل عليك الذهاب لمساعدة أم علي؟
- نعم، أعرف أنها تفعل ذلك، لأنها ترغب في تقاسم البرازق معنا، فهي تعرف أن خالتك قد غادرت المخيم وتريد مساعدتنا بطريقتها الخاصة.
- ولم البرازق؟
- جلست سمر على مقعد قريب وأكملت:
- ما عيب المحشي أو المقلوبة؟

تحسست صفاء هندامها للمرة الأخيرة وهي تفتح الباب وقالت:

- في الإجتياح، لن تتجرأي على وصول المطبخ، وإذا طالت الأيام كل طبخة تتلف الا القرشلة والبرازق وما شابه، هل فهمت الآن، أنا ذاهبة.

خرجت صفاء وأقفلت الباب خلفها، ولكن ذلك لم يمنع سمر من سماع طرقاتها على باب الجارة أم علي وسماع صوت الباب يغلق خلفها.

التفتت سمر إلى جدتها، فوجدتها تتكئ على وسادة السرير. وقد غابت في عالم بعيد من الأفكار المجهولة وكأنما هناك أمر جلل يشغل بالها ولا تريد أن تخبر به أحداً.

فتحت سمر باب المنزل وسحبت المقعد نحوه، وجلست تنظر إلى المارة تارة وتعيد تفقد الجدة تارة أخرى.

كانت أصوات الأقدام الصغيرة الجارية نحوها تنبئها بأن صديقتاها التوأم تقتربان، ولما وضحت همساتهما اللاهثة، نظرت تتفقد الطريق لتراهما على مقربة منها تتجادلان، وقد اقتربتا بلهفة وجزع، وبدأتا القول معاً:

- صباح الخير يا سمر.
- صباح الخير، ما الأخبار اليوم؟

قالت أسماء وهي تحاول دفع شقيقتها التوأم:

- الأخبار مهمة جداً، لقد انتهى الشباب من تفخيخ كل مداخل المخيم.
- فعادت دعاء وهي تتدافع مع شقيقتها:
- لقد وجدوا بديلاً للكهرباء، فالجيش في الإجتياح يقطع التيار عن المخيم ولذلك ظلوا يحاولون طوال الأيام السابقة لإيجاد بديلاً مناسباً لتفعيل الألغام حتى اهتدوا إلى «ماتور الحقيبة».
- وما هو ماتور الحقيبة؟

- هه، لم يفتني ان اسأل، وقد علمت انه ماتور صغير كماتور استخراج الماء من البئر ولكنه يحمل بحقيبة، هكذا قال مازن.
- حسناً، إذن.
- نعم، عند وصل الأسلاك بالماتور تنفجر الألغام المعنية.
- قالت سمر وهي تشد على أسنانها:
- هذا خبر جيد، ولكنه لا يناسب الكتابة على الحيطان، ماذا هناك غيره؟
- قالت دعاء وهي تدفع نظارتها الطبية نحو عيونها:
- إن عدداً كبيراً من العائلات قد غادروا المخيم، الجميع يتوقع دمار المخيم عن بكرة أبيه.
- فأكملت شقيقتها الخبر باهتمام بالغ:
- نعم، رغم أن الكثير من الشبان أيضاً يتدفقون إلى المخيم كل ليلة من حيث لا ندري لمساندة المقاومة هنا، فماذا سنكتب اليوم على الحائط؟

لم تلحظ أي منهن وصول صديقتهن عريب حتى سمعن صوتها تقول:

- صباح الخير، ما الأخبار؟
- صباح الخير.

هنا وقفت سمر وسألت باهتمام:

- عريب، هل عرفت كيف يقسم الشبان أنفسهم كل ليلة للحراسة؟
- إنهم لا يقسمون أنفسهم يا عزيزتي، إنها ليست جيوش منظمة، إنهم مجرد شبان يدافعون عن مخيمهم ويرفضون تسليم أصدقائهم للجيش، ولكن الشبان المطلوبين لا يتجمعون معاً، وزعوا أنفسهم للحراسة على شتى مداخل المخيم.

صمتت سمر لوهلة وصمتت الصديقات ينظرن إليها، وكأنها بتلك التعابير التي اعتلت وجهها على وشك أن تخرج عليهن بقرارت مهمة فقالت:

- إذن، علينا بعد هذه الأخبار، اتخاذ أسلوب جديد في كتابة الجريدة،

علينا استعمال الأوراق والأقلام بدل الكتابة على الحائط، وبذلك يمكننا كتابتها بالتفصيل بعد انتصارنا وخروجنا من الإجتياح، حتى يعرف أهل المخيم ما فعله الأبطال.

نظرت الصديقتان إلى بعضهن البعض، وكأن أي منهن لم تفهم شيئاً فأكملت سمر:

- لن نكتب اليوم شيئاً على الحائط وستعود كل منكن لكتابة أخبارها على الورق وتحتفظ بها، الا إذا كان لدى سلام خبر يكتب.

تلفتت الصديقات حولهن ليجدن أن سلام تقبل من آخر الزقاق بمشيتها الهادئة وقد تأنقت وسرحت شعرها وبدى عليها الهدوء والرصانة، ضحكت دعاء وقد وكزت شقيقتها قائلة:

- أنظري، لقد حضرت، أخيراً سمحت لها أمها بالمغادرة.

فرفعت سمر صوتها وهي تلوح بيدها قائلة:

- هيا.. أسرعي.

هرولت سلام نحو صديقاتها وقالت:

- صباح الخير، هل فاتني شيء؟

ثم التفتت نحو الجدران تتفقدها باحثة عن الأخبار الجديدة، فقالت سمر:

- ماذا لديك؟
- حسناً، كل المخيم يعرف أن كمية كبيرة من الأسلحة أصبحت بأيدي المقاومة، وأن مادة أم العبد فعالة جداً فلم لا نكتب ذلك على الحائط؟
- إذن اسم المادة التي اخترعها محمود طوالبة فعلاً أم العبد؟
- لم يخترعها وانما ركبها من جديد نعم، لقد رأيتها.
- ماذا؟
- لقد تجسست على أخي ورفاقه ورأيتها، إنها براقة، تشبه... تشبه..

- قالت عريب تقاطعها:
- تشبه الجلي، ولونها فضي وهي لا تتحمل الحرارة على الإطلاق.
- هذا صحيح هل رأيتها؟
- نعم، أحد الشبان فرك أصابعه وهي مدهونة بتلك المادة فانفجرت وآذت يده، إنها خطرة.

صمتت سمر وكأنها تبحث عن خبر من نوع آخر، فقالت سلام:

- أنا أعرف خبراً، إن الكبار قد تسلحوا بأسلحة حقيقية، لقد حصلوا على آر بي جي وبضع كلاشنكوفات وبنادق، فخمنوا ما حصل، لقد تسلح الاصغر سناً، الشباب الذين في مثل سننا أيضاً بالأكواع والزجاجات الحارقة، وقد التفوا حول الكبار يصاحبوهم أينما يذهبون ويعملون على إمدادهم بكل ما يلزم ومساعدتهم بكل شيء.

قالت دعاء وقد بدا أن فكرة جديدة قد داهمت رأسها:

- نعم، إنهم يجمعون الألعاب النارية ايضا، وقد صمموا على استخدامها لدب الفزع في قلوب الجنود، هل سنكتب ذلك أيضاً؟

صمت الجميع من جديد فجاء صوت العم أبو إسحق قائلاً بسخرية:

- لا تحترن في أمركن، اكتبن عن الجيش القادم وتسليحه، لم لا تقلن الحقيقة؟

نظرت البنات نحو أبي إسحق بحياء، وبدى أن كل منهن تريد العودة لمنزلها فقالت سمر:

- حسناً، أيتها الصديقات لنكتب الأخبار على ورق، ولنرى ما سنفعله بعد ذلك، أراكن مساء.

انطلقت البنات من أمام منزل سمر التي ابتسمت للعم أبي إسحق وسألته:

- ماذا بك؟ أراك متشائماً.

- وهل هناك سبب للتفاؤل، إنني أتجول كل يوم في المخيم لأودعه.ثم ما هذه الاخبار التي تكتبوها؟ انها ليست اخبار انها اعمال جماعية للمخيم، الجميع يعلم بها حتى الجيش الاسرائيلي
- يا لطيف يا عمي، لم كل هذا؟ نحن اليوم في حال أفضل من حالنا في الإجتياحات الأربعة السابقة، والجيش كما تعلم قد عجز عن دخول المخيم في كل مرة، فكيف اليوم ونحن مسلحون؟
- مسلحون بماذا؟ ها، أين الآليات والدبابات، أين الطائرات التي ستواجه الأباتشي والكوبرا، أين الصواريخ الموجهة، أين الآلاف من الجنود المدججة بالأسلحة كتيبة تساند كتيبة، ماذا جرى لهذا المخيم؟ ألم يعد فيه أحد عاقل؟
- وكيف تريد أن نتصرف إذن، هل نسلم الشبان المطلوبين للجيش؟

صمت أبو إسحق وبدأ يتأفف ثم قال وقد ازداد بروز تفاحة آدم من عنقه، هو يشدد على عباراته الغاضبة:

- لا أحد يفهم، إن الإجتياحات الأربع الفاشلة السابقة، جعلت العالم أجمع العرب قبل الغرب يقولون لإسرائيل، ما الذي يؤخرك عن إبادة هذا المخيم؟ إنه مجرد مخيم وأنت الدولة ذات الجيش الذي لا يقهر، عليكم كسر شوكة هذا المخيم بأية طريقة، الا تفهمين يا سمر كيف ستصبحين صحافية وأنت لا ترين الوجه الحقيقي للعالم.
- ولكن يا عم.
- يا ابنتي إن استطعت أن تهربي، فافعلي.

سار أبو إسحق بضع خطوات للأمام يحمل هموم العالم على كتفيه، ثم توقف، نظر لأقدامه لبرهة ثم أعاد النظر لسمر وقال:

- أتدرين ربما لا أراك بعد اليوم، فدعيني أخبرك شيئاً لعلك تستطيعين أن تقوليه يوما للعالم.

شعرت سمر في تلك اللحظة بأنها كبرت عشر سنين إضافية، وهي تجلس على عتبة المنزل وتراه يهبط بجانبها ويقول:

- اسمعت بالمقولة الجائرة "شعب بلا أرض وأرض بلا شعب".
- بلا.
- أتدرين ما يعني هذا؟
- يدعون إنهم شعب مشتت لا أرض خاصة له وقد وجدوا فلسطين أرض فارغة دون شعب.
- إذن الا تسألين نفسك لم أو كيف يتجرأون على ادعاءٍ كهذا؟ لقد كان هنا شعب وملك، كل العالم يعرف ان المقولة كاذبة ومع ذلك...إنهم على اتفاق مسبق مع العالم ضدنا.
- العالم أجمع أيها العم! الا يوجد من يعقل في هذا العالم.

ابتلع أبو إسحق ريقه وتلفت يمنة ويسرة كأنما لم يعجبه الجواب، ثم نظر نحوها بهدوء وأكمل:

- لقد تم تفريغ الأرض من أهلها يا ابنتي، هكذا وبكل سهولة وبأيد عربية.

قالت سمر وقد أغضبها لومه للعرب:

- كيف ذلك اثبته لي؟
- نعم لقد اتفقوا على أن يتقاسمونا كل دولة عربية تأخذ منا قسماً، ثم تجرف الأرض وتمحى آثارنا ويبدأ الوجود الصهيوني بالتمكن.

كان كلام أبي إسحق كالكفر في نظر سمر، ولكن نبرة الصدق في صوته، وذاك الألم المنبعث مع كل كلمة يقولها جعلها تصمت وهو يكمل:

- إن مخيمات اللجوء لا تزال موجودة في سوريا ولبنان والأردن والعراق وحتى في ليبيا.
- يا عم لا يمكننا أن نلوم الغير على أخطائنا لقد ، لقد كان واجبنا نحن الدفاع عن الارض حتى الموت

نهض العم عن الأرض وكأنما يئس من إيجاد من يفهمه ثم قال:

- لعلك إذن تجدين تفسيراً لدخول عربات الجيوش من تلك الدول بلا جنود، عربات فارغة وصلت إلى كل تلك القرى المهجرة، وبقلب مثل قلبك صدق الناس أنهم جاؤا لنجدتهم، فهم الاخوان العرب أليس كذلك؟ لقد أقنعوا الناس بأنهم سيستضيفوهم في بلدهم لمدة أسبوع، يطردون فيه المحتلون ثم يعيدونا لديارنا سالمين. إسألي جدتك كيف صدف وأن هرب كل أهل قريتها معاً إلى العراق، ليس هناك نفر من قريتهم سواها إلا في العراق، ستخبرك عن سيارات الجيوش العراقية التي حملتهم إلى هناك. اسألي اهل مخيمات سوريا، لم يصدف ان يكونوا اهل قرية واحده، كيف وصلوا جميعا اليها ؟ بالقطار بالطبع حملهم ذهابا دون اياب، اسألي كل اهل المخيم وسيخبروك قصصهم، كلنا رأينا عربات الجيوش العربية تحمل الناس ولكن احدا لم يشعل حربا

أشاح أبو إسحق بوجهه جانباً، فخيل لسمر أنه يداري دموعاً فرت رغم التصبر، ولم تتوقع أن يثور فجأة ويقول وأقدامه تجر حذاءه مبتعدا:

- اين سأجد من يفهم الكلام ؟ لقد كان لنا بلاد، لقد كان لنا حياة، كان لنا بساتين وأراضي، لم يكن اسمنا قط «اللاّجئون» أو «أهل المخيم» لم يكن عدلاً أبداً أن نبقى قرابين نذبح لستر المؤامرات.

انطلق أبو إسحق بطريقه، فأخذت سمر نفساً عميقاً وهي تغلق باب المنزل خلفها، وقد أحست بقلبها يخفق بطريقة مختلفة وقد انتابها شيء من الإرتباك بسبب ما سمعته من العم، تفكر فيه وتقلبه في رأسها، ماذا لو كانت تلك هي الحقيقة؟ ماذا لو أن الدول العربية فعلت ذلك بنا ؟ لا لا اظنه يضخم امورا لا وجود لها، انه يهذي، لقد جن ذلك العجوز بالتأكيد

رن الهاتف في يدها رنة تخبر عن رسالة وصلت، إنها من وليد، لا زال

يتفقدني كعادته، إنه يقول... إنه سيأتي إلى المخيم، هل جن؟ ماذا يقصد؟ «لن أتركك وحدك سأكون مع المدافعين».لقد جن الناس في هذا النهار على ما يبدو

مر النهار في ذلك اليوم ببطء شديد، بين انتظار عودة صفاء إلى انتظار عودة الخالة، والتفكر برسالة وليد..

عادت صفاء ببعض البرازق من عند ام علي، ووضعت الصحن امام الجدة تتغزل بصنع يديها، وراحت تطعم اخاها الصغير وهي تتضاحك وتتراقص وكأنها استطاعت لبضع لحظات ان تنسى ما يهدد المخيم وما ينتظره، وبين الحين والاخر كانت تتلاقى عيونها بعيون سمر بتساؤل وتضاحك، اين يختفي البرازق؟ ايعقل ان تأكل الجدة كل تلك الكمية؟ وما حكاية تلك الصرة التي تتفقدها الجدة كل لحظة بحرص شديد ولا تسمح لاحد بأن يلمسها؟

أتى المساء هادئاً تلك الليلة، وقد استسلم كل من في البيت للنوم الا عيون صفاء، فقد كانت أصوات المتراكضين تحت نافذتها ينبئ بحدوث أمر كبير، تصايح الشبان ونداءاتهم، حتى سمعت أحدهم يقول:

- إنها الآليات والدبابات، إنه الإجتياح.

ولكن ما لم تكن صفاء تعلمه، أن ارتال من الآليات الحربية الإسرائيلية قد تحركت في تلك اللحظة، مئات من الدبابات في مختلف مداخل المخيم. بل مئتانعلى كل مدخل، ان المخيم لا يتسع لكل تلك الاعداد فكيف ستخطر ببالها، أصوات الإنفجارات أيقظت أشياء كثيرة غير الأطفال والخوف، فوداع الأمهات لأبنائهم تلك الليلة كان مختلفا، والتوجه بالأدعية كان بإيمان مختلف. وحتى صوت الإنفجارات بدى مختلفاً أيضاً.

استيقظت الجدة فجأة على دوي إنفجار قوي وصاحت بملىء فيها:

- لقد وصلوا، علينا أن نغادر القرية بسرعة.

ضغطت الجدة على يد صفاء بشدة وفي اليد الأخرى حملت صرة كانت تحافظ عليها طوال المدة السابقة وقالت:

- علينا أن ننطلق بسرعة، إنهم يضربون منازلنا بالمدافع.

أخذت سمر تبسمل وتحاول استيعاب ما يجري، ولكن أصوات الإنفجارات كانت في تزايد وصوت الجدة كان يزداد حدة وهي تردد:

- سيذبحونا، لقد ذبحوا أهل القرية المجاورة ولم يبق سوانا، سيذبحونا إن لم نهرب.

في حين جاء صوت سلمان وهو يشد بنطال سمر:

- لا تغادري المنزل، انا خائف ابقي معي

كادت صفاء في تلك اللحظة أن تصك وجهها، وتهبط على الأرض باكية، لولا أنها رأت سمر وقد توجهت للحمام وهي تقول:

- اليوم: الأربعاء، التاريخ: ٣-٤-٢٠٠٢، الساعة.

ثم نظرت نحو صفاء وسألت:

- هل أذن الجامع لصلاة الفجر، أم أن الصلاة اليوم محرمة.

هدأت صفاء قليلاً وأخذت تربت على جدتها بيدها وهي تقول:

- سنهرب معاً في الوقت المناسب إذا لزم الأمر.

علا صوت سمر:

- هل أذن الصبح؟

لم تجبها صفاء ولكنها حمدت الله على قوة أعصابها، وعلى كونها مصدر عون لا مصدر إرباك رغم صغر سنها. تابعت سمر سيرها نحو الحمام وهي تهمهم:

- لم أعرف إن كان أذن المسجد أم لا، لو أن أبا إسحق هنا لأجابني.

لم يكن يخطر ببال سمر أبداً، أن أبا إسحق في تلك اللحظة أيضاً كان ينظر من نافذة منزله نحو «مسجد عمر بن الخطاب» ويقول:

- ليتك ترين ذلك يا سمر، إن الجنود قد دخلوا المسجد، وهم يقنصون الناس من نوافذه.

صاح أبو إسحق فجأة، وابتعد عن النافذة وهو يرى القناصة يقتل شاباً ماراً في الطريق، ثم يستهدف جاره الذي أطل من النافذة فترديه هو الآخر.

هبط أبو إسحق على الأرض، وإذا بالرصاص يخترق نافذته ويستقر في الحائط المقابل.

عرف أبو إسحق أن هذه الحرب، لن تفرق بين حامل سلاح أو عجوز يقبع خلف ستائر غرفته الصغيرة، وأن الموت سيكون من نصيب أي شيء متحرك دون تمييز.

بدأ القتل يتوالى منذ اللحظات الأولى للإجتياح، وبدأت محاولات الجيش لدخول المنازل ضمن فرقها المؤلفة من خمسة أفراد في الفرقة الواحدة تظهر هنا وهناك.

زحف أبو إسحق نحو خزانته، وسحب بيد مرتعشة بنطاله وقميصه وبدأ يغير ثيابه بسرعة، وما إن انتعل حذاءه وهم بالوقوف لتناول سترته حتى عاد الرصاص لينهمر نحوه.

ركض أبو إسحق وسترته لا تزال بيده، وفتح الباب وهرول خارجاً من منزله بذعر، ليجد نفسه فجأة بين شباب يتربصون بالجيش، متكئين على حائط المنزل، صاح بهم:

- ابتعدوا من هنا، إنهم يستهدفون المنزل.

سحب أحدهم أبا إسحق، وأشار للجميع بالإبتعاد.

ركض الشبان ليتداروا خلف منزل آخر في حين سأل الشاب أبا إسحق.

- هل هناك أحد في المنزل؟
- لا، لقد غادروه الليلة، هربوا.

لم يعلق الشاب وإنما قاد أبو إسحق معه خلف الشباب وقال:

- ربما يقصفون البيت الآن.

وما إن أكمل الشاب جملته، حتى دوى صوت انفجار كبير، لقد دمر منزل أبي إسحق.

سحب الشاب أبا إسحق إلى أحد حيطان المنازل وقال له:

- ابق هنا، أو أدخل أي منزل.

ترك الشاب أبا إسحق وتبع المجموعة ولكن أبا إسحق فرك وجهه بكفيه كمن يريد الاستيقاظ من كابوس مرعب ثم نظر حوله، فلم يجد لنفسه بداً من اللحاق بهؤلاء الشبان والبقاء معهم.

ركض أبو إسحق خلف الشباب، ودخل الزقاق وراءهم ثم هبط عند ساقيه يلتقط أنفاسه وقال:

- سأبقى معكم.
- ياعم، سآخذك إلى منزل أحدهم.
- لا، كل المنازل معرضة للنسف.

بدأت المجموعة فجأة تكبر وتصيح «الله أكبر، الله أكبر»، وبدأت بإطلاق النار نحو مجموعة من الجيش الإسرائيلي كانت تحاول اقتحام أحد المنازل.

رفع أبو إسحق هامته، وأحس بأن ظهره قد قوي فجأة، وبأن هذه الصفعة للجيش خير رد على قصف منزله، قال أحد الشباب:

- لقد هربوا من هناك.

عادت المجموعة للتسلل خلف الجدران، فعرف أبا إسحق أنهم بصدد منع الجيش من التمركز في المنازل واقتحامها على أهلها، فصمت وقرر رغم شح الضوء المتوافر مع فجر ذاك الصباح أن يراقب الزقاق معهم ويساعدهم قدر المستطاع.

ظل الصبح رغم الغيوم الكثيفة مصرا على تجليه، متحديا تلك الأمطار الهابطة على الأرض على استحياء دون صخب أو ضجيج، وكأنما نزلت ساجدة تقبل الأرض تحت أقدام اهل المخيم، وظل الشبان يفشلون محاولات الجيش باقتحام المداخل والتوغل في البيوت رغم كل تلك الأسلحة المسلطة عليهم دون توقف.

هدأ المطر قليلاً وبدأت أشعة الشمس تحسن الرؤيا لدى الجميع واستمرت أصوات الإنفجارات بالتتابع.

ظل أبو إسحق ضمن المجموعة دون أن يتعب تفكيره بمعرفة هذا أو ذاك، أو التحقيق في وجه فلان ليعرفه ابن من يكون، رغم أنه خبير بهذه الأمور بحكم عمره الذي ابتدأه في بلاد الخير التي فر منها وحضوره بكامل وعيه وشبابه لإنشاء هذا المخيم الشقي، كما يسميه.

لم يعد يشكل أي فرق ابن من تكون، أو هل أنت من سكان المخيم أم من خارجه، لم يعد يهم اسمك أو اسم عائلتك، ما يهم اليوم هو شيء واحد، ماذا تستطيع أن تقدم لأجل المخيم في رأي ابي اسحق

كان أبو إسحق يرى بعض الشباب يخرجون الهواتف النقالة بين الحين والآخر ويهمسون فيها، فازداد صدره انشراحاً، إنهم على جميع الأصعدة على اتصال، إن الأخبار تأتيهم من كل مكان، فهم بناءا على كثير من المكالمات، كانوا يقررون توجههم بأسلحتهم وكمائنهم.

أطل الصبح بوجهه المتجهم، ولم يدر أبو إسحق كيف أصبحوا فجأة في حارة السمران، إنهم في أول الحارة من الجهة الغربية، القصف هنا قليل والمواجهات تكاد تنعدم، الناس تتجمع في غرفة معينة من المنزل ولا أحد يسمع لها صوت.

قال أحد الشبان بعد أن جلسوا على الأرض لأخذ قسط من الراحة:

- علينا أن نتوضأ وننطلق إنه ليس اجتياح إنها الحرب.

مسح أبو إسحق بكفه على صدره، وكأنه يتفقد فؤاده بعد كل ما جرى، القصف لا يزال على أشده، وساعات الصباح تتوإلى على روتين واحد من أصوات الصواريخ تستهدف البيوت ايا كانت، والقنابل تنفجر في الطرقات والزقاق، والقنص بابنادق والطائرات الحربية، الجيش لا يزال يحاول اختراق المدخل، وأهل المخيم لا يزالون في مناعة من ذلك، نظر أبو إسحق في تلك الوجوه المتعرقة رغم البرد من حوله، ونظر نحو الدبابات التي تزمجر على المداخل، إنها دبابة المركفا الشهيرة، التي لا يمكن تدميرها كما يقولون، فما العمل، نظر أبو إسحق إلى الشاب الذي يقود المجموعة « انه طوالبة احد الشبان المطلوب تسليمه للجيش، يا لحظك ايها العجوز

أقفل طوالبة هاتفه وقال:

- علينا العودة لمساعدة فرقة أبو جندل، إن الجيش مصر على الدخول من ناحية الجابريات كما يبدو.

كبر الشباب بصوت واحد ولحقوا بطوالبة في حين سار أبو إسحق خلفهم ببطء ولم يعرف ما عليه فعله، فقد رفع نظره صوب المنازل في المخيم من موقعه المرتفع في الجابريات، ليرى معظمها قد أصيب بالصواريخ الموجهة، إما من الدبابات وإما من الطائرات التي تؤازرها، التصق أبو إسحق بجدار أحد البيوت وهو يرى طائرات الأباتشي تحوم فوقه، شهق أبو إسحق وركض في كل الاتجاهات لا يدري من أين أتته تلك القوة وهو يتمتم:

- ستموت يا أبا إسحق، إنهم لا يرون سواك اليوم.

لم يجد أبو إسحق بداً من فتح باب أحد المنازل والدخول فيه، وكم كانت دهشته كبيرة حين وجد نفسه بين جماعة أبي جندل، نعم إنه يعرف هذا الوجه، إنه يعرف أبو جندل، وقبل أن يكمل تأمل الوجوه سأله أبو جندل:

- هل كانوا يطاردونك بالقصف؟
- نعم.

فصاح بالمجموعة:

- أخرجوا على الفور.

لم يتجه أحد نحو باب المنزل كما ظن أبو إسحق، وإنما انطلقوا من فتحة في الجدار وخرجوا منها إلى المنزل المجاور، سحب أبو جندل أبو إسحق، ودفعه بلطف من الفتحة وغادر بعده، وماكادوا يخرجون حتى استهدفت الطائرات المنزل بقذيفة فجرته عن بكرة أبيه.

صاح أبو إسحق:

- أيها التعيس يا أبا إسحق كم مرة نجوت من الموت اليوم.

ركض أبو إسحق خلف الشباب وقد انتبه إلى صوت انفجار كبير يدوي، لقد كان انفجاراً مميزاً، لم يدر أبو إسحق ما ميزته ولكنه حين وصل المجموعة

وجدهم يحمدون الله ويهنئون بعضهم بعضاً، ثم التفت أحدهم إليه وقال:

- لقد فجرنا دبابة مركفا، لقد فجرناها بلغم كبير من صنع طوالبة.
- الحمد لله، الحمد لله.

عاد أبو إسحق ليرفع هامته عالياً، ولكن العطش كان يبدو واضحاً من لهاثه المتواصل فقال أبو جندل:

- الآن، لنخرجهم من هنا، لنركز على القناصة المتمركزين في هذا المدخل.

انطلق أبو جندل بالمجموعة، وظل أبو إسحق ينظر إليهم وهم يتراكضون، يكرون ويفرون من أمام المنزل المجاور ويطلقون ضرباتهم نحو فرقة من الجيش والقناصة.

كانت تكبيراتهم تهز فؤاد أبي إسحق بقوة، وتأخذه إلى أرض العزة والنصر لبرهة ثم تعيده إلى حقيقة المخيم والقهر، يشعر للحظة بأنه بطل ضمن فرقة شجعان مسلحة، ثم يفتح عينية على حقيقة عمره الذي ضاع بين غابات الإسمنت وزقاق المخيم دون أن يفعل شيء لأجل عودته،والآن ومع هذه اللحظات الحاسمة لا يزال عاجزاً، لا يملك الا أن يبتهل لله بنصر هذه المجموعة الصابرةكما يسميها

أغلق أبو إسحق عينيه وضغط على أذنيه، وهو يسمع بين الحين والآخر صوت وابل من رصاص القناصة الإسرائيليين وقد سلط بقوة ولمدة طويلة على أحدهم، من المؤكد أن أحد أفراد مجموعة أبي جندل قد سقط شهيداً، أو ربما أكثر من واحد، ضغط أبو إسحق على رأسه، يريد لهذا الجحيم أن ينتهي دون فائدة، صاح أبو إسحق وشتم وأعاد النظر ولكن تلك الاصوات كانت لا تنتهي، عاد ليغمض عينية عله يصل إلى الهدوء المرجو ولكن إطلاق النيران كان يستمر في كل مرة لأكثر من ربع ساعة متواصلة.

شهداء في كل مكان.. لم يكن هناك وقت للعزاء، ولا حتى لتبادل الحديث،وإنما كانت العزيمة القوية قد وحدت لغة التفاهم بين المجموعات المقاتلة بمجرد النظر.

أطل بعض الأشبال من خلف الجدران على مجموعة أبي جندل فقال أحدهم:

- إن الجيش أصبح يرسل فرقة بأعداد كبيرة، يعدون حوالي أربعين إلى خمسين جندي في الفرقة الواحدة وقد بدأوا يدخلون البيوت، الطائرات تمشط لهم المنطقة، عليكم بالإبتعاد من هنا على الفور، ونحن سنبقى هنا سنضربهم بالأكواع والزجاجات حتى تبتعدوا.

أشار أبو جندل إلى رفاقه وقال:

- علينا أن ننال منهم هذه المرة.

قال أبو إسحق وقد اعتاد مطاردة الموت له:

- هل أفرغتم المنازل من سكانها؟

لم يعلق أحد على كلامه وإنما استمر الجميع بالتحرك من منزل لآخر، قبل أن تكشفهم الطائرات.

قارب اليوم الأول على الإنتهاء، وكان تركيز الجيش على المدخل الغربي مكثفاً أكثر من أي مدخل آخر، دون إحراز أي تقدم ملحوظ، وعاد الليل ليلف جنين بعباءته السوداء من جديد، فأخفى الكثير من تحركات المجاهدين عن عيون الجيش وستر تنقلاتهم، فكثف الجيش صفه وزاد صواريخه الموجهة حتى أضاءت منطقة الجابريات بنيران القصف كما النهار وازداد الفرار من المنازل المهدومة إلى أخرى آمنة رغم أن القصف لم يترك زاوية آمنة في المخيم.

كانت سمر تجلس بجانب صفاء في ذاك الفراش المتروك قرب الجدة تنظر اليها عبر نور الشمعة الضعيفة، ولم تكن تدري رغم ارتدائها لأكثر من بنطال

وأكثر من بلوزة لم لا تزال ترتجف برداً، كانت ضفيرتاها في ذلك اليوم على غير عادتهما فالشعر قد فارقهما وخرج عن السيطرة ليقف كما الإبر على طول الجديلتين، وكأنها لم تمشط شعرها منذ أسبوع، التصقت بصفاء وهمست سائلة:

- لماذا لم تغلقي الباب بالمفتاح؟
- لقد قال أبي إن الجيش إذا وجد الباب مقفلاً ينسفه بالقنابل.
- إذن سيدخل الجيش إلينا بأي وقت؟
- لا أدري، ألم تلبس جدتك بنطالها الصوفي تحت ذاك الثوب.
- بلا، وألبستها وتلك البلوزة الصوفية أيضاً، والبست سالم ايضا لم تسألين؟
- إني أراها ترتجف.
- همهمت سمر وكأنها تعلن حقيقة مرة على خجل.
- ومن منا لا يرتجف؟

ضمت صفاء ابنة خالتها الصغيرة إليها وكادت تبتسم، لو لا أنها لم تجد ابتسامتها في تلك اللحظة، ولم تعرف أين اختفت.

وبينما هما في ذلك الحال إذ فتح باب المنزل وسمعت أصوات أقدام تدخل، وإذا بأم علي تنادي وهي تقفل الباب:

- أين أنتم، سمر، سمر.

كاد قلبا الفتاتين أن يتوقف عن النبض من الخوف، وتلون وجهيهما باللون الأصفر، ولم تجد أي منهما صوت ترد به على الجارة، ولكنها دخلت الغرفة وقالت باكية:

- ألم تسمعوا الإنفجار، لقد قصفوا منزلي، لقد اشتعلت النار في الستائر والأثاث، لقد كنت قبل الآن أقول لولدي لا تذهب مع الشباب وابق معي،

أما الآن فأنا أريده أن يحرق الأرض تحت أرجلهم، أن يحرقهم كما أحرقوا المنزل.

هبطت أم علي بجانب الفتاتين على الأرض وأخذت تبكي بمرارة في حين قالت الجدة:

- لم يبق سوانا، قرية جبع آخر قرية فرغت من سكانها، لقد تركوا «حمدان اللمون» في المغارة وهربوا لأنه مسن.

مسحت أم علي دموعها وقالت وهي تضرب بيديها على فخذيها.

- اسمعا، إنها تهلوس بأيام جبع، أي مغارة يا حجة؟

قالت الجدة بصوت مرتفع وكأنها قررت أخيراً الإعتراض على ما يجري:

- لقد وضعوا له الماء وبعض الطعام، وتركوه في مغارة المرشقة. هذا لا يجوز.

علت أصوات القصف وازدادت، فصمتت أم علي وصمتت الفتاتان في حين قالت الجدة مبتسمة:

- المنسي، نعم، المنسي والبياضة ثم عين التينة ثم المناطير والموارس، الطويل، الكحيلة والجدايل ثم السكيعة ثم البصيلة.

قالت سمر وهي ترتجف:

- ما هذه الأسماء؟
- قالت أم علي بثقة كأنها تعرف كل شيء:
- إنها أسماء القرى التي مرت بها حتى وصلت إلى هنا، دعوها تتحدث فإنها تؤنسنا في هذا الإرهاب المنصب علينا.

عاد الجميع للصمت وصمتت الجدة، في حين مدت صفاء يدها تحت سرير الجدة وأخرجت بعض أقراص البرازق وقدمته للجارة قائلة:

- لعلك لم تأكلي طوال النهار، تفضلي فإنه من خيرك.

قالت أم علي:

- سبحان الله، لم يكتب لي أكل ما في منزلي وكتب لي أكله عندكم. ليس لدي شهية لشيء.

رغم الجوع المخدر في أمعائها لم تجد أم علي رغبة بالأكل، فوضعت قطعة البرازق في جيبها، والتزمت الصمت بعد أن أنهكها الحزن والبكاء. أما سمر فقد بدأت تجد ساعات الليل طويلة جداً وهي لا تستطع إيجاد لحظة نوم أو راحة.

ظل القصف في تزايد حتى صباح اليوم التالي، لاحظت أم علي أن أصوات الإنفجارات قريبة جداً من المنزل فقالت لصفاء:

- اسمعي يا ابنتي، علينا مغادرة هذه المنطقة.
- وأي منطقة في المخيم لم تصب؟
- سأغادر الان، واستطلع الامر،ولن أتأخر، يجب أن أعرف أي فرصة لنا بالنجاة، وأحاول وصول منزل ولدي الآخر، في المنطقة الشرقية، سأرفع منديلي كراية بيضاء وسأمر، سأعود لاصطحابكم إن منزلكم بات ضمن مرمى الدبابات، البيوت كلها قد أصيبت من حولنا فلماذا، ننتظر؟

انتاب صفاء الخوف، وهي ترى أم علي تربط رأسها بمنديلها الأبيض وترفع طرفه بين أصبعيها وتغادر المنزل، فهي لا تدري ما العمل الآن، ولا تعرف إلى أين أو كيف ستخرج بالجدة وابنة الخالة الصغيرة، وذاك الطفل سلمان، كان منزل أم علي ذو الطوابق الثلاث يحمي منزل خالتها بعض الشيء ولكن أحداً لا يعرف ما سيكون بعد ثانية من كل لحظة، همت صفاء باستشارة سمر، ولكن صوتاً قوياً دوى فجأة وأشياء ثقيلة هبطت على سطح منزلها، ارتعدت مفاصل الفتاتين في حين عادت الجدة لتقفز من فراشها وتقول:

- علينا أن نهرب الآن، إنها المدفعية، سيذبحوننا الآن كما ذبحوا أهل دير ياسين.

بدأت الجدة بلبس حذائها، في حين أسرعت صفاء لتفتح الباب بتأن لاستطلاع الأمر، فوجدت أن منزل أم علي قد بدأ بالسقوط فوق منزلهم، وعرفت أنه لن يصمد كثيراً بعد الآن. قالت صفاء دون أن تفكر:

- هيا يا سمر إلبسي حذاءك وألبسي سلمان سنهرب.
- إلى أين؟
- إلى أي مكان، هيا.

صاح سلمان الذي لم يتجاوز التاسعة من العمر:

- لا، لا تخرجي من المنزل لقد وعدت صديقي حمدان أن أصمد هنا أو أموت.

ضمت سمر رأس سلمان ولم تجد مفراً من البكاء. قبضت الجدة بقوة على صرة أشيائها وقالت:

- هيا، أروني أول الطريق، وأنا سأدلكم على بلدنا.

أمسكت صفاء بيد الجدة، وسارت بها تخرج من المنزل في حين أمسكت سمر بيد سلمان وقد اصطك فكاها برداً وخوفاً، نظرت سمر إلى الجدران التي كانت بمثابة صفحات لجريدتها وقد أصيبت بالكثير من الحفر بسبب رصاص الطائرات، وإلى البيوت المتكئة فوق بعضها وكانها كاصحابها ملت الاجتياحات والتهديدات المتلاحقة عبر الأشهر التي توالت عليها.

ابتلعت سمر ريقها وقد اختنقت الكلمات في حلقها، لم تستطع تذكر اليوم أو التاريخ، ماذا كان الامس ؟

الجدة تشد على يدها وتصيح كلما اشتد القصف، والقصف لا يتوقف أبداً.

- اليوم الخميس، التاريخ: الرابع من شباط لعام الفين واثنين. فتحت

جريدتنا لهذا اليوم.

لم تسمع صفاء ما قالته ابنة خالتها لشدة القصف ولكنها سمعت الجدة وهي تقول:

- إن المدافع قريبة، يبدوا أنهم قصفوا المدرسة، المدرسة الوحيدة في جبع، المدرسة الأميرية، لقد هدموها.

سحبت صفاء يد الجدة نحو الزقاق واستمرت بالسير لا تدري أين تتجه، إلى أن رأت منزلاً مفتوح الباب دفعته برفق وقالت:

- أيوجد أحد في الداخل؟

دخلت صفاء وأدخلت الجدة وسمر وسلمان على استعجال، فوجدت المنزل قد فرغ من أصحابه، توجهت سمر نحو غرفة منزوية وقالت:

- لنجلس هنا ونرى ما سيكون.

قالت الجدة:

- أريد ماءاً.

لم تعرف صفاء بم تجيبها ولكنها أسرعت لتبحث عن المطبخ علها تجد به بعض الماء، فوجدت عدة زجاجات قد ملئت وتركت على جانب من المجلى، حملت واحدة وعادت مسرعة لجدتها، وساقاها يصطكان من الخوف، شدت صفاء المنديل على رقبتها وجلست، في حين بدأت سمر تفرك ذراعيها بكفيها طلباً للدفئ، أما سلمان الذي بدى غاضباً، فقد التزم الصمت، ضمت صفاء الصغيران وسحبتهما إليها وقالت:

- ليكن الله في عون أهل الجابريات.

ناولت صفاء زجاجة الماء للجدة بعد أن فتحتها، وتركتها تشرب بعد أن جلست على سرير حديدي، في حين هبطت وسمر وسلمان على بعض الفراش

المكدس في زاوية الغرفة وكأن أهل هذا المنزل كانوا على عجل من أمرهم فرموه في الزاوية وانطلقوا.

انتصف النهار والشقيقتان ترتجفان في زاوية الغرفة في حين بدت الجدة أفضل حال منهما وهي تلاطف سلمان. قالت صفاء:

- أعتقد أن جدتي لا تسمع شيئاً مما يجري، إنها تعيش في عالم آخر.

قالت سمر:

- ماذا تراها تفعل؟ ما هذه الأصوات؟

انتبهت صفاء لوقع أقدام في مدخل المنزل وهمت بإستطلاع الأمر، ولكن شاباً دخل عليهم فجأة بجسد منهك وقال وهو يرفع يده أمام وجهه وكأنه يعطيهم الأمان:

- سأغادر على الفور، لا عليكما فقط سأرتاح قليلا.

جلست الجدة فوق السرير، وألقت بالزجاجة نحو الشاب وصمتت. شرب الشاب قليلاً، ثم وضع الزجاجة ومد ساقاه أمامه وألقى بظهره ورأسه إلى الحائط وقال:

- لعن الله الاحتلال، إن الشهداء في كل مكان، لقد كنا أكثر من عشرين شخصاً في المنزل، هنا قريباً منكم في حارة الحواشين، وإذا بالقذائف تقتحم علينا المنزل، هربنا بسرعة قبل أن تطالنا الصواريخ إلى منزل آخر، كنت متطوعاً مع عدد من الأشخاص لإسعاف الجرحى.

هز رأسه باستهزاء ثم أكمل:

- ظننا أننا سنستطيع ذلك، ظننا أن الجريح كما سائر جرحى المعارك في كل مكان من حقه أن يسعفه أحد، ولكنهم كلما رأوا أحداً يريد إسعاف أحد قتلوه فوقه.

صمت الشاب، فقالت سمر وكأنها تمارس هوايتها الصحفية:

- وهل أنقذت أحد؟

حاول حسن أن يلف عنقه لينظر إلى سمر وهو يقول:

- ماذا؟ لقد حاولت لقد رأيت محمد رغم أنه مصاب يحاول سحب جثة طارق، قررنا مساعدته ولكن قناصاً متمركزاً في الجابريات.....

ضرب حسن كفه على بلاط المنزل وأكمل:

- في الجابريات، على مسافة كبيرة ومع ذلك أطلق عليه وقتله.

مسح حسن وجهه بأكمامه، فعادت سمر لتسأله:

- إذن..
- إذن ماذا؟
- كيف حاولت مساعدته؟
- لقد استطعنا أن نسحب جثة محمد ولكن جثة طارق ظلت هناك على الأرض، إنهم لا يطلقون رصاصة واحدة مثلنا، إنهم يطلقون وابل من الرصاص.

هدأ صوته قليلاً ثم أكمل كأنما يحدث نفسه:

- ولم لا، فالعالم جميعه يمدهم بالسلاح.

نهض حسن عن الأرض فجأة، ورفع ظهره ورأسه للأعلى بحركة عفوية وكأنه يملأ صدره بالأكسجين قبل أن يخرج مهرولاً بين الزقاق، رافعاً يده بحركة تلويح بسيطة لهم.

قالت سمر وقد تذكرت العم أبو إسحق في منطقة الجابريات:

- أتظنين أن العم أبو إسحق لا يزال هناك ولم يهرب أم تظنيه أصيب؟ أم أين تراه يكون الآن؟

شدت صفاء سمر إلى صدرها وقالت:

- أينما يكون ليكن الله معه ومعنا جميعاً وخاصة هؤلاء الشباب الذين يواجهون القصف.

صمتت سمر وأحست بأن النعاس قد أثقل رأسها وظنت أنها لربما تستطيع النوم بعد أن اعتادت أذانها أصوات الإنفجارات فرمت رأسها على كتف صفاء وأغلقت عيونها.

كانت عيون أبي إسحق محملقة وهو يستمع إلى القرارات الجديدة، والخطط المتغيرة لدى مجموعة أبي جندل، فبعد أربع وعشرون ساعة من الكر والفر، لزم إعداد تكتيكات جديدة لحسم الأمر مع الجنود، قال أبو جندل:

- سنقوم اليوم برصد الجنود وعمل الكمائن لهم وقتلهم سنرصد الفرقة كلها ونفاجئها ونقضي عليها، لهذا تسلحنا ولهذا تعاهدنا على الشهادة.

غادر الخوف أجساد الشبان بعد أن أيقنوا أنهم وسط معركة لا رحمة فيها، وأنار في عيونهم حب الشهادة أو النصر، وانطلقوا خلف قائدهم للبدء في التنفيذ، وصلت الأوامر إلى جميع الشبان في شتى أنحاء المخيم، ولم يكن أحد منهم يدري أن الجيش أيضاً قد اتخذ خططاً جديدة، فالجنود لم تعد تتسلل إلى المنازل ضمن فرقة مشاة كالسابق، وإنما أصبحوا يختبؤون في دباباتهم ويتنقلون بها، فإذا ما وصلت الدبابة إلى أحد المنازل المطلوبة الصقت بابها بجداره، وبدأ الجيش بفتح ثغرة في الجدار بواسطة قصفه بالنيران وهم لا يزالون في دباباتهم، وبعد ذلك يدخل الجندي منهم رشاشة ويبدأ بصلي الغرفة بالنار، حتى يتأكد أنها قد خلت من الأحياء، وبعد كل تلك الإحتياطات يطل برأسه من الثغرة ويقتحم المنزل فتتبعه فرقته بكامل عدتها وعتادها وأكلها وشربها وحتى حلوياتها، كل شيء موجود ضمن ذاك الزي الذي يرتدونه وما عليهم سوى مواجهة هؤلاء الشبان وقتلهم.

كانت مجموعة طوالبة تراقب الدبابة وقد عرفت أن الجنود سيكونون بتلك البناية بعد مغادرة الدبابة، قال طوالبة:

- إنها فرصتنا للإنقضاض عليهم.

انهت الدبابة انزالها وعيون محمود طوالبة وجماعته، كعيون الصقر يرصد فريسته، اصبح الجيش الان في المنزل، وما إن ابتعدت الدبابة حتى أعطى محمود إشارته وانطلق، فانطلق معه كل أفراد جماعته وحاصروا المبنى، وقف أبو إسحق ينظر حولة، من أين ظهر كل هؤلاء الفتيه؟ ومن اين أتوا بهذه الشجاعة، تجمع الشباب حول طوالبة وبدأ إطلاق النار على الأبواب لمنع الجيش من المغادرة في حين بدأ الأشبال هجومهم بالأكواع والزجاجات الحارقة من النوافذ، صاح أبو إسحق بعد أن تشجع واقترب من إحدى النوافذ، سمع صوت صراخ الجنود من الخوف:

- إنهم أكثر من أربعين جندي.

جاءت أصوات الجنود يتصايحون ويشتمون المقاتلين بشتى الألفاظ باللغة العربية، فعرفت المجموعة من لهجتهم أنهم بقايا جيش لحد اللبنانية التي خانت بلدها وانضمت للجيش الإسرائيلي، فازداد غضبهم عليهم، وازداد ضربهم بالأكواع من قبل الأشبال، فكانت الأصوات تأتي لتشتم شارون والجيش الإسرائيلي.

لم يأبه أي من الشبان لشتائمهم، كانت المهمة تقتضي قتلهم جميعاً.

ظل الجنود في الحصار، وقد أصبحت ساعة تصفيتهم قريبة فعلاً، ارتفع صوتهم بنبرة جديدة، لقد بدأوا يتوسلون لمحمود طوالبة أن يفرج عنهم ويتعهدون له بعدم العودة لقتلهم. لم يلب أحد مطالبهم فبدأت استغاثاتهم تصل آذان أهل المخيم وهم يتملقون محمود طوالبة ويقولون:

- يا شيخ طوالبة، أعف عنا نرجوك.

كانت خطة محمود طوالبة التالية هي إعتقالهم كأسرى وأخذ اسلحتهم، ولكن الأباتشي التي حامت فوقه وفوق جماعته وبدأت تصب نارها عليهم قد أعطت الفرصة لمجموعة أخرى من الجيش بالوصول إلى المنزل من جهة أخرى وفتح ثغرة وإخراج الجيش وحمل القتلى منهم.

ابتعد الجيش بالجنود المذعورين وعلمت المجموعة أن أبو جندل أيضاً كان قد نفذ كمين آخر.

كاد النهار الثاني أن ينقضي، وكان لابد للجيش من أخذ قراراته بعد كل تلك الخسائر.

شدت سمر قبضة يدها على معدتها وقالت:

- إني جائعة، لعلنا نجد شيئاً في هذ المنزل.

قالت صفاء وقد سئمت الوضع:

- أنا لن أتحرك من هنا، إن القصف يقترب وأظن أن هذا المنزل سيهدم على رؤوسنا في أية لحظة.

خافت سمر وجلست صامتة وقبضتها لا تزال تشد على معدتها، فقالت الجدة وهي تفك صرة أشيائها:

- ماذا تريدين، برازق أم سبانخ؟

نظرت الشقيقتان إلى الجدة التي أكملت وهي تمد يدها بقرص سبانخ:

- لا تأكلوا كثيراً، أريد أن أطعم صالح ومحمود بعد أن يعودوا من الصيد.

قالت صفا ء وهي تأخذ السبانخ من الجدة:

- سبانخ؟ الم تعده امي قبل يومين ؟ وبرازق، اذن هنا كان يذهب الطعام،

حسنا صنعت يا جدتي.

أخذت سمر السبانخ من ابنة خالتها، وقسمتها بينها وبين سلمان والتهمتها وكلها أمل بأن تمد الجدة يدها بقرص آخر، الا أن الجدة أغلقت الصرة وقالت:

- الطريق طويل.

قالت سمر وهي تتنهد:

- قال وليد إنه سيكون معي في الإجتياح، وها أنا لا أرى معنا أحد.

قالت صفاء وكأنها تحدث نفسها:

- وأنا أيضا علي أن أجده، عليه أن يكون معي كما وعدني.

قالت سمر باستغراب:

- ماذا قلت؟
- لا شيء، حاولي أن تنامي. بعد انتهاء هذا الاجتياح علي أن أجده.

استيقظت سمر على صوت طرق قوي على باب المنزل وأحدهم يسأل:

- هل هناك احد؟

ردت صفاء وهي ترتجف في الفراش:

- نحن هنا.

دخلت إحدى النساء وهي تحمل طفلتها البالغة ثلاث سنوات وقالت:

- سأتدارى قليلاً من القصف ثم أتابع، أريد أن أهرب من المخيم بهذه الطفلة، لقد جنت من صوت الإنفجارات.

قالت الطفلة وهي تلصق رأسها بصدر أمها:

- أغلقي لي أذني، أمي أغلقي لي أذني.

وضعت الأم يديها حول رأس الطفلة وأغلق لها أذنيها وقالت:

- إنها تخاف من أصوات القذائف والقنابل والأسلحة، وتظل تغلق أذنيها وتلتصق بي، كما ترون، لم تنم منذ يومين ولا تتركني للحظة.
- أليس لديك غيرها؟
- لا، إن والدها في السجن منذ عامين، وهي لا تعرفه جيداً.

صمتت صفاء، ولكن سمر نهضت تريد أن تلاعب الصغيرة وتخفف عن الأم فقالت:

- ربما لو وضعتها في الفراش وغطيت رأسها.
- لا، إنها ترفض أن تفارق صدري، لقد حاولت.

جلست سمر على طرف الفراش وقد أحست ببعض الشجاعة نسبة إلى خوف تلك الطفلة، وبدأت تتمتم كأنما تريد إثبات ذلك لنفسها:

- اليوم الجمعة، التاريخ: الخامس من شباط الفين واثنين الساعة:..
- حملقت سمر حولها ثم سألت شقيقتها:
- كم الساعة؟
- أظنها السادسة صباحاً.

أكملت سمر تمتمتها:

- الساعة: السادسة، تم افتتاح جريدة الحرية.

ثم حملقت في عيون الطفلة المذعورة وصمتت، وتسرب إلى نفسها شيء من الخجل، فكيف يستوي حالها مع حال هذه الطفلة الصغيرة، كلاهما مرتعب وتريد صم آذانها عن كل ما يجري، وكلاهما تريد التشبث بصدر حنون دافئ، وخطر في بال سمر أن من الافضل الا تتزوج أبداً والا تنجب أطفالا، حتى لا يعيشوا هذه الظروف الرهيبة ولكنها فوجئت بالأم تقول:

- أتمنى لو أن لي ألف ولد مثل هؤلاء الأبطال، ليأخذوا بثأرنا ويعيدونا إلى بلادنا.

كان واضحاً منذ ساعات النهار الأولى، أن الجيش الإسرائيلي قد درس فرصه المتاحة، ورأى أن يحاول اقتحام المخيم من المدخل الشرقي بعد فشله عند المداخل الغربية، فقد نهض أبو إسحق بسرعة مع بقية المجموعة للتصدي إلى ذاك الإجتياح، بعد أن سلطت القوات جام نارها على كل ما تراه أمامها في المدخل قبل بزوغ الفجر، وأنزلت القناصة ليتمركزوا في بنايات مرتفعة كاشفة للمنطقة.

هبط أبو إسحق على الأرض وقد خارت قواه، كان قرار المجموعة هو الاستشهاد على مدخل المخيم أو النصر، وبذلك استمرت المعركة على أشدها لساعات طويلة استطاع الشبان خلالها، التصدي للجيش من كل المداخل وظل الجيش لا يبارح أمكنته حتى ساعات العصر. قال إبو إسحق:

- سيعرف قادة الجيش أو ربما يكونوا قد أيقنوا أن هذه الطرق في اغتيال الناس واجتياح ارضهم لن تجدي نفعاً، وأنهم بذلك سيغادرون منهزمين باذن الله،

بدأ القصف العدواني يخف رويداً رويداً، وبدأ الجيش يخفف من تحركاته ويسحب فرقه، والشباب يترصدون أي تطور متوقع أو غير متوقع. حتى ظن ابو اسحق ان دعاءه قد استجيب فقال:

- أظننا سنبيت ليلتنا هنا. فأنا تعب ولن أتحرك حتى لو أتى شارون ذات نفسه.

فقال محمد:

- أما أنا فلا أريد الموت، أريد الحياة، وليعيدنا الله إلى أولادنا فقد اشتقت كثيراً لبناتي الثلاثة، وأود لو احتضنهن بين ذراعي بشدة وكم أكره أن أتخيلهن باكيات مرتعبات في هذه اللحظات.

لم يدر أي منهما من أين هبطت عليهم مجموعة الأشبال تلك، وظهروا

بوجوههم التعبة وأيديهم الخشنة وهيبتهم التي لم تكن ليتوقعها أحد، قال أحدهم وهو يحني ظهره خشية أن يظهر من النوافذ:

- إن الجيش يتقدم لمحاصرتكما، عليكما المغادرة فوراً.

نظر أبو إسحق إلى محمد باستغراب وقال:

يحاصرون من؟ انا؟

نعم، نحن سنتولى أمرهم، أسرعوا.

قام أبو إسحق من فوره وانطلق يربت على أكتاف الأشبال برفق، وكأنه يحييهم أو يودعهم. صاح الشبل في وجه محمد:

- هيا يا رجل، أسرع من هنا.

ركض محمد يخرج من المنزل على حذر متربصاً من حائط إلى آخر، وما هي الا دقائق حتى سمع صوت الأكواع تنفجر خلفه وأصوات الأشبال يكبرون ويشنون هجوماً على الفرقة القادمة نحو المخيم.

لزم أبو إسحق حائط أحد الأزقة، وكم كانت دهشته كبيرة وهو يرى الأشبال تفر من أمامه بسرعة البرق بعد ان أجبرت الجيش على التراجع.

لحق أبو إسحق بالأشبال قائلا:

- أيها الشقي يا أبا إسحق، عدت للهرب ايها العجوز.

دخل الأشبال أحد المنازل فدخل وراءهم، ليجد أنهم اتخذوا من ذاك المنزل مقراً لهم ولأسلحتهم، أكواعهم وعبواتهم الناسفة وزجاجاتهم الحارقة، جلس أبو إسحق على الأرض بجانب بعضهم والتزم الصمت.

فقال أحد الأشبال:

- إنهم يتراجعون، لقد رأيت الجيش يسحب فرقة من المخيم، والدبابات تبتعد عن المداخل قليلاً.

قال محمد باستغراب:

- هل تظن أنهم سينسحبون؟
- لا أدري ولكن هذا ما رأيته.
- ليتهم ينصرفون، سيكون هذا يوم نصرنا.
- نصرنا، لا أعتقد ذلك، إنهم يضربون بحقد بشع، يستشهد أحدنا وتبقى نيرانهم مسلطة عليه، أو كما فعلوا بمنزل طوالبة.
- أجل، ضربوا منزله بالصواريخ والمدفعية والطائرات حتى هدموه على آخره.
- لقد تناوبت الطائرات على قصفه بالصواريخ لمدة طويلة، لقد دخلته بعد أن ذهبت الطائرات ورأيت ست جثث ولا أدري لمن هي بالتحديد.

ظل محمد على صمته، وقد اشتعل صدره خوفاً على بناته، ولم يطق تصور لوعة محمود طوالبه على أهله وأبنائه. وظلت الساعات تتوإلى على روتينها.

دخل الليل على المخيم بكآبته وتحسست سمر فراشها تريد الإلتصاق بصفاء وتساءلت:

- هل هدم منزلنا؟

وإذا بالجدة تقول:

- توقف القصف، اذن سيبدأ جرف المنازل، نعم، لقد جرفوا القرية جميعها لم يبق فيها حجر على آخر.
- وكأن القصف يخف؟ انه يتوقف، هل سنعود الان؟ أين سنذهب يا صفاء؟

انصتت صفاء لتتأكد مما قالته سمر فعادت الجدة لتتحدث بكلامها الغامض وقالت:

- إكرام الميت دفنه.

توقف القصف وظلت صفاء تسمع أصواتاً لطلقات من هنا وهناك، استبشر الناس، وجلست مجموعات المقاومة على الأرض تلتقط أنفاسها، وازدادت حركة الناس في الازقة.

نفضت سمر الفراش عنها وقامت تريد التاكد مما سمعت، ولكنها لم تتجرأ على وصول باب المنزل بتلك العتمة.

بدأت سيارات الجيش تتراجع عن كافة المداخل، ابتعدت عن المخيم ولم تعد تراها العيون.

هلل الناس وكبروا واستبشروا بفشل آخر للإجتياح، تراكض الشبان إلى منازلهم وتراكض الناس لتفقد ما تبقى من أحوالهم، وعاد المئات من المتطوعين إلى ديارهم خارج المخيم.

قامت صفاء تجري نحو مدخل المنزل ونظرت، ثم عادت متهللة لتقول:

- لقد انتهى الإجتياح، الا تسمعين الصفير والتكبير والتهليل؟
- بلا، هل سنعود إلى منزلنا الآن؟
- نعم، يا سلمان..

كانت عيون صفاء تراقب تلك الحركات والأصوات الآتية من الخارج، والتي تعرب عن مغادرة الشبان إلى بيوتهم، بينما كان عقلها يتساءل هل هو معهم ؟هل نجى من كل ذاك القصف ؟، عليها أن تجده و لربما يساعدها ايضا في نقل الجدة في هذه العتمة، ترددت صفاء وهبطت على الأرض لمدة طويلة تفكر فيما تفعل، ثم قالت وقد حزمت أمرها:

- أعطني ساعة من الزمن وسأعود على الفور.

انطلقت صفاء عبر الزقاق تريد العودة إلى المنزل لتتأكد من سلامته، تعلقت قدمها بقضبان الحديد تارة وتجرحت بزجاج النوافذ المكسور تارة

أخرى، أين أنا؟

لم تفهم شيئاً من تفاصيل زقاق المخيم في تلك العتمة الكثير من الحيطان المهدمة في كل مكان، ورغم ذلك استمرت بالسير تريد أن ترى منزلها.

توقفت عدة مرات في الطريق وقد استجمعت قواها، وبدأت تسأل عن ذاك الشاب ابن المخيم الشهم، الذي خرج مع اصحابه للدفاع عن مخيمه بعد ان ارسل لها رسالة خطية مع احدى صديقاتها واكد فيها انه سيأتي لخطبتها فور انتهاء الاجتياح مباشرة، عليها ان تجده سألت المارة عنه، ولكن كانت معظم الإجابات تأتيها:

- لا نعرف.

لم يستطع سلمان انتظار صفاء اكثر من ذلك فترك سمر وخرج، لحقت به سمر تحاول إيقافه، ولما لم تستطع عادت وأمسكت بيد الجدة واستعجلتها خلفه لم تدر سمر ما قد يفعل الخوف بالناس الا حين اختبرت تلك القوة المفاجئة التي لحقت بها سلمان رغم وجود الجدة معها، العتمة كانت تعيق الرؤية رغم تشوشها في رأس سمر، لم تدر وقد هدمت معظم البيوت أيهم بيتها، ولكن صوت سلمان كان يأتيها فتستهدي به، أطلت سمر على المنزل لتراه مصاباً بشدة، ولا يزال بعضه على حاله ولكنه لا يصلح لشيء،، وكم دهشت حين رأت حمدان صديق سلمان قد سبقها إليه على دراجته، ووقف يتحدث مع صديقه حول رؤيته للجيش المتقهقر، وكم كانت سعادتها حين أدخلت الجدة للمنزل ووجدت أبو إسحق جالس في الداخل وقد رفع بصره المتعب نحوها وقال:

- ما العمل؟ لقد نسفوا بيتي.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً وصفاء تسير من زقاق إلى آخر تحاول أن تجد الزقاق الذي يوصل إلى منزلها، ظلت تطيل الوقوف والتأمل

بالمنازل من حولها دون أن تميز أحدها، وهمت أن تسأل سكان المنازل عن منزلها وراحت أفكارها تصور لها سمر التي تنتظرها مع الجدة في العتمة وذاك الصبي الذي يرفض الاعتراف بصغر سنه، وقررت العودة لهما بعد ان ضاع الوقت في البحث عن حبيبها بلا فائدة.

لم تعد صفاء تدري في أي اتجاه تسير، وهي ترى البيوت المحترقة والجدران الفارغة من الحياة.مشت نحو بعض البيوت التي تراقصت بها بعض أنوار الشموع، ودخلت أزقة لم تدخلها من قبل، وقبل أن تطرق الباب سمعت الشباب يتراكضون هنا وهناك، ويتنادون للعودة للرباط في مجموعاتهم وسمعت أحدهم يقول:

- لقد عاد الجيش، لقد عاد الجيش.

كانت ساعتان فقط من الزمن، مرتا كما الحلم، ظن الجميع فيهما أن الهدوء عاد للمخيم وأن الأمان قد ساد، ساعتان تدارس الجيش أمره خلالهما، واستبدل فيها أفراد جيشه وأقبل بآلياته، وهذه المرة بصحبة جرافات ضخمة، وقد اتخذ قراره بالفعل بهدم المخيم وجرف المنازل، حتى يصل إلى الرؤوس المطلوبة ويقضي عليها مهما كلف ذلك سكان المخيم الأربعة عشر ألفاً من دماء.

نظرت صفاء حولها فلم تجد أحداً، الكل يعرف أين يذهب سواها، الكل اختفى فجأة وسكن المخيم من جديد، تربص الشبان القلة المتبقية في المخيم في مواقعهم، وأغلق الناس بيوتهم على أنفسهم وساد الهدوء، الا من أصوات آليات الجيش تقترب من المداخل من جديد.

ضربت صفاء على رأسها وكادت تصيح فزعاً مما يجري، الا أن باب أحد المنازل بجانبها قد فتح وأطلت منه امرأة في عقدها الخامس. نظرت المرأة إلى صفاء وقالت:

- ماذا تفعلين هنا؟
- لا أدري، لقد تهت.

سحبت المرأة صفاء إلى الداخل وهي تقول:

- تعالي الآن من الشارع، ستعتبرك الطائرات خطراً وستقصفك، أدخلي وغداً تذهبين لمنزلك.

تلفتت صفاء حولها لتجد نفسها في مدخل واسع تدخل منه دون أبواب إلى غرفة صالون واسعة على جانبها درج يصعد للطابق الثاني والثالث. قالت المرأة وهي تدفع بصفاء:

- تعالي إلى غرفة النساء، كلنا هنا في الطابق الأرضي نساء ورجال.
- أين أنا؟
- أنت الآن في بيت أم بسام في حارة السمران.

لم تجب صفاء فقد جف لسانها وعلق في حلقها ولكن المرأة أكملت:

- إجلسي معهم و..

و قبل أن تكمل جملتها كان القصف المكثف بطريقه لا توصف قد بدأ من جديد.

لم يعد أحد بحاجة إلى شمعة، او حتى ضوء، فقد أضاءت القنابل والقذائف المخيم بكامله، حتى إن أدق التفاصيل للمنازل قد ظهرت.

الناس تترك بيوتها القريبة من المداخل وتفر إلى وسط المخيم، و الجرافات العملاقة بأذرعها الضخمة تجرف المنازل وتفتح الطرق أمام الدبابات وتتوغل في المخيم.

كانت المقاومة الشابة في المخيم لا تجد شيئاً يوقف تلك الجرافات، ولم تجد سوى الفرار من أمامها. ثمانية عشر جرافة تقدمت من المداخل أجمع نحو

وسط المخيم، تؤازرها الدبابات وفرق المشاة.

كانت أضواء القنابل رغم الرعب تؤنس سمر، وتمكنها من رؤية أبي إسحق وسلمان وحتى حمدان الذي علق معهم في المخيم.

مسحت سمر دموعها ونهضت عن الأرض والتصقت بجدتها وقالت:

- ماذا سنفعل إن لم تعد صفاء يا جدتي؟

قالت الجدة بثقة:

- سنسبقها إلى هناك، لن ننتظرها، فربما قد ركبت في عربة شحن غير هذه.

لم تدر سمر ما تقول، ولكنها قررت أن تفهم كلام الجدة على أن صفاء بخير في مكان آخر، فهزت رأسها وصمتت في حين أكملت الجدة:

- هل أنت جائعة؟

ومدت لها بقطعة برازق لكل من الموجو دين وقالت:

- سيكفينا الطعام فقد اقتربنا من النهاية.

لم تعرف سمر إن كانت أخذت القطعة من الجدة أم لا، ولم تذكر إن أكلتها أم لا، ولكنها متأكدة أن الجدة لا تزال مستيقظة من خلال حركتها العصبية المتواصلة في هز رأسها خفيفاً للأمام والخلف دون توقف حتى وهو ملقاً على الوسادة.

لم يشعر أحد من سكان المخيم بقدوم الفجر، فقد كانت القذائف تصنع النهار طوال الليل، ولم تعد سمر تعرف في أي يوم هي ولا بأي تاريخ تمر، ولم يعد يمر بذاكرتها شيء يخص افتتاح جريدتها اليومية، وكأنما توقف دماغها عن العمل ولم يعد يفكر الا في عودة صفاء.

لم يعد القنص بتلك السهولة لدى المقاومة، فالجيش يسير دون دباباته

وجرافاته، وفرق المشاة أصبحت فرقاً كبيرة يتراوح عدد أفرادها بين الأربعين والخمسين جندياً، كل تلك الإحتياطات لم تكن تكفي الجيش فقد كانت طيارات الأباتشي والكوبرا تسلط نيرانها على المنطقة قبل أن يدخلها المشاة للتأكد من أمان الجنود.

تنهد أبو إسحق وقد عادت أصوات الصواريخ تملؤ أذنيه واحس بأنه بات المسؤول عن هؤلاء الفتيه فقال:

- لنجلس معاً في تلك الزاوية.

لم تدر صفاء كم مر من النهار قبل أن تفتح عينيها ولتجد نفسها وسط ما يقارب العشرون امرأة، دفعت صفاء رأسها بقوة، تريد أن تترك مكانها حيث غطوها وتركوها لتنام لساعات طوال،وتريد العودة للبحث عن أقربائها، أمسكت إحدى النساء بها برفق ومنعتها عن الحركة ثم همست لها، إن الجيش في منزلنا، أنصتي.

أدرات صفاء رأسها يمنة ويسرة، فعرفت أنها في حارة السمران فهذه البشرة السمراء المميزة اللون والتي سميت الحارة نسبة لها، لا تريد دليلاً أوضح من ذلك. اقتربت أم محمد من صفاء وقالت:

- ابنة من أنت؟

نظرت صفاء في وجه أم محمد، لم تكن سمراء كالبقية، أهي تائهة أخرى أوصلتها قدماها إلى منزل أم بسام؟ أكملت أم محمد:

- لاتبالي بلون البشرة، إننا أقارب جئنا من الجزائر.

حاولت صفاء أن تحرك لسانها بشيء تقوله ولكن فكاها امتنعا عن التحرك.

عدلت أم محمد جلستها على الأرض بجانب سمر وقالت هامسة:

- لا عليك، سأجلب لك بعض الماء، فقط اصبري قليلاً ريثما نعرف ما سيفعلون بنا.

التفتت صفاء إلى مدخل الغرفة، فرأت جنديان يقفان بسلاحهما في وسط الممر بصمت في حين كان هناك صوت حركة ما وتهامس. قالت أم محمد:

- إنهم يفتشون الشباب ويجعلونهم يخلعون ثيابهم لقد حبسوهم في المطبخ.

صمتت قليلاً ثم قالت متأسفة:

- المطبخ ضيق، وهم حوالي عشرين رجل يجلسون على الأرض الباردة، لا يلبسون سوى قطعة واحدة.

نظر الجندي إلى أم محمد وصفاء وقال:

- لا أريد صوتاً.

ثم أعاد النظر اليهما وقال:

- أنت لست "شحور" لم أنت هنا؟

قالت أم محمد وكأنها تلقي فكاهة:

- لقد تزوجت «شحور».

نظرت نحو صفاء وقالت:

- «شحور» يعني أسود، انظري ماذا يسأل.

صاح الجندي:

- اصمتو.

- ثم أشار إلى سمر وسأل:

- وهذه؟

نهضت إحدى بنات أم بسام وقالت:

- لقد أخبرناك يا كابتن عنها، انها ابنة الجيران كانت مريضة وقد رأيتها حين دخلت.

قال الجندي وكأن أمور أخرى تشغله:

- أريد كل الهواتف النقالة التي معكن، الآن.

قالت أم محمد:

- ومن أين لنا بالهواتف النقالة، إننا لا نستعملها.

صمت الجندي الذي شخر جهاز الإستقبال لديه ببعض الأوامر باللغة العبرية، فابتعد عن باب الغرفة إلى الطابق العلوي. قالت ام محمد:

- إنهم حوالي ثلاثون جندي أو أكثر، استولوا على الطابق الثالث، لقد أراد الله بنا خيراً، فقبل أن يدخلوا علينا أعطانا الشبان هواتفهم وخبأناها في صدورنا، إنها هواتف فارغة الشحن ولكنها تحمل أرقاماً لبعض الشبان في الخارج.

صمتت من جديد، ثم ما لبثت أن ملت الصمت فقالت:

- حرام. إذا وجدوا أرقامهم اعتقلوهم.

عاد الجندي إلى المطبخ حيث الشبان وصاح فيهم:

- أريد الهواتف النقالة، إن الطائرة تؤكد صدور إشارات هواتف من هذا المنزل.

قالت أصوات الشبان بطريقة عشوائية:

- لا هواتف معنا، إننا أمامك عراة.
- إذن سنفتش المطبخ.

خافت النسوة من التفتيش، وبدأن يخرجن الهواتف من صدورهم بحركة خفية من تحت أغطية رؤوسهن، في حين مدت أم محمد يدها بهدوء إلى الحائط الذي يحاذيها، حيث رتبت أم بسام الفراش في قوس خاص، ودست الهواتف تحت آخر فرشة، تسللت الهواتف بسرعة من يد لبد حتى وصلت يد

أم محمد و أصبحت جميعها في أمان، كانت أصوات الأواني وأبواب الخزائن في المطبخ تخبر بأن تفتيشه لا يزال مستمراً، وحين هدأت الأصوات، عدلت النسوة جلساتهن وتحضرن لتفتيش متوقع، دخل الجندي وقال:

- سأفتش الغرفة.

وبدأ يفتح الخزائن ويقلب الفراش وينبش تحت الثياب المرتبة في الرفوف، وعيون النسوة تراقبه حتى وصل إلى الفراش المرتب في قوس الحائط، مد الجندي يده بين طيات الفراش وبدأ يبحث، أحست أم محمد بأن الحرارة قد اجتاحت جسدها، فالهواتف تحت آخر طية بجانبها مباشرة وهي جالسة على الأرض.

ظل الجندي يعبث في طيات الفراش المرتفعة، وبدأت النسوة بقراءة القرآن بصمت، أما أم محمد، فلم تعد تدري الآية التي بعد البسملة، أو ما الدعاء الذي حفظته طوال سنوات لتحصن به بيتها.

وصلت يدا الجندي إلى طبقات منخفضة، ولما أحس أنه اقترب من النسوة الجالسات على الأرض، أنهى التفتيش ومضى مبتعدا.

ابتلعت أم محمد ريقها وظلت تحمد الله، وعيون النسوة تنظر اليها بحذر. خرج الجندي من الغرفة معلناً عدم عثوره على أي هاتف، في حين عاودت أم محمد الميل على صفاء وقالت:

- هل رأيت؟ والله لقد رأيت في إحدى جيوبه قطع كبيرة من البسكوت والكعك، إنهم جنود مرفهون ياعم.

كانت صفاء تراقب ما يجري بصمت، ولم تكن لتفكر فيما يجري حولها، بقدر ما كانت تتخيل سمر وسلمان الذي لم تعد أمه لأخذه بصحبة الجدة،وقد بلغ منهما الذعر مبلغه، و تفكر بما سيكون عليه حالهم لو أن الجنود دخلوا

عليهم المنزل.

أغلق الجندي باب الغرفة على النسوة، وعاد الى زملائه الذين ينتظروه في الممر.

كانت أصوات نعالهم وهم يصعدون الأدراج، توضح ابتعادهم نحو الطابق الثالث. قالت إحدى النسوة:

- لقد انصرفوا.

ومدت يدها وفتحت الباب وما إن أطلت منه حتى صاح بها أحد الجنود:

- ابقي في الداخل، وأغلقي الباب.

أغلقت الباب بسرعة، وضمت كتفاها وهي تشد يداً على أخرى وقالت:

- لقد أرعبني قاتله الله، إنهم لا يزالون هنا.

تبسمت النسوة ولكن صفاء كانت تحترق في مكانها، لا تدري ما تصنع للافلات من هذا المنزل، والذهاب إلى سمر الصغيرة وجدتها، ولم تعرف وهي ترى الجنود، ما سيكون عليه حال أهل المنزل بعد قليل إذا قرر الجنود قتلهم أو نسف منزلهم، كل الأمور تؤدي إلى كارثة، ليس لها حل الا معجزة من عند الله، ضاق رأس صفاء بهذه الأفكار ولم يجد دماغها حلا سوى أن تفقد الوعي مرة أخرى.

اتخذ الجيش تدابير جديدة بعد تلك الكمائن التي أوقعتهم فيها المقاومة، وكان من أبرزها أخذ بعض أهل المخيم كمتاريس بشرية، يضع سبطانات بنادقه على أكتافهم ويسوقهم أمامه إلى المنازل الأخرى، كما انه بدأ باقتحام أبواب المنازل بواسطة ضربها بالقنابل غير آبه لمن خلفها طفلاً كان أو عجوز. مما جعل أبو إسحق يحاول ترك منزل سمر لمرات عدة وفي كل مرة يعود مرغماً من شدة القصف، حتى نجح.

كانت عيون المجموعة المسلحة تراقب ما يجري بحذر، فقد بدأت الجرافات تسوي البيوت بالأرض وتنقل حيطانها من الطريق لتفسح المجال للجيش بالسير في منطقة مكشوفة دون الخوف من وجود أي ساتر لأي مقاوم.كما وتسمح للدبابات التنقل في طرقات عريضه

تسارع تقدم الجيش في حين هدأت المقاومة قليلاً، فقال أبو جندل وهو يرى الفرق الإسرائيلية تدخل البيوت بواسطة الثغرة الصغيرة:

- لا يزال الجيش يدخل البيوت بنفس الطريقة، ماذا لو كنا في الغرفة المعنية ولكن بمحاذاة السلاح، اعني لو ان ثغرة فتحت بهذا الحائط، وادخل الجندي قوهة بندقيته وبدأ يطلق النار، اين تكون النقطة التي لا يصلها رصاصه؟ النقطة بجانب البندقية على نفس الحائط، لن يستطيع الجندي من تلك الفتحة توجيه سلاحه إلينا، إذن سنكون هناك، سنتوزع في المنازل ولن نغادرها، وكلما فتحوا ثغرة في إحدها تركناه حتى يدخل فنقتله ثم نفر قبل أن يفجروا المنزل علينا، علينا أن نجازف بالخروج، وإلا هدمت البيوت على رؤسنا ونحن جلوس.

قال أحد الأشبال:

- انطلقوا أنتم، ونحن سنعيق الجيش قدر المستطاع، تمركزوا في البيوت لانهم على وشك الوصول.

نظر إليه أبو جندل وسأل:

- ألا يزال معكم أكواع؟

ابتسم الشبل وقال:

- لن تصدق، ولكن معنا ألعاب نارية.

نظر أبو جندل إلى رفاقه وكأن الفكرة لم تعجبه ولكنه أبا إسحق صاح:

- لا خيار آخر للجميع، فلنتوكل على الله.

نهض أبو جندل وتقدم تسللهم إلى وسط المخيم. في حين نظر الأشبال إلى بعضهم نظرة المودع، وقال كل منهم للآخر:

- اللقاك في الجنة.

تبسم ابو اسحق لاول مرة وردد معهم « اللقاء في الجنه « كل فرد منهم كان يعرف أن الألعاب النارية مجازفة كبيرة قد تكلفهم حياتهم، ومع ذلك تفرقوا ليأخذوا مواقعهم.

تفرق الأشبال وهم يحملون ألعابهم النارية، التي كان من المفترض أن تكون لأفراح الأعياد ولإدخال السرور على صدورهم الغضة.

كان الجيش يتقدم نحو المنازل التي احتوت المقاومة،فاستدار الأشبال مبتعدين بضع زقاق عن المنطقة وبدأوا رمي الألعاب النارية على الجنود، كانت أصوات الألعاب النارية تماماً كأصوات القنابل والمتفجرات فلم يجد الجيش نفسه الا وقد توقف عن التقدم وبدأ يتخبط في مكانه، لا يدري أين يحتمي، صوبت الدبابات رمياتها نحو مصدر الصوت وبدأت الطائرات تحوم حول الموقع،ونجا أبو جندل وجماعته من الموت تحت ركام البيوت المهدومة، كما ان محمود طوالبة أيضاً سحب مجموعته إلى الوسط، وكذلك فعل محمد الفايد وشادي النوباني، كل الاسماء المطلوبة حشرت في وسط المخيم المقطع إلى أشلاء منفكة، فكل منهم كان على مدخل قد أتت الجرافات الثمانية عشر على كشفه ومسحه.

تجمع المقاومون في الوسط، في حارة الحواشين، ولم يدر أي منهم ما العمل، ولكن الجميع كان يعرف أن لا مجال للتراجع. رمى أبو إسحق بجسده على الأرض وقال يندب حاله:

- إلى أين بعد أيها التعيس؟ ألم يحن موعد راحتك بعد؟

اشتد القصف على حارة الحواشين طوال الليل، واعتبرها الجيش نقطة اختباء المقاومين لا محالة، بدأت البيوت تقع الواحد تلو الآخر، و كانت مكبرات الصوت تقول شيئاً غريباً، القصف قد هدأ نسبياً وهناك صوت يقول بالعربية: «يا أهالي الضيعة، سلموا سلاحكن ما بنئزيكن»، أطرق أبو إسحق السمع يريد التأكد من تلك الكلمات، أعاد الجندي النداء وكرره عدة مرات فأيقن أنه جندي لبناني خان لبنان، وجاء ليقدم النصيحة لمخيم جنين بالاستسلام، تضاحك وقال:

- الا يعرف ذاك الغبي أن هذا مخيم وليس ضيعة على الاقل.

ثم استجمع قواه وقال:

- الآن أذهب للإطمئنان على سمر.

كانت سمر تحاول جلب بعض الماء لجدتها الظمأى، فلم تجد سوى بعض الأمطار في حفرة أمام المنزل، حاولت الا تكدرها وهي تخرج بعضها بصحن الطعام.

صمت أبو إسحق وقد انتبه لدوي مختلفي الزقاق بجانب بيت سمر، وشد الخطا الضعيفة نحوه، وشد حمدان على يد سلمان، وهدأت الأصوات في الخارج، فقامت سمر تريد النظر من باب المنزل لما يجري، ولكن خوفها أعادها لتجلس بجانب جدتها بصمت، ورغم التصاقها بجدتها سمعت دويا كبيراً آخر هز المنزل تبعته أصوات وروائح غريبة ووجدت نفسها مضطرة للنهوض لترى ما يحدث، صاحت سمر رعباً وهي ترى النار تأكل أثاث الغرفة المجاورة بسبب قذيفة موجهة، وركضت نحو جدتها تسحبها للنهوض والخروج من المنزل وهي تصيح:

- إنها قذيفة.. إنها قذيفة.

ظل سلمان متشبثاً بالأرض، فقد بلل ثيابه وخشي انفضاح أمره أمام صديقه، اطل أبو إسحق مسرعاً من الخارج، امسك باليد الأخرى للجدة وخرج بها من المنزل صارخا:

- اجلبي هاذان الاحمقان يا سمر واتبعيني. "وتمتم".
- لا بد أنه عزرائيل يريدني بقوة.

عادت سمر تصرخ برعب في وجهيهما لينهضا ولكن سلمان كان يكرر:

- لا أريد، لا أريد.

انتبهت سمر على حالته وسمعت حمدان يقول له:

- هيا يا صديقي سأغطيك بهذه.

وخلع معطفه الصغير الذي كان يحميه من البرد، وبدأ يلفه به. تساءلت سمر أين وصل أبو إسحق بجدتها، وركضت لتراه، ولكنها لم تستطع أن تدركه، وما إن استدارت لتعود لسلمان وصديقه، حتى دوى صوت انفجار قوي هز الأرض تحت أقدامها الصغيرة المتراقصة من الخوف، تراشقت بعض الحجارة المتناثرة حول سمر وسقط بعضها فوقها دون أن تشعر بأي ألم، سقط المنزل على الصبيين وسمر لا تستوعب الأمر، جرت نحو الحجارة المتراكمة، بدأت تزيحها بتلك الأكف الصغيرة وبدت متأكدة بأنها لا تزال تسمع صوتهما يطلبان النجدة، كانت الحجارة ثقيلة ولكن من المؤكد لسمر أنهما لايزالان في زاوية ما ينتظران أن ترفع عنهم هذه الحيطان الثقيلة،وبقايا الصاروخ القاتل. صاح أبو إسحق وهو يسحبها عن الاطلال:

- هيا قبل ان يقتلونا.

تثاقلت سمر بقوة الى الارض لا تريد المغادرة دونها، وظل أبو إسحق يسحبها وهي صارخة مولولة حتى أدخلها المنزل عند جدتها ثم أغلق عليهما الباب وانطلق، نظرت سمر حولها لتجد أن العم قد تركهما في منزل ممتلىء بالأسلحة، ظنت لوهلة أنه ربما عاد لجلب سلمان وحمدان، ثم ليأخذهم إلى مكان أكثر أمنا، هل تنتظره؟ سيجلب الصبيين هذا مؤكد، كم سأنتظر؟ لقد طالت غيبته، هل قتل؟ هل انفجرت فيه قذيفة أخرى؟ أين الصبيين إنهما لم يموتا لقد سمعتهما تحت الحجارة يطلبون المساعدة، علي أن أعود إلى هناك لمساعدتهما.

لم يعد ابو اسحق، ولا صوت للصبيين،علي ان اخرج للبحث عنهم، كانت سمر تبكي وهي تمسك بيد جدتها وتخطو خطاها الأولى نحو زقاق المخيم، كانت الدماء في كل مكان وقطع متناثرة من الأجساد هنا وهناك، ظلت سمر تمشي بجدتها وتبكي حتى لم يعد لديها دموع، جف دمعها وتعب فكها وصمتت، كانت تنظر إلى رجل ملقاً في الزقاق، ينزف بشدة ويعرف أن الموت مصيره، ومع كل ذلك تبسم لها وهي تمر به، وكأنه يستحلفها الا تبكي، كانت أقدام الجدة تتعثر بما امتلأ به الزقاق من بقايا المنازل من القضبان والزجاج، وكثيراً ما كادت أن تقع فتضع ثقلها على سمر الصغيرة، وهي لا تزال تشد قبضتها على الصرة، الدماء في كل مكان رائحة الموت تملا الأنوف، الدمار على مد النظر، لم تستطع سمر الإبتعاد كثيراً، حتى وجدت منزلاً قد هدم مدخله ولكن لا نار تلتهمه من الداخل، سحبت يد جدتها وتخطت بها المدخل المهدوم إلى إحدى الغرف الداخلية، وجلست بصمت.

جلست الجدة على مقعد كبير ورفعت ساقيها على اخر قبالته، وقد بدأت تصيح من الألم. بحثت سمر عن كلمة تستطيع قولها للجدة ولكنها اكتشفت أن الحروف قد هربت من رأ سها، وأن لسانها أصبح كأنما أصيب بالشلل.

- اصمتي يا جدتي والا جاءنا الجيش وقتلنا. "لم تستطع سمر قول أي كلمة من تلك الجملة."

ظلت الجدة على أنينها وصراخها.

لم تدر سمر ما تفعله للجدة، كما أنها لم تكن تنوي أبداً نزع الحذاء من ساقيها خوفاً من الإضطرار للسير من جديد، وفجأة دخل شابان من شباب المقاومة إلى المنزل، بسلاحهما وعرقهما وهيئتهما التعبة الجائعة وقال أحدهما:

- أتسمحان أن نبقى معكما؟

لم تدر سمر بما تجيب ولكن الجدة بدأت تتمتم كأنها تغني. قال الشاب وقد وضع سلاحه وهبط على الأرض:

- سنخفي السلاح وسنقول إنك شقيقتنا وهذه جدتنا فما رأيك؟

ظلت سمر تنظر اليهم بصمت

- لقد نفذت الذخيرة، الا ترين أو تسمعين أن الأسلحة التي بأيدينا لم تعد صالحة بعد نفاذ الذخيرة، انصتي هل تسمعين غير القصف الإسرائيلي؟

جلست سمر قرب جدتها صامتة فأومأ الشاب إلى صديقه أن هيا.

أخذ الشابان السلاح وبحثا في المنزل عن مكان آمن يخفيان به السلاح، وعادا ليجلسا بصمت في الغرفة.

صمتت سمر وصمت الشابان فظهر صوت الجدة يقول بحسرة:

يامنجلي يا مين جلاه　　راح الحداد وانجلى
حصد الزرع يا منجلي　　أو حصد الحبايب والهلا

هز الشاب رأسه وقال معلقاً:

- بل حصد الحبايب والهلا.

كانت أرجل الشابين لا يتوقفون عن الحركة رغم صمتهما وجلوسهما أمام الجدة وسمر، التي ظلت ترتجف بشكل ملحوظ. قال أحد الشابان للآخر:

- لقد استسلم عدد كبير من المقاومين، فلم لا نستسلم؟
- إصمت، ألم تر كيف جعلوهم يخلعون ثيابهم وربطو أيديهم وأجلسوهم بطريقة مفزعة على الأرض.
- ولكن...
- ماذا؟ إما أن يكتب لنا الله النجاة وإما الشهادة على هذا اتفقنا.

صمت الشاب فقال الآخر وكأنه يفسر الوضع للجدة ولسمر المرتجفة، بجمل متقطعة.

- استسلم الكثيرون. نعم، قلة هي الباقية مع أبو جندل وطوالبة. الآن وبهذه الظروف كل المجموعات اختلطت ببعضها، والجميع هنا في الوسط والجرافات تتقدم منهم وتهدم البيوت على من فيها.

قال الشاب الآخر يكمل رسم الصورة:

- ما يجري في الخارج يفوق التصور، لقد كنا في منزل الدسوقي، مسكين، لقد تركناه حين اقترب الجيش من منزله حتى لا نؤذيه أو نؤذي أحد من أهل بيته، ولكن الجيش وضع مقدمة البندقية على جارته وأمرها بالتقدم لفتح باب المنزل. ولما وجدوه مغلق فجروا المنزل على أهله. لا نعرف من مات منهم ومن نجى.

صمتت سمر وقد تذكرت أبو إسحق وهو يقول لها:

- الا تفهمين يا سمر، كيف ستصبحين صحافية وأنت لا ترين الوجه الحقيقي للعالم.

ركزت سمر رأسها على كتف جدتها وفضلت البقاء صامتة على سماع المزيد من الأخبار.

فتحت الجدة صرتها وأخرجت قطعة واحدة من البرازق وقالت:

- هذه لنا جميعاً.
- وأخذت تقسمها بينهم ثم قالت:
- ابحثوا عن الماء، فهو خير من الطعام.
- لا أدري لم لم نعد نشعر بالعطش أو حتى الجوع، ولا أدري متى كانت آخر مرة شربنا فيها.
- إصمت، إنه صوت الجيش.

صمت الجميع، ولكن صوت أم عمر كان قد ملأ الدنيا وهي تصيح:

- قتلوه، كان معاقاً لا خوف منه وقتلوه، ابني قتلوه.

بقي أحد الشابان في المقعد يضرب بقدمه على الأرض ضربات خفيفة مستمرة، تعرب عن توتره المتزايد، مر بعض الوقت على هذا الحال وبدأت أصوات الإنفجارات تعلو من جديد، وأصوات الجرافات تمضي قدماً في هدم البيوت، رجفات سمر القوية تزيده ضيقا، توقفت قدم الشاب عن طرق الأرض فجاة وأخذ جلسة الإستعداد للنهوض المفاجئ ثم قال:

- علينا مغادة المكان بسرعة، هناك أصوات تقترب.

أسرع نحو المدخل ولكن شابان آخران فاجآه يدخلان مترنحان، قد كاد التعب يقضي عليهما، أمسك الشاب بالأول وساعده على الجلوس على الكنبة،

في حين هبط الآخر على الأرض وقال:

- لقد كان كميناً ناجحاً.

تفاءلت سمر، وسأله الشاب:

- الا يزال هناك مقاومة وكمائن؟ لقد نادوا عليكم للإستسلام.
- الحمار بن الحمار، ذاك الجندي فعل ما عجزنا عن فعله، حاصرناهم فطلب من الأباتشي قصف المنزل قبل أن ينسحبوا منه، لقد قتل كل فرقته.نعم، لقد سمعتهم يقولون "تتكشير لاباتشي"، اتصل بالأباتشي، وقد فعل.
- لقد ارتبكوا من الكمين رغم أنهم كانوا أكثر من خمسة عشر جندي، ألم تسمعهم يشتمون شارون وعرفات وطوالبة؟

حاول الشبان الأربعة التضاحك، ثم تساءل أحدهم عن جرعة ماء، ولما لم يجد قال للآخر:

- لننطلق الآن.
- أتعرف الإتجاه؟
- أظنهم سيكمنون في منزل الزبيدي، لنساعدهم.

في صباح اليوم التالي بدأ أبو إسحق يلوم نفسه على ترك سمر، فالوضع بات مكشوفاً جداً بعد أن كان الجيش قد رصد معظم تحركات المقاومين، و قسم ما تبقى من حارة الحواشين إلى أربع مربعات بواسطة الجرافات التي جرفت كل المنازل الواقعة في طريقها، طرق عريضة تفصل كل مربع عن آخر، أصبح من الإستحالة بمكان أن ينتقل أحد المقاومين من مربع الى اخر دون أن ينكشف بجلاء أمام الجيش وطائراته، كما أصبح الوضع بالنسبة للجيش أكثر سهولة في الإنقضاض على المربعات الصغيرة.

لم يدر الشباب المقاتل وقد نفذت معظم ذخيرتهم ما يفعلونه، وقد بان لهم أن الجيش لا بد قاتلهم بين برهة وأخرى، تجمعوا حول طوالبة وسألوه

المشورة ولكنه قال:

- اللهم إني لا أملك سوى نفسي أقدمها فداء لك وللحق، أما هؤلاء الشبان فإني لا أملك أن آمرهم بالصمود بهذه الظروف.

ثم أكمل وهو ينظر إليهم:

- ليفعل كل منا ما يستطيع لينجو بنفسه، من استطاع فيكم الفرار بروحه فليفعل، ومن أراد البقاء معي فليفعل، أما أنا فسأبقى أحارب حتى ألقى الله وأنضم إلى المجاهدين الذين سبقوني إليه.

عرف أبو إسحق أنه لا محال سيقابل عزرائيل هذه المرة، وعرف الشبان أن الأمر آتى على نهايته، وأن عليهم اتباع حدسهم وذكائهم للخروج من هذه المذبحة، قال أحدهم:

- إن جمال عرض علينا أن نتفاوض مع الجيش باسم السلطة لتسليمنا وضمان سلامتنا.

فقال الآخر:

- إنه موظف في المجلس التشريعي «ومحسوب على فتح» وعلى الرئيس عرفات لعله يستطيع عمل شيء لنا.

لم يلتفت محمود طوالبة لما يقولون، وتركهم يحددون ما يريدون فعله بحرية تامة.

نهض الشاب يريد التوجه إلى منزل جمال، وتبعه عدد لا بأس به من الرفاق وبقي طوالبة مع أربعة من المجاهدين فقط.

تبسم طوالبة وحمل سلاحه وقال:

- أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله.

ردد رفاقه بعده الشهادتين وتقدموا خلفه.

اقشعر جسد أبي إسحق وفرت من عينه دمعة أحرقت فؤاده، ونظر إليهم مودعاً وبقي على جلسته.» انهم ملاقوا ربهم لا محالة وانا العجوز افر بروحي من زقاق الى اخر»

تأكدت شهادة محمود طوالبة وعبد الرحيم فرج وأمجد الفايد وشادي النوباني. الرفاق الاربعة.

جاء الخبر إلى أبو جندل وإلى شقيقا الشهيدين الفايد والنوباني وكان التعب والعطش قد أخذا منهم كل مأخذ، لم يكن هناك متسع للحزن والعزاء، وإنما كان اليقين أن الشهادة على موعد معهما.

جاء فجر يوم الثلاثاء، وكانت سمر تترنح بين غفوة ويقظة مع كل حركة أو انفجار، الا أنها انتبهت إلى الشابان يتبادلان الحديث بصوت هامس قرب النافذة:

- انظر، انظر.

أطل أحدهما بطلة خاطفة ثم تدارى على جانب النافذة حيث رفيقه وقال:

- نعم، لا تنظر سوف يقصفون المنزل إذا لمحونا.

انتاب سمر شيء من الخوف فوق خوفها المعتاد وتساءلت:

- الجيش قادم إلينا إذن؟

حنى الشابان ظهرهما، ثم قال أحدهما:

- إنها فرقة كوماندوز، لقد أدخل الجيش فرقة كوماندوز إلى المخيم ومعهم كلاب بوليسية، إنهم ينزلون من ناحية الجابريات.

قال الآخر:

- انا اسمي خليل، إذا أخذوني فقولي لأهلي أنني معهم، وهذا شادي.

فقاطعه شادي وقال:

- سنقتل أيها الغبي، والا فسلم نفسك كما يفعل بعض المجاهدين في كل يوم، ربما علينا الهروب الليلة من هنا.

عاد الصمت ليحكم المكان، ولكن الجدة كانت تهتز في جلستها وتقول:

- إحنا العرب العطارف.. ما يهرب منا غير النذل والخايف.

هز الشابان كتفاهما وكأن الأمر لا يعنيهما في حين أكملت الجدة:

هللوا له يا بابا أمه راحت عالغابة

بتجيب لك حبة قطين وبتشبعك لليلتين

لم يتفوه أحد بأي تعليق على كلام الجدة، واعتبروا أنها عجوز قد خرفت وليكن الله في عونها. فقال أحدهم وكأنه يتحسر على ما جرى:

- اعتقد ان قدوم فرقة الكوماندوز المكونة من حوالي أربعين جندياً، والمزودة بكل المساندة الحربية من دبابات وبلدوزرات وجنود اسرائيلين، قد أتت لتضع اللمسات الأخيرة على هذه المعركة، لقد أنهكت المقاومين تعباً وجوعاً وعطشاً وجراحاً في حين كان الجندي الإسرائيلي المرفه، يحمل أكثر مما يحتاجه الإنسان العادي ضمن ثيابه من أكل وشرب وحلويات وحتى إن بعضهم كان يحمل "المخلوطة".
- ماذا سيحصل الآن؟
- لن يهدأ الجيش قبل تصفية أبو جندل.

أعاد الشاب استراق نظرة سريعة إلى الفرقة ثم قال:

- ليس من عادتهم دخول المناطق بهذه الطريقة !

- انهم يعتقدون أن هذه المنطقة قد مشطت بنيران الطائرات وفرغت من المقاومة، والا لما دخلوها.

مر وقت ليس بقليل بين حرص وقلق، قبل أن ينتبه الجميع إلى أصوات ورشاشات، وقذائف تنفجر على مقربة منهم، انتفض الشابان، وتوقفت الكلمات على لسانهما، حتى تمالك أحدهم نفسه وقال وقد برق الأمل في عينيه:

- إنها الأكواع أنصت جيداً،انه سلاحنا وليس سلاح الجي، إنه كمين لقد تمكن منهم أبو جندل، استمع إنه صوت صراخ الجنود.

هبط الشابان على الأرض بغبطة.

كان صراخ الجنود الفارين والمحترقين يملأ الأجواء، حتى ظنت سمر أن كل من في منطقة الحواشين قدسمعه رغم أصوات الطائرات والدبابات المتجة إلى الموقع، ورغم بدء المواجهة بشكل أوسع عادت المجموعة للكر والفر من منزل إلى آخر، حتى انتهى المطاف بأبي جندل ورفيقه في أحد المنازل ينظران إلى بعضهما البعض بصمت وقد أيقن كل منهما أنهما آخر رجالين في المقاومة بعد استشهاد كل الأصدقاء قبلهما.

اشتد القصف على المنطقة واشتد الرد بما توفر للأشبال من عدة بعد أن عاد الكبار لإستعمالها لقلة الذخيرة وعلت أصوات الجنود ينادون على المقاومين، وعلت أصوات المقاومين يردون عليهم دون أن يتضح الأمر للكثيرين، الاّ أن أحد الشابان وقد ضرب كتفه بكتف صديقه.

- الا تسمع تصايح الجنود أظنهم....
- الا تفهم العبرية؟
- أفهمها جيداً.

صمت الإثنان بينما تصايح الجنود في الخارج وبدى أنهم في موقع ليس

ببعيد عنهما فعاد الشاب ليهمس لرفيقه:

- إن أبو جندل وجماعته قتلوا عدد كبير منهم اليوم، وأظن أن القيادة تأمرهم بطلب هدنة من المقاومين لسحب الجثث.
- ماذا؟
- اسمع، لقد جنوا، حتى يسمح لهم المقاومون بذلك أو تبقى الجثث في..
- أين؟
- لا أدري ما هذه الكلمة، ولكن بالتأكيد ليس في أحد المنازل.

تسمرت سمر قرب جدتها، وبدا كأن جسدها قد رشم بالمسامير لشدة القشعريرة التي انتابتها، بينما قالت الجدة:

- لم يتبق شيء للأكل.

لم يهتم أي من سمر أو الشابان لذلك الخبر، ولكن الجدة أكملت:

- أظن أننا قاربنا على الوصول للنهاية.

قرر الشابان والوضع بتلك الخطورة، البقاء في صحبة سمر والجدة تلك الليلة، على أن يغادروا مع أول أنفاس الفجر، ولم يكن أحد ليعرف ما يخبئه الفجر.

كان أبو إسحق يجتهد في إيجاد سمر دون جدوى، وقرر أن يخاطر ويستغل الظلام الدامس في تلك الليلة للتسلل من منزل إلى آخر:

نهض أبو إسحق عن الأرض وانطلق عبر الثغرات حتى دخل منزلاً كان فيه عدد من الشباب، منهم شاب جلس قرب النافذة للمراقبة، وآخرون تمددوا على الأرض لأخذ قسط من الراحة. قال أبو إسحق:

- السلام عليكم.

ولكن أحداً لم يجب، كان ذلك طبيعياً بالنسبة لأبي إسحق في لحظات

الحذر تلك، لذلك مد جسده بين الشبان واستسلم للنوم ولم يفتح عينيه الا حين أدخل الفجر أول شعاع له إلى الاجواء، فتح عينيه ونهض، نظر إلى رفاقه في الغرفة ليجد نفسه قد بات بين جثث محترقة، حتى الصامت على النافذة نالته قنابلهم الحارقة، القنابل المحرمة حلال على أبنائنا نحن، كاد أبو إسحق أن يصيح بملئ فيه:

- بأي ذنب نقتل؟ بأي ذنب نستباح؟

ولكنه ابتلع صرخته ونفض نفسه من بينهم بسرعه، وانطلق يكمل بحثه عن سمر، كانت سمر تراقب الشابان شادي وخليل اللذان همَا بمغادرة المنزل، وتركها والجدة لوحدهما، ولكنهما بين مماطل وخائف أحسا بأن هناك من يثقب الحائط عليهم من الخلف، إلتفت شادي ليستطلع الأمر، ولكنه تراجع على الفور وقال هامسا:

- إنه الجيش.

وما هي الا لحظات حتى أطل الجندي وسأل:

- من غيركم في المنزل؟

قال شادي:

- لا أحد.

دخل الجنود على الفور وأمسكوا بالشابين وسألوهما:

- من أنتما؟

قال شادي:

- أنا معهم، إنها جدتنا.

وقال خليل الكلام ذاته ولكن الجنود شدوا وثاقهما وأمروهم بالخروج جميعاً من الغرفة للخارج.

خرج الشابان برفقة الجندي وتبعتهما سمر فصاح الجندي الآخر:

- أنت، خذي جدتك.

لم تدر سمر لم لم تشعر هذه المرة بالخوف، ولم يعد السلاح يرعبها، عادت لتمسك بيد جدتها وتصطحبها للخارج وقد مات شيء بداخلها، شيء جعلها تنظر في عيونهم دون أن ترمش أو ترتجف، هبطت الجدة على الأرض فوقفت بجانبها تنظر وتتساءل عما يجري، ماذا يفعل أكثر من عشرين جنديا مرهق وبحالة مزرية، وما هي الا لحظات حتى وصل عدد آخر من الجنود يحملون نقالات، كانت سمر تراقبهم وهم يدخلون الزقاق المقابل ثم يخرجون منه وقد حملوا جثة أحد جنودهم.

وصلت جثة القتيل الأول وعيون سمر تراقب، ولم تكن تدري أن عيون الجدة أيضا تراقب، حتى قالت الجدة:

- هل هذا جندي يا سمر؟
- هزت سمر رأسها بالإيجاب.
- هل هو ميت؟

صاح الجندي بغيظ موجها كلامه لسمر:

- أنت.. أدخلي واجلبي غطاء فراش.

دخلت سمر بسرعة وسحبت الغطاء العلوي لاول سرير رأته، فأخذه الجندي وغطى الجثة.

حضرت الجثة الثانية وعيون الجدة تنظر ثم قالت:

- أهو جندي يا سمر؟

عادت سمر لتهز رأسها بالإيجاب.

- هل هو ميت؟

صاح الجندي بسمر:

- غطاء آخر، وأسكتي تلك العجوز.

ركضت سمر وسحبت الغطاء السفلي للسرير.

جاءت جثة الجندي الثالث والرابع والسابع وفي كل مرة تسأل الجدة:

- أهو جندي يا سمر؟

وفي كل مرة تهز سمر رأسهابالايجاب.

- أهو ميت؟

فتعود سمر لهز رأسها.

رفع الجندي سلاحه نحو الجدة وصاح:

- إن لم تسكتيها فسأقتلها.

هبطت سمر ووضعت يدها على فم الجدة، خوفاً عليها من القتل، فأدار الجندي سلاحه نحو خليل وشادي وقال:

- وأنتما، ستعتذرون للدنيا لأنكم جئتم إليها.

ظنت سمر أن الجدة هدأت فرفعت يدها عن فيها، لكن الجدة نظرت نحو الشابان وقالت:

- الرجال لا يعتذرون.

نظر الشابان كل في عيون الآخر، لم تدر سمر، هل تواعدا أم تودعا او لعل كلمات الجدة عنت لهما شيئا آخر.

كان الجندي يريد ضرب الجدة، لولا أن الجنود المنشغلين بنقل الجثامين طلبوا منه الابتعاد لمعاودة نقل الجثامين إلى منطقة أخرى، كانت عيون سمر

تطارد الجنود وهم يغادرون ويفرغون المنزل من جديد وظنت أنهم سيتركونهم لشأنهم، ولم تدر أن بعضهم قد يبقى لأجل التحقيق مع الشابين، صاح كبيرهم مشيراً لهما:

- أدخلا للداخل.

ولم تدر سمر لم أصرت الجدة على تكرار الجملة (الرجال لا يعتذرون).

صاح الجندي بسمر وقد بدأ الصبح يملأ الأرض نوراً:

- خذي جدتك واذهبي من هنا، سوف نفجر هذا البيت.

رفضت الجدة النهوض عن الأرض بسهولة، ولم يكترث الجندي لما يفعلاه بعد أن علما أن المنزل سينسف. كان لكلمات الجدة على قلبي الشابين وقعا اثار الحماسة،وفتح جرح الكرامة المهدورة، وجعلتهما يصران على عدم التعاون مع التحقيق

- اين ابو جندل؟

كان هذا السؤال الوحيد الذي سمعته سمرمن التحقيق العنيف الجاري مع الشابين وبعدها لم تسمع سوى صراخهما وهما يضربان ويعذبان، وصوت الكلاب وقد افلتت عليهما لنهشهما. كان صراخ الشابان يملأ الزقاق، فلم تر سمر بداً من ترك يد الجدة لأغلاق أذنيها بين الحين والآخر ثم الإسراع بالجدة نحو زقاق آخر، دفعت سمر أول باب صادفها وأرادت الدخول فوقع ناظريها على جثة محترقة تبدو جثة إمرأة لأن بعض الأساور لا تزال بيدها والغريب أن ذراع طفل كانت بجانب الباب وقدم صغيرة محترقة لا تزال بجانب الأم، أقفلت سمر الباب بسرعة وهي تصيح، لم تستطع سمر البكاء كما من قبل، وحاولت الإبتعاد من المنطقة بأسرها، فخرجت من الزقاق لتجد نفسها أمام بلدوزر ضخم وجنود ينادون على أهل المنزل ليخرجوا قبل هدمه. جلست

الجدة على الأرض وبدأت تصيح:

- أريد ماء... أريد ماء.

قررت سمر ترك الجدة حيث جلست والبحث عن الماء، مشت سمر تشاهد أكوام الملابس في زاوية الزقاق، فعرفت أن الجنود في هذه الزاوية أمروا أهل المخيم بخلع ثيابهم، اكملت سيرها تتعثر بقطع الأجساد هنا وهناك و ترى أن للعالم وجه آخر وعيون آخرى، وأن العيون التي ترى الحقيقة قليلة جداً، رأت سمر الجثث ملقاة في الأزقة نزفت حتى الموت وجثث الجنود أيضاً نزفت حتى الموت، الجثث محترقة من قنابل الأنيرجا ومتحللة، منع إسعافها أو الاقتراب منها، ورائحة الموت التي لم تعرف سمر عنها شيئا في البداية، بدأ انفها يميزها في كل مكان.

لم تجد سمر حرجاً بعد كل ما رأت من أن تمد يدها، وتسحب من جثة الجندي الاسرائيلي، مطرة الماء المقطرة التي على جانب زيه والعودة بسرعة نحو الجدة قبل أن تختفي كما اختفت صفاء من قبل.

شربت الجدة حتى ارتوت ثم سألت:

- أين نحن الآن؟

لم تجبها سمر وانما استجمعت قوتها ورفعت الجدة عن الارض ومضت، غيرت سمر وجهتها مرة أخرى لتجد نفسها أمام ساحة فارغة من المنازل على جوانبها ركام الحيطان المهدمة فقالت الجدة:

- أرض فارغة، هنا سيبنون لنا مخيم.

سحبت سمر الجدة، بعد أن قررت أن تجلس بها في أول منزل تجده مهما كانت ظروفه، فلم يعد يهمها شيء سوى الجلوس بجدتها حتى تنتهي هذه المحنة، دفعت الباب ودخلت دون أن تنظر إلى شيء، وحين نظرت وجدت

الدماء في كل مكان وبقايا أشلاء متناثرة هنا وهناك ورائحة الموت ترحب بها، لم تصرخ سمر ولم تتذمر وإنما تابعت سيرها نحو غرفة مقابلة وجلست وجدتها على الأرض. احتضنت الجدة سمر لأول مرة وقالت:

- اصبري، لقد كدنا نصل.

لم يعد شيء يهم سمر، الحياة باتت على هذه الأرض تساوي الموت، والوقت سيان جريه او توقفه، الانتصار لم يعد يعني الفرح والهزيمة ليست بالضرورة وليدة الجبن والتخاذل، والمخيم يمكن أن يكون معقل أسود ومجلبة فخر بدل وصمة عار لم تفهم تفسيرها قط، حاولت سمر أن تجد الهدوء في حجر جدتها، ولكن أصواتاً مقتربه نفضت فؤادها الصغير ظنت لوهلة أنها سمعت صوت صفاء ولكنها حين أطرقت سمعت صوت رجل يقول أدخلي وانظري لعلك تجديهما، تعلقت عيون سمر بباب الغرفه لترى من هناك وتهلل وجهها وقفزت حين أطلت عليها صفاء فاتحة ذراعيها صارخة:

- لقد وجدتها.

أخذت صفاء ابنة خالتها في حضنها واقتربت تقبلها تارة وتقبل الجدة تارة أخرى، والدموع تنهمر من كل العيون ثم سألت:

- أين سلمان؟

فتحت سمر فيها تريد أخبارها بالأمر ولكنها أحست كما لو أن جسدها كله قد ضاع منها، وأنها لم تعد سوى كيس جلدي ممتلئ بالهواء، لم تشعر بموقع الحنجرة ولا اللسان وإنما المزيد من الهواء يخرج من فيها كلما فتحته. صمتت صفاء وهي ترى سمر على هذا الحال، وشدتها إلى صدرها محاولة تفهم ما مرت به من رعب، ثم نظرت في عيونها وقالت:

- ستتعافين، هل تفهميني؟ أعدك أنك ستكونين بخير.

قالت الجدة:

- إذن أين وصلنا؟

جلست صفاء وقالت:

- لقد انتهى كل شئ أظن أن الأمر حسم، المخيم أصبح مساحات مجرفة لا بيوت ولا ناس في الخارج، نفذ السلاح و الكل يستسلم أو يستشهد، أظن أن عليك كتابة ذلك في جريدتك يا سمر، لقد رأيت في الساعات القليلة السابقة ما يكدر القلب، فأبو جندل لا مناص منتهي قريباً خاصة وأن رفيقه الوحيد قد استشهد، و تلك الجرافات الضخمه لا سبيل لتفجيرها.

تنهدت صفاء بحرقة:

- ليتني لم أر أو أسمع، لقد دخلت بالأمس منزلاً صدف وأن كان فيه آخر الشباب المقاتلين، لم تعد الدبابات جل هم المقاومين، ولا القذائف ولا حتى الجنود، فالبلدوزرات الضخمة كانت التحدي الكبير، لقد حاولوا قنص السائق، وحاولوا ضربها بالأكواع وتعرضوا لها بشتى الحيل دون فائدة، السئق على ارتفاع طابقين او اكثر في تلك البلدوزارات الضخمة، والذخيرة قد نفذت، اقتربت الجرافة من المنزل الذي اختبأت فيه، وقد صدف أن أبو جندل ورفاقه كانوا هناك يتساءلون ما العمل، قال أبو جندل:

- لم يتبقى معي سوى حبة واحدة فماذا ترون.

قال آخر:

- فجروا البلدوزر أما بقية الأشياء فنحن نستطيع التغلب عليها بشكل أو بآخر.

صمت أبو جندل قليلا ثم نظر إلى القلة الباقية من الرفاق فقالوا:

- خلصنا من البلدوزر، لقد يئسنا من مواجهته.

قال أبو جندل:

- هذه آخر حبة متفجرة، وقد لا تؤثر في البلدوزر.

قال الشاب:

- اضربه يا أخي، إضربه لأجل الله والا متنا جميعا.

تقدم أبو جندل وقد قرر النزول عند رغبة زملائه، وضرب المتفجرة الأخيرة على البلدوزر المتقدم، نظر المقاومون إلى البلدوزر فلم يروه لشدة الغبار والدخان الذي أثير هناك، فكبروا وهللوا واستبشروا خاصة وأن صوت البلدوز قد توقف، ولكنها كانت دقائق معدودات، هدأ بعدها الغبار، وبدأ البلدوزر بالظهور من جديد، وعاد صوته ليعلن أنه قادم لهدم المنازل على رؤوس من فيها.

قال أبو جندل:

- هذه هي النهاية يا شباب فليختر كل منكم طريقه.

ولوهلة انهارت القوى المعنوية والجسدية للجميع، ولم تعد أرجل المجاهدين قادرة على حملهم بعد أن عرفوا ان البلدوزرات قادمة لا محالة، وأن أي حركة لهم من هذا المنزل ستكون قاتلتهم، و علا صوت بعضهم يتسائلون ماذا بعد علينا التفكير بسرعة قبل وصول الجرافات.

لم يدر أحد من أين أتى بعض الاطفال، الأشبال، المجاهدين الصغار، إنهم بمثل عمرك يا سمر وأكبر قليلاً، وكيف تمكنوا من الوصول إلى المجموعة لا أحد يعرف ولكن أصواتهم الشجاعة أعادت للمجموعة صوابها فقد قال بعضهم متدخلاً:

- إذا كانت الشهادة ولا مناص فلم تتصايحون.

اقشعر بدني وارتجفت خوفاً، إنهم يتحدثون عن الموت كما نتحدث عن

الحياة، قال لهم وهو فتى بعمر الورد:

- نحن ميتون لا محالة، توضأوا: توضئوا، صلوا، اذكروا الله يا شباب ماذا بكم، قابلوا ربكم صادقين، أليس لديكم استشهاديين؟ ألم تدعوا أن بينكم استشهاديون؟ أين هم؟ ليخرجوا وليواجهوا الزحف القادم ولتبتعدوا أنتم قدر المستطاع إذا كتبت لكم الحياة.

صمتت المجموعة وعيون أبي جندل تنظر وبدأوا يتعوذون من الشيطان ويستغفرون الله، ثم قاموا وضربوا الحائط بأيديهم في مجموعات صغيرة في نية التيمم، تيممت المجموعة وعادت إليها أعصابها الهادئة القوية، صلى المقاومون على الأرض وصلى أبو جندل وكأنما كانت صلاتهم الاخيرة:

ابتلعت صفاء ريقها وتلفتت حولها كأنها تبحث عمن تلومه على تلك الحرب، ثم قالت:

- لقد اختار أغلب الشبان التوجه إلى منزل جمال المسؤول في السلطة بعد أن وصلتهم أخباره أنه يحاول الخروج بكل من معه كأسرى حرب من خلال اتصالاتة مع إذاعة الجزيرة وأطراف أخرى، وأنا بالطبع تسللت خلف أحدهم أبحث عنكم حتى وجدتكم. يقولون إنهم يشحنون هواتفهم رغم انقطاع الكهرباء بواسطة بطاريات صغيرة يعرون الأسلاك ويصلونها بالبطارية، وبهذا تمكنوا من التواصل مع بعض ومع قناة الجزيرة.

بالنسبة لسمر الحرب هكذا بعودة صفاء قد انتهت، يمكنها الإحساس بالإطمئنان الآن بعض الشئ، كل الأخبار الأخرى لا تهم، لذلك حضنت صفاء بقوة ولم تنتبه أي منهما أن الشاب قد أغلق باب الغرفة خلف صفاء عند مغادرته.

كانت ساعات قليلة من الإطمئنان الحذر، عاشتها سمر وصفاء معاً قبل أن

يطرق الجنود على الباب آمرينان يفتح بغضب صارخ:

أزاحت صفاء سمر عنها وأسرعت تريد فتحه، ولكن ما إن وصلته حتى دوى صوت الانفجار، أيقنت سمر أنهم فجروا الباب وسمعت أصوات الجيش تصيح فيها: "أخرجوا سنهدم البيت". ولكنها ظلت تنظر نحو الباب، متى ستطل صفاء لأخذها والجدة إلى مكان آمن.

كان على سمر أن تخرج لتنظر، لعل صفاء قد سبقتها للخارج فمشت لا تدري إن كانت قدماها قد لامست الأرض أم أن الدنيا هي التي تسير تحتهما، كل ما تعرفه أنها رأت جسداً محترقاً أمام الباب يلبس تماماً كما لبست صفاء. هبطت سمر تزيح الوجه المحترق نحوها، ولكن أحد الجنود سحبها ورمى بها للخارج، بعد أن أصرت الجدة على البقاء في انتظارها على عتبة البيت.

الرغبة في الصراخ كانت قوية، ولكن لا صوت يخرج من فم سمر، الألم كان أكبر من أن يحتويه قلبها الصغير، لماذا خرجت في النهاية إلى الحياة وحدها والجدة، لم بقيت صفاء وسالم وحمدان هناك؟ من يمكنه الإجابة على هذه الاسئلة؟ فلتخرس كل الألسن إذا لم تنطق بالحقيقة، رحم الله أبا إسحق، رأى أكثر مما رأى الجميع.

كان بكاء أم سالم وهي تستمع إلى سمر تحدثها بما جرى لابنتها صفاء، يلفت انتباه المارة في ساحة المستشفى، أما سمر فقد لفت وجهها عنهم وحملقت في البوابة الكبيرة وكأنها تنتظر قدوم أحدهم.

مسحت سمر عيونها وحملقت، مسحتها مرة أخرى وقالت:

- انتهى الاجتياح، وتدمر المخيم، تشرد الناس من جديد، تشردوا في المخيم الذي ابتكره لهم العالم لينساهم فيه، ولكنهم أبوا الا أن يطفوا بقضيتهم على سطح المظالم العالمية، تدمرت مُثلي واعتقاداتي بالعدل، إضمحل

إيماني بجمعيات حقوق الانسان، ومحاكم العدل العليا، وتقصير الصحفي الفلسطيني في إيصال الصورة، العالم يسمع ما يريد، بل وأصبح يرغمك على قول ما يحب سماعه.

تدمر المخيم واستشهدت صفاء وضاع وليد، وليد أبو العزايم، كان يظن أن في هذا العالم الظالم اتساع لعزائمه. وانا لا ازال حتى الان ارى صفاء تفتح لي الباب وارى وليد في كل الوجوه،

مسحت دمعها من جديد وفركت أنفها ونظرت في كل اتجاه كأنها تبحث عن شيء معين، ولكنها تسمرت فجأة وهمست:

- ها هو، أنا لم أكن اتخيله،

أشارت نحو الباب، التفتت أم سالم ونظرت، شاب وفتاة يغادران، ما الذي تقصده سمر، وقبل أن تسألها، كانت سمر قد استوقفتهما قبل خروجهما وقالت:

- أنت، الا تعرفني؟

تبسم ابتسامة رقيقة ابتدأها على جانب من فمه، ثم نظر في عينيها، فانتشرت ابتسامته على سائر وجهه، أجابت الفتاة:

- من أنت؟
- بل من أنت؟ انا أريد الإجابة منه، أنت وليد، أنت أبو العزايم فلم لا تجيبني؟

بقي على ابتسامته فقالت الفتاة:

- الآن عرفتك، أنت سمر.

نظرت سمر صوبهما بغضب، ولكن الفتاة أكملت بهدوء:

- أنا شقيقته التي كانت تطلبك من الهاتف النقال، وتطمئن عليك أثناء

وجودك بمخيم جنين.

تغيرت ملامح سمر وأرادت الإعتذار ولكن الفتاة تابعت:

- إنه كما ترين، لا يعرف أحد.
- مستحيل، وليد!
- أتذكرين الإجتياح؟
- وهل أستطيع نسيانه؟
- لقد قدم متطوعاً للمخيم.

خفضت سمر عيونها بالأرض، وكأنها تخفي أنه اتى لأجلها، في حين أكملت شقيقته:

- أمسك به الجنود، وجعلوا منه درعاً بشرياً، يمر قبلهم في الأزقة حيث كان الشباب قد ربطوا علب الكولا الفارغة على عرض الزقاق كما حبل الغسيل، حتى إذا ما لمسه جندي قرعت العلب فينتبه الشباب لقدومهم ويهربوا، أما أن كان القادم وليد فلا هروب وبالتالي ينقض عليهما الجيش دون عناء، ولكن وليد حين وجد نفسه يقترب من تجمع الشبان ركض وصرخ:
- اهربوا، إنه الجيش.
- بالطبع هرب الجميع ولكن الجنود كانوا يمسكوه، ويضربوه بالبنادق والنعال على رأسه خاصة حتى يفقد وعيه.
- كانت عيون سمر تتأمل وجه وليد المبتسم وشقيقته تكمل:
- أيقظوه وسحبوه لموقع تجمع آخر، فأعاد فعلته وأعادوا ضربه حتى فقد وعيه مرة أخرى، أعادوا فعلتهم وأعاد فعلته مرات ومرات، وفي النهاية تركوه كالجثة الهامدة، البعض ظنه قد مات بالفعل، نقل للمستشفى على أمل أن يتعرف عليه أحد.
- إذن، هل تقولين إنه لا يعرفني؟ يا إلهي...
- إنه لا يعرف أحد. لذلك آتي لأخذه بنفسي كل يوم إلى المنزل، إنه يعمل هنا

في تنظيف المستشفى، لم يرد مغادرته بعد وفاة والدتنا..لذلك...

نظرت سمر في عيونه مباشرة وسالته:

- أتعرفني؟

هز وليد رأسه بالإيجاب، فنظرت الفتاتان بعيون بعضهما لبرهة، ثم سألته:

- من أنا؟
- أنت الخروف المحشي.

بانت خيبة الأمل على وجه سمر ولكن شقيقته قالت:

- الاطباء يقولون إن جزء من دماغه قد تلف.

أمسكت سمر بيدي وليد بقوة وشدت عليهما ولم تدر ما تقول، سحبته شقيقته برفق وقالت:

- بعد إذنك السيارة تنتظر.
- لا، لن اتركه هذه المرة
- ارجوك، ليس هناك ما تستطيعين فعله
- بلا، لا بد ان يكون هناش شيء افعله لاجله
- لا اعتقد ذلك، ارجوك، انظري اليه جيدا، انه يبتسم لك ولا يعرفك، لو انه عرفك ما بقي على ابتسامته

ابتعدت الفتاة بشقيقها وتركت سمر وهي تشعر بالحمق، لا بد أن هناك شيء يمكنها فعله، هل تتركه يذهب هكذا، وبتلك البساطة؟ صاحت ارجوك انتظري ولكن احدا لم يلتفت لها، بقيت سمر تنظر إليه وهو يغادر وكأن آخر شريان للحياة قد سحب منها.

- خروف محشي؟ أنا؟ أنا لم أر خروفا محشياً طوال حياتي سوى مرة واحدة.

شئ قفز في صدرها وهي تتذكر أن تلك المرة كانت معه، لقد وعدها بخروف محشي.

- إنه يذكرني.

نظرت إليه بسرعة تريد استيقافه، ولكنه كان يركب السيارة ويغلق الباب تعلقت عيونها بعيونه وهويبتسم ويبتعد، تماماً كما كانت تبتسم له من خلف الزجاج وهي طفلة بسيارة والدها وتبتعد.

أطبقت سمر عينيها بحرقة على صورة وليد وهو يبتعد من جديد، وضغطتهما على دموعها الفارة، وانت انين المكلوم، ثم تسمرت في مكانها لا تتحرك، كأنما غدت تمثالاً من تماثيل المطلع، حتى لفتها خالتها بذراعيها من الخلف برفق وقالت:

- هيا بنا، غداً سنغادر وسنترك كل الامنا وجروحاتنا هنا، سنهجر الحزن ونبدأ من جديد، إن الحياة لا تقف عند مصاب أحد.

سارت سمر بصمت إلى غرفتهما ثم ألقت بنفسها على فرشتها واجهشت باكية حتى غلبها النعاس ونامت.

فتحت سمر عينيها مع صباح اليوم التالي مبتسمة، وراحت تسترجع الحلم الذي رأته وتتساءل لم قد ترى في منامها جدتها تمسك يدها وتغادر معها المخيم المهدوم من جديد؟ ألم تغادراه بالفعل في ذاك اليوم؟

- نعم أذكر ذلك، نعم لقد غادرنا معا، نادانا الجندي. تماماً كما في المنام.
- أنت إلى أين؟
- حدقت الجدة به و قالت:
- إلى جبع؟

قال الجندي:

- وما ذاك؟ انصرفوا من هنا بسرعة قبل أن نهدم بقية البيت عليكما.

تضاحكت سمر وهي تذكر مشية جدتها المتهادية على الجنبين، وقد صدّقت أنها في طريق العودة لجبع، وبدأت سردها المعهود:

- إن في جبع شرطي، ومصلح بوابير، ومدرسة، لها مفقص دجاج ولها بستان لتعليم الزراعة، كان فيها بئر، اما اللجون فكان فيها عيون ماء طبيعية لا يعطش بها أحد.

لم تعط سمر بالاً لحديث جدتها التي تابعت تقول:

- كنا نزرع كل أنواع الحبوب والليمون أيضا، كان هناك قاعة أفراح وسكة حديد ومشروع لمولد كهرباء لا يقطعها علينا أحد، سآخذك إليها وسنمر ببلدات كثيرة.. اللجون..زلفة.. رمانة.

عادت سمر لتمسك بيد الجدة التي كانت لا تزال تردد أسماء بعض القرى المحتلة فسمعتها تقول:

- المنسي، دير ياسين، دير طريف، المزار...

تضاحكت سمر مرة أخرى وهي تذكر جدتها تجلس على الأرض لأخذ بعض الراحة قبل متابعة السير وتبتسم وتقول:

- ألم أقل لك كدنا نصل.

ثم أكملت نشيدها وسمر تنشد معها هذه المرة بعد أعوام طويلة:

نـــحــــنـــا نـــويـــنـــا	وعــالــنــبــي صـلـيـنـا
يـــا كـــل الحـبـايـب	تـعـالـوا اشـهـدونـا
ذبــحـــنــا الــذبــايــح	والــــــــدم طــايــح
ذبــحـــنــا الــذبــايــح	عـلـى المــرج الاخـضـر

والي مش مصدق　　يـمـيـنـا ويـمـضـر
يـــأبـــو بـــــارودة　　لا تـــفــرح لفيبتنا
مــــغــارنـا بتـكـبر　　والـــــدهــــر مـيـــالي

انتبهت الخالة لترنم سمر فاستبشرت وسألت:

- ألم تكن أمي تغني هذا اللحن؟
- بلا.. رحمها الله
- انظري من أتى لزيارتنا؟

رفعت سمر رأسها لتجد مصطفى يلوح لها ويقول:

- أرجو الا أكون تأخرت.
- بل حئت في الوقت المناسب، ستساعدنا في المحاسبة وحمل الحقائب.

تضاحك الجميع وبدى لهم في ذلك الصباح، أن الطقس سيكون لطيفا لذلك اليوم، وأن رحلة العودة من المستشفى إلى المنزل ستكون مريحة. حمل مصطفى الحقيبة وتبعته أم سالم يخرجان من المدخل نحو السيارة حيث تنتظرهما سمر ومن دون قصد اصطدمت أم سالم بشاب يريد الدخول فقالت:

- آسفة.

وإذا بالشاب بتوقف أمامها متأثراً ويكرر بنعومة الفتيات:

- بل أنا الآسف، وحياتك سامحيني، آسف.

ابتعدت أم سالم وعيونها تنظر نحوه باستهجان، وما إن وصلت السيارة حتى سألت:

- ماذا كنت تقولين حول اعتذار الرجال.

علت ضحكة سمر وقالت:

- دعيك منه إنه «فافي».
- ماذا... وما هذا أيضا؟
- «فافي او طنط» مصطلحات جديدة نسمي بها هؤلاء المتشبهين بالفتيات، إنهم أخواتنا هل فهمت قصدي؟.
- إذن...

قالت سمر بنبرة الاعتراض:

- إذن ماذا... الرجل...، هو من نتحدث عنه، الرجل الحقيقي، الذي يعترف أنه إنسان يمكنه أن يخطيء ويمكنه أن يعتذر. لمَ نبيح له إيذاءنا ونتجادل حول وجوب إعتذاره؟ ألسنا بشر مثله؟ ألسنا الأكثر إحساساً؟ ألم يقل القرآن «ولهن مثل الذي عليهن».

جلست الخالة في السيارة تنتظر أن ينتهي مصطفى من تحميل الحقائب، وهي تقلب كلام سمر في رأسها ثم قالت:

- أنا اؤمن أن الحل بيد المرأة، فهي التي تلد الرجال وهي من يربيهم، وهي العروس التي عادة ما تبدأ حياتها معه بالحب وتعلمه كيف يعاملها.
- ربما، الى حد ما

ابتعدت السيارة عن مستشفى المطلع، لم تشأ سمر الإلتفات للخلف فقد قررت تنفيذ كلام الخالة والبدء من جديد، رغم انها تشعر أن وليد في مكان ما يتبعها بعيونه وببعض الخطوات المترددة حتى غابت عن الانظار، نظرت الخالة في عيون سمر كأنما تريدها أن تستمع جيداً لما ستقوله وقالت:

- لقد قررت..
- ماذا؟
- ربما لن نعود اليوم للمنزل في مخيم جنين.. ربما ننزل في نابلس عند نهلة.
- ولم؟

- لأني أعتقد أن عمك يدين لي بالإعتذار.
- نعم.

شدت كل من الخالة وسمر على يد الأخرى، وعلت ضحكة مصطفى فوق تضاحكهما، وقال:

- الكنافة النابلسية على حسابي

وعلا صوت تضاحك الجميع، مضت السيارة مبتعدة.

تم بحمد الله